لَيْتنا لَم
نَكُنْ قَطّ!

دار العلم للملايين

شارع مار الياس ـ بناية متكو ـ الطابق الثاني
هاتف : 306666 1 (961) + ـ فاكس : 701657 1 (961) +
ص.ب. : 1085 ـ 11 بيروت 8402 2045 ـ لبنان
internet site: www.malayin.com
e-mail: info@malayin.com

الطبعة الأولى 2015

جَميعُ الحُقوقِ مَحفوظة
لا يَجوزُ نَسْخُ أَوْ اِستِعمالُ أَيّ جُزْءٍ مِنْ هٰذا الكِتابِ بأَيّ شَكْلٍ مِنَ الأَشْكالِ أَوْ بِأَيَّةِ وَسيلَةٍ مِنَ الوَسائلِ ـ سَواءٌ مِنْها التَّصْويريَّةُ أَوِ الإِلِكْتْرونِيَّةُ أَوِ الميكانيكِيَّةُ، بِما في ذٰلكَ النَّسْخُ الفوتوغْرافيُّ، والتَّسْجيلُ عَلى أَشْرِطَةٍ، أَوْ سِواها وحِفْظُ المَعْلوماتِ واسْتِرْجاعُها ـ مِنْ دونِ إِذْنٍ خَطّيٍّ مِنَ النّاشِرِ.

Copyright© 2015 by
Dar El Ilm Lilmalayin,
Mar Elias street, Mazraa
P.O.BOX:11–1085
Beirut 2045 8402 LEBANON
First published 2015 Beirut

لَيْتنا لَم نَكُنْ قَطّ!

رواية

سوسن حَدّاد

دار العلم للملايين

الإهـــداء

إلى آدم، فلولاه لَما كانَ شيء. وأترُكُ لكَ هٰذه (...)

أقدّمُ شكري واحترامي إلى:

صديقاتي وأكثر: رحاب وهناء وإيمان

مُلهمي: الدكتور محمود سعادة

To my nonstop supporter: Kyoko Kimura

إلى اللَّتَيْنِ استضافَتاني في بَيْتهِما: حنان وشقيقتها

إلى حُسنِ النصيحة: أشقّائي

إلى قوس قُزَح: رافي

ونهايةً إلى أبي، فمِنْهُ التحفيزُ، وأُمّي منها الدرس

«ألوانُ طيفِ قوسِ قُزَحَ سبعةٌ، ولٰكنْ نرى منها في السماءِ أربعةَ ألوانٍ فقط...

ونصرُخُ ها هُوَ قَـوْسُ قُـزَح!!... لا نجرُؤُ على مواجهةِ أنفسِـنا بحقيقةِ ما نرى.»

* * *

جلسَـتْ في المطبخِ تحتسـي فِنجانَ «النسـكافيه» الفاترِ الذي حضَّرَتْه قبـلَ نصفِ ساعة، متوقِّعةً أنها أنهتْ تنظيفَ الأرض والأوانـي ولٰكنْ الرتوشُ هنا وهناك لا تنتهي. إنه السـبتُ، يـومُ عطلتِهـا، وفيه تُنْجِزُ الواجباتِ المنزليّةَ بشـكلٍ مضغوطٍ وتقـومُ بالأعمـالِ التي لم تُنجَزْ خـلالَ الأسـبوع، وهي كثيـرة. غـدًا الأحدُ، بدايـةُ الأسـبـوعِ والعـودةُ إلى العمـلِ حيـث ساعاتُ العمـلِ تمتـدُّ من الثامنةِ صباحًـا إلـى الخامسةِ مساءً.

بقيَتْ جالسـةً تفكّرُ في كلِّ شـيءٍ ولا شـيءٍ في الوقت نفسِهِ، تفكِّرُ كم أنجزَتْ وأنّ البيتَ أصبح نظيفًا والغرفَ مرتبةً والغسيلَ على الحبالِ في الشرفةِ والطعامَ يُطهى على النار.

وتفكِّرُ في أن تهدأَ من دونِ أن تسـمعَ أيَّ صـوتٍ أو تجعلَ أيَّ شيءٍ يوقظُها من سلامِ هٰذه اللحَظاتِ الصامتة. فهٰذه بالذات، هيَ كلُّ ما تملِكُهُ من خصوصيّةٍ ضِمْنَ خِضَمِّ أحداثِ اليومِ المزدحم.

ما زال الوقتُ باكرًا، وها هيَ تخطِّطُ للخروجِ لإتمامِ بعضِ الأُمورِ من مشتَرياتٍ، وزيارةٍ قصيرةٍ لبيتِ الأهلِ ثُمَّ العودةِ إلى البيتِ قبل الثالثةِ لاستقبالِ الأولادِ حين عودتِهم من المدرسة(*).

توجَّهَتْ إلى غرفةِ النومِ ومرّتْ من أمامِ المرآةِ ونظرتْ إلى انعكاسِ صورتِها، وقفتْ وتمعَّنَتْ وقالتْ في نفسِها: «أنا على أبوابِ الأربعينَ، وأشعُرُ أنّي لا أملِكُ رَوْنَقًا في مظهري وشكلي، ولا حتى في شعوري...» وتحرَّكَتْ سريعًا مبتعدةً عن المرآةِ كأنها تطرُدُ هٰذه الأفكارَ من رأسِها، وبدأت بتغيير ملابسِها. اعتادتْ أنّ لا شيءَ مميّزٌ في قَوامِها الممشوقِ والممتلئِ بتناسقٍ، وأنّ وَجْهَها الجذّابَ بتعابيرِه، الصادقَ بابتسامتِهِ والساحرَ بِعَيْنَيْهِ هو أقلُّ من عاديٍّ. أمّا شعرُها فيضرِبُ الأكتافَ بحِدَّتِهِ ـ صفاتٌ أجمعَ عليْها أغلبُ من عَرَفَها ـ فهيَ سريعةُ الحركةِ، نَشيطَةٌ، لا تعرِفُ الهدوءَ، هي كتلةٌ ناريّةٌ منَ الطاقةِ والعطاءِ والتفكير.

ارتدتْ الجينز ووضعتْ قميصًا أبيض خفيفًا، وطوّقَتْ عُنُقَها بوشاحٍ بُرْتُقاليِّ اللونِ محاكٍ بخيطٍ ذهبيٍّ وزيَّنَتْ وَجْهَها بلمَساتٍ خفيفةٍ من «المكياج» الذي بالكادِ يُرى، فقط لتذكِّرَ نفسَها أنّها ما زالتْ أنثى، شعورٌ فقدَتْهُ منذ سنين. أسرعتْ لإتمامِ ما تستطيعُ أن تُتِمَّهُ في وقتٍ محدود.

إنّها متزوجةٌ منذُ ثمانيةَ عَشَرَ عامًا والروتينُ أضحى مقيمًا، والعلاقةُ الزوجيَّةُ عاديّةٌ جدًّا، ونستطيعُ وَصْفَها بالمجرّد: هيَ تذهبُ إلى العملِ، وهو يذهبُ إلى العملِ أيضًا، والأولادُ يذهبونَ إلى المدرسةِ، وفي المساءِ يعودُ جميعُ أفرادِ الأسرةِ إلى البيتِ، لكلٍّ دورُهُ

(*) بعض المدارس الخاصة في الأُردن يعمل أيام السبت ويعطل أيام الجمعة والأحد.

في الدراسةِ وتحضيرِ الطعامِ وتنظيفِ البيتِ وتوجيهِ الأولادِ، وفي النهايةِ يذهبُ الجميعُ إلى النوم كلٌّ في وَقْتِه.

عادةً، هي آخِرُ مَن ينام، فهي الأُمُّ والوالدةُ والسيِّدةُ والمديرةُ والزوجةُ والخادمةُ والظالمةُ والمظلومة. هي عمودُ البيتِ وعليها يرتكزُ الباقونَ ويتكئون. وعلاقتُها بزوجها جيّدةٌ لٰكنّها ضمن إطارِ الواجباتِ أعلاه، لا أكثرَ، وأغلبُ حديثِهما لا يتعدّى الجُملَ القصيرةَ التي أغلبُها مرتبطٌ بأمورِ البيتِ والأولاد.

تعيشُ قانعةً وواثقةً تمامًا بأنَّ حياتَها في المَنزِلِ ستبقى تمامًا كما هيَ حتى بعد عَشْرِ سنواتٍ منَ الآن، ولن يعترضَ سَيْرَ هٰذا الروتينِ شيء. إلّا أنّ صوتَ أجراسٍ صغيرةٍ كانتْ تقرعُ منذرةً في رأسِها بين الحينِ والآخَرِ بأنَّ هناكَ خَلَلًا ما في حياتِها، لٰكنّها لا تُلقي لذٰلك بالًا، بل تُغمِضُ عَينَيْها عن الفَهمِ، لا تريدُ أن تفتحَ مَلفّاتٍ أغلقَتْها وأحكمَتْ إغلاقَها منذ سنين.

حلّ الليلُ مُعلنًا وقتَ النومِ للعائلة. توجَّهَ الأولادُ أوّلًا، ثُمَّ الزوجُ، ثُمَّ هي... لٰكنّها عادةً تجدُ صعوبةً في النومِ العميقِ المريحِ، وإنْ نامتْ فإنَّها سَرعان ما تستيقظُ بين ساعةٍ وساعة.

جاءَ يومُ الأحدِ، تلاهُ أسبوعٌ جديدٌ، وبدأَ الروتينُ يُعيدُ نفْسَهُ من مسؤولياتٍ تبدأُ بإيقاظِ الأولادِ وتحضيرِ الفَطورِ والشطائرِ والتأكُّدِ من ارتداءِ الأولادِ الزِّيَّ الصحيحَ للمدرسةِ، ثُمَّ خروجِهم مَعَ والدِهِم، فتعودُ إلى المطبخِ تنظّفُ فَوْضى الإفطارِ وتتوجَّهُ إلى غُرفَتِها لارتداءِ ملابسِها استعدادًا للذَّهابِ إلى العمل. ترتدي ثيابَها بشكلٍ سريعٍ كالعادةِ دونما اهتمام: «لا يَهُمّ... لا داعي» هٰكذا فكَّرَتْ.

وتتوجَّهُ بسيّارتِها إلى مكانِ عَمَلِها.

البيئةُ في مكانِ العملِ مريحةٌ كونُ ما تقومُ به مُتعِبٌ، فهي تتنقّلُ وتختلطُ بشـــرائحِ المجتمعِ كافّةً، وتزورُ مواقعَ تقعُ ضِمْنَ مســـؤوليّتِها المباشِرةِ وتُشرِفُ على سَيْرِ العملِ بكتابةِ تقاريرَ ودَرَجاتِ تقييم.

في ذٰلك اليومِ عَرفتْ أنّها ستتشـــاركُ معَ زملائهـــا بحُضورِ دورةٍ تدريبيّـــةٍ تجمعُ ممثّلينَ من فروعِ الشَّـــرِكةِ الموجودةِ في دُوَلٍ شـــقيقةٍ وصديقة. ستقامُ الدورةُ في جُمهوريّةِ مِصْرَ العربيّةِ ومدَّتُها أسبوعان.

فكرةُ المشاركةِ في الدورةِ والسفرِ بدتْ لها مألوفةً جدًّا، فهي معتادةٌ ذٰلك، كما أنّها، على الصعيدِ الشخصيِّ والعائليِّ، تسافرُ بما معدَّلُهُ مرَّتَيْنِ في الســـنةِ لقضاءِ الإجازةِ الســـنويّة. بعدَ نقاشٍ معَ إدارةِ الشَّرِكةِ وافقتْ على الانضمامِ إلى الفريقِ الذي سيســـافر. بالإضافة إلى ذٰلك، ســـيكون لانضمامِها ومشـــاركتِها في هٰـــذه المهمّةِ دورٌ في زيـــادةِ دخْلِها المادّيِّ، وهٰذا بالتأكيدِ سيكونُ تأثيرُه مباشِرٌ في راحةِ بَيْتِها وأولادِها.

عادتْ إلى البيتِ وكانَ شُـــغْلُها الشـــاغلُ تأمينَ الـــزوجِ والأولادِ بما يلزمُهُم مـــن طعامٍ ورعايةٍ أثناءَ فترةِ غيابِهـــا، والاتصالَ بالأَخواتِ والجاراتِ طالبةً الدعمَ في حالةِ الطوارئ، فأبدى الجميعُ اســـتعدادَهُم لهٰذا الدعم تمامًا كما كانتْ تفعلُ مع الجميعِ في كلِّ مناسباتِهم.

استمرَّ الحالُ مُدَّةَ ثلاثةِ أسابيعَ إلى أن جاءَ موعدُ السفر. فودَّعَتْ الأولادَ من دونِ إظهارِ أيّ ضَعْفٍ، بلْ على العكسِ من ذٰلك، أغدقَتْ عليهم عباراتِ التشـــجيعِ والحبِّ والقوّةِ، وأعطتْهـــم تعليماتٍ بانتباهِ كلِّ منهـــم لأحوالِ الآخَرين، وأكَّدَتْ أنّها ســـتُحْضِرُ لـــكلِّ منهم عددًا من الهدايا. أمّا وَداعُ الزوجِ فقـــد كانَ عاديًّا مع أنّها تمنّتْ لو أنَّهُ يُظهِرُ تقديرًا لترتيباتِها واهتمامِها البالغِ وجُهْدِها المكثَّفِ قبلَ السفر، أو ربّما يُظهر حبًّا وشَغَفًا وهو يودّعُها. إلّا أنَّ وَداعَهُ كانَ مجرَّدَ «سيناريو قديم» ينصّ على قضاءِ ليلةٍ يكتفي فيها الزوجُ مـــن زوجتِهِ إلى أن تعودَ من سفَرِها ليُعيدَ السيناريو مرّةً أخرى!!!

وفي قرارةِ نفسِـها، كانتْ تحاولُ أن تقتنعَ أنَّ هٰذه الليلةَ هي ليلةُ حبٍّ وعلاقةٍ حميمةٍ وليلةُ وَداعٍ يعبّرُ زوجُها فيها عن حبّهِ واشتياقِهِ لها في غيابِها.

أقلعتْ الطائرة... نظرَتْ مِن شُـبّاكِها ثُمَّ أغمضتْ عينيْها تستذكرُ تعبَ الحياةِ، خصوصًا في الأيّامِ الأخيـرةِ الماضية، نظرتْ إلى يديْها وضمّتْ كفَّيْها، ووجدتْ آثارَ الإهمالِ في جلدِها وأظفارِها، ثُمَّ سرَتْ في جسَدِها قُشَعْريرةٌ، وشـعَرتْ بالإرهاقِ وبدأتْ تفكّر: «أنا ذاهبةٌ في زيارةِ «عمل»، وأُريدُ الانطواءَ على نفسـي والانعزالَ في غرفَتي لأخذِ قسـطٍ وافٍ من الهدوءِ والراحة.» فهٰذه فرصةٌ لها لأنْ تجلِسَ جلستَها وتفكِّرَ في كلِّ شـيءٍ ولا شـيءٍ في الوقت نفسـه. عادتْ وأغمضتْ عينيْها لتسرِقَ بعضَ الهدوءِ منَ الوقتِ إلى أَن تحُطَّ الطائرة.

حَطَّت الطائرةُ وسـارتْ الأمـورُ تمامًا كما هو مرتَّـبٌ لها، وتمَّ الاسـتقبالُ والانتقالُ إلـى فندق «خمس نجـوم» يُطلُّ مباشـرةً على النيل. لم تصعدْ إلى الغرفـةِ بعدُ، الجميعُ بانتظارِ منسِّـقِ المجموعةِ ليُتَمِّمَ إجراءاتِ توزيعِ الغرَف، فقد بدأَتْ الوفودُ من الدولِ المشـاركةِ بالوصول.

جاء المنسِّقُ وأعلنَ أنَّ الغرفَ معدّةٌ ووزّع الأرقامَ والمفاتيحَ، وبدأَ بالانتقالِ بالمِصْعَدِ إلى الطوابقِ العُليا.

صَعِدَ عدَّةُ أشخاصٍ معًا، التفتتْ إلى الرجلِ الذي وقفَ على بُعْدِ خُطوتَيْنِ منها... نظرَ إليها ورحَّبَ بها بابتسامةٍ رأتْها ساحرةً جدًّا، ومدَّ يدَهُ مصافحًا: «علي من تونس.»

مدَّتْ يدَها وصافَحتْهُ مُعجَبَةً: «ندى منَ الأردن.»

«لم يكنْ يحمِلُ في يَدِهِ شـيئًا، لٰكنَّهُ كسَرَ دائرةَ حياتي وأحدثَ لنفسِه فجوةً فيها.»

* * *

فَتحتْ باب الغرفة واتجهت فورًا لإزاحة الستائر عن واجهة الشرفة. نظرت خارجًا لتُفاجأ بمنظر النيل... «يا ألله ما أجملهُ من منظر!!» موقع غرفتها في الطابق الثامن والمنظر مُطلٌّ بشـكلٍ واسعٍ ومدهشٍ. وقفتْ لحظاتٍ مبهورةً ثم خرجتْ إلى الشـرفة وتركتْ للهـواء البارد الحرّيّة ليتشاقى بين خصلات شعرها وينزلقَ على بَشَرتِها مداعبًا...

بدأ الليل بالهبوط وبدأت البرودة تتسـلّلُ إلى جسدها. فالطقس يُعلن بداية الشتاء ونهايةَ الخريف.

إلا أنها بقيتْ واقفـة تراقب النيل والمراكـب المزيَّنـة بأضـواءٍ ملوّنـة كأنهـا أحجارٌ كريمـة تلمع وتطوف فوق ثوبـه التاريخـيّ العريق... لحظاتٌ مميّزة وجميلـة جعلتْهـا تبتسم وتتفاءل بقضاء وقت طيّب وهادئ.

التفتت لترجِع إلى الغرفةِ وإذ بها تشـاهد عليًّا يخرج إلى شـرفة غرفته التي تَبعُد مسافة غرفة أو اثنتين عن غرفتها. فأسرعت واختبأتْ في الداخل، وضحكتْ متعجّبة من تصرُّفهـا! لماذا اختبأتْ؟ صحيحٌ هو لم يرَها، لٰكنّ تصرُّفَها بدا طفوليًّا.

سُرعان ما نسـيتْ ندى ما حدث، وبدأتْ بإفراغِ حقيبتها وترتيبها في الخزانة، وفجأةً تذكَّرَتْ أن تتصلَ بزوجِها وتطمئنه إلى أنها وصلتْ

سـالمة، وتطمئنَّ بدورِها على الأولاد. لٰكنّها تراجعتْ قليلًا... أليس من الواجب أن يحاولَ زوجُها الاتصال، أو حتى إرسـال رسـالة على هاتفِها النقّال... طردتْ هٰذه الفكرة من رأسها بسرعة وتناولت الهاتف وتحدّثتْ إليه تطمئنُه عن سـلامة وصولها. سألتْ عن الأولاد وأبلغتْهُ بمكانِ إقامتِها ورقم هاتف الفندق في حـال الطوارئ... إلخ. مكالمة عاديّة جدًّا يسودها الاحترام لا أكثر.

اجتمع المشـاركون على العشـاء الذي سبق التنسـيق له ضمن برنامـج التدريب للتعـارف بين أعضـاء الوفود المشـاركة. اختارت مقعدَها بعشـوائيّة من دون التفات أو تردّد في اختيـار الموقع، لأنها اجتماعيّـة وجريئة في التعامـل مع الناس ولا يزعجهـا التحدّث إلى أيٍّ كان. تعرّفت بالمشـاركين من مصر وتونس والمغرب وسوريا، أمّا صديقنا علي فقد كان يجلس في الجهة المقابلة وهو يبتسـم وكلُّه ثقة بأنّ ابتسامته هي مركز اهتمام الحضور كافّة.

في صباح اليوم التالي استيقظتْ ندى وهي مستغربة من وجودها في مكان غريـب!! لم تدرك أنها خارجَ بيتهـا إلا بعد لحظات، على الرغم من أنها قضت الليل في نوم متقطّع وهي تفكّر في أمور البيت، والأولاد، ومتى ستنتهي الدورة التدريبية، وتعود إليهم. نوع من تأنيب الضمير لأنها تركَتْهـم. لكن، وفي النهاية، كلّ ما تقـومُ به يصُبُّ في مصلحة البيت.

شعور طبيعيّ من أمّ عاملة وزوجة شـرقيّة، دائمًا تضع نفسَها في أسفل قائمة الأولويّات.

نهضتْ من السرير وبدأتْ بتحضير نفسِها لأول يوم من التدريب، وارتدت ملابسَ رسميّة بألوانٍ عاديّة غيرَ آبهة البتة بالمظهر الخارجي ما دام نظيفًا، علـى الرغم من أنها تبـدو جميلة لٰكنّهـا لا ترى هٰذا الجمال.

بـــدأت الفقرة الأولـــى بأن قُســـم المتدربـــون المشـــاركون إلى مجموعات صغيرة تلتزم هٰذا التقسيم طوال فترة التدريب، وجاء منسّق الدورة الشـــابّ ووضع لوحة باســـم (ندى ـ الأردن) وبجانبها وضع لوحة باسم (علي ـ تونس)!!

تبادل الاثنان الابتســـامة وجلســـا واتخذ كلٌّ منهما مقعده بجانب الآخر. وبدأ التدريب وبدأ معه التوتر والارتباك.

بدأ التوتر المتصاعد يُقلق ندى زاحفًا إليها من اليمين. تســـاءلت: «لماذا يراودني هٰذا الشـــعور الـــذي لا داعي له؟» فعلـــي يجلس إلى يمينها مثله مثْـــل أيّ رجل أو زميل أو مشـــارك جلس أو من الممكن أن يجلس إلـــى جانبها، «لا داعـــي لتلك الأفكار، فقـــط ركّزي على التدريب... فلعلّ سبب التوتر الجوّ العامّ أو السفر وتغيّر الأجواء.»

اســـتمرّت أيام التدريب واســـتمرّت حدّة التوتـــر بالتصاعد أكثر بحيث بدأ يختلط بمشاعر أخرى: فالقلب يخفق بشدّة لمجرّد التفكير فيه، وأصابعها بـــدأت ترتجف حول القلم، والأوراق بدأت تتســـاقط على الأرض بطريقة مُضحكة، وبـــدأت الأمور تختلط والتركيز يقلّ... قالت متمتمة: «ماذا يحصُل؟ ما الأمـــر؟ هو زميل وليس له صفة أكثر من ذٰلك، هو رجل كأيّ رجل، هو متدرّب وشـــاءت الأقدار أن يكون مقعده بجانب مقعدي، وإذا حاولتُ أن أُغيّر المقعد فســـيكون الوضع لافتًا لانتباه الجميع وأوّلهم علي.»

كان علـــي يحيطها باهتمام خـــاصّ، كأن يُحضر لهـــا قهوة وقت الاستراحة، وصارت تبادله هٰذه الخدمة، ثم صارا ينتظر أحدُهما الآخر قبل البدء بالعمل بأيّ نشـــاطٍ، ثم صارا يتبادلان المعلومة ويشـــرحها أحدهما للآخر في حال لم يتـــمّ فهمُها من المدرب مباشـــرة. حصل بينهما نوع ســـلِس من التواصـــل الحركيّ والكلامـــيّ وكأنهما يعرفان بعضهما بعضًا من قبل.

تصاعد شعورُها بعدم الاستقرار وأصبح من الصعب تجاهلُه، فهي تبحث عنه بعينيها، وعندما تجده ضمن المجموعة تجدُه ينظر صوبها. لذا، وفي اليوم الخامس فقط انقلبت الموازين وفكّرت ندى بأنّ عليها التروّي والتفكير في أحداث الأيام السابقة، فذهبت إلى غرفتها رافضةً بلطف دعوة المشاركين إلى الخروج مساءً للتجوّل في المدينة والتسوّق. دخلت للاستحمام وارتدت ملابس نوم فضفاضة لتشعر أنها حرّة ومن دون قيود: أقلّها قيود خارجيّة.

وبدأت تتساءل: ما سبب عدم استقرارها؟ ومن هو هٰذا الرجل؟ وماذا غيّر فيها؟

عادت بذاكرتها إلى أول لقاء لهما في المصعد وابتسامته المميزة. موقف لطيف لٰكنه ضمن الإطار الطبيعي جدًّا. والجلوس ضمن المجموعة نفسها والتجاور في المقاعد هما أيضًا وضع اعتياديّ. أمّا الأحاديث التي تمّت بينهما...!!! فعاديّة وعامّة، فما جرى بينهما كان تبادلًا لخبرات الحياة، ومواقف مرّا بها خلال الحياة الزوجية، ودور الرجل والمرأة في البيت والعمل... وتحدّثا أيضًا في المشاعر وتغيُّرها بعد الزواجِ، وفي تضارب المواقف بين الزوجين، وهكذا...

إذًا الوضع عامٌّ والأمور تحت السيطرة، وليس هناك ما هو خارج عن نطاق الزمالة، وربما بداية صداقة، فهو رجل محترم يتحدث ضمن المجموعة بكلّ اتزان وحكمة.

«حسنًا» خاطبت ندى نفسها: «حسنًا... الأمور تحت السيطرة ولا داعي للقلق»، وكلّ ما عليها فعلُه هو الحدّ من الأوهام التي تعشّش في رأسها. وتمدّدتْ تحت الأغطية وبدأت بقراءة مَلَفّ الدورة التدريبيّة لتصرفَ انتباهها عن الموضوع... قلّبتْ الأوراق بعصبيّة وضيق صدر، ولم تستطع التركيز، وقرّرتْ أن تحاول النوم...

بدأ اليوم السادس وتوجّهتْ ندى إلى صالة الطعام، فقد استيقظتْ باكرًا بعد أن قضت ليلةً كاد رأسُها فيها أن ينفجر من كثرة التفكير وتقطُّع النوم. أخذت طبقَ الفَطور وتوجَّهتْ إلى إحدى الطاولات وجلست وحدها إذ لم يأت أحد بَعد، وهي أوَّل الواصلين. بدأت بتناولِ الإفطار ببطء مستمتعةً بقهوتها المعتادة (المُرّة السوداء...)

وبعد دقائق بدأ المشاركون بالتوافد إلى صالة الطعام وبدأوا بتبادل التحيّات، وساد صمت في عقلها انعكس على الصالة عندما دخل السيّد علي ماشيًا بارتياح، واضعًا يديه في جيبي بنطاله. نظر إليها وحيّاها من بعيد بانحناءة صغيرة من رأسه متناولًا أطباق طعامه ومتجهًا نحوها.

بالنسبة إليها، وظاهريًا، بدت مبتسمة وهادئة ومرحّبة، وداخليًّا كانت تدعو أن لا يسمع أحد دقّات قلبها من شدّة خفقانه. كان المشاركون في تلك الأثناء يتبادلون الأحاديث قبل أن يبدأوا بالانسحاب فردًا فردًا بعد تناوُلهم الإفطار.

لم يبقَ إلا علي وندى على الطاولة نفسها وكأنهما على اتفاق أن يتمّ ابتعادُهما عن المجموعة ولو لدقائق. وبدأ بينهما حديث هادئ بشكلٍ عامّ عن مدى ارتياح الأشخاص بعضهم لبعض، وكم هو متفهّم لسيكولوجيّة المرأة، وأنه يستطيع قراءتها بسهولة بحكم طبيعة عمله التي تتطلب وجوده في وسط مجتمع نسائيّ متنوّع من المربّيات وسيّدات المجتمع القائمات على إدارة المشاريع الصغيرة من بيوتهن... حتى إن ندى قالت مداعبة: «أستطيع أن أفهم أنك دون جوان عصرك؟؟»

ابتسم وردّ عليها بهدوء ردًّا لم تكن ندى جاهزة لاستقباله، فقد كانت المفاجأة. أعلن علي متممًا حديثه من خلال مثال أعطاه قائلًا: «مثلًا... أنا وأنت على علاقة غير معلَن عنها!!!»

سقطت هٰذه الجملةُ على رأس ندى سقوط المِقصلة. وحصل صمتٌ ثقيلٌ، وبدا واضحًا ارتجافُ يديها على الطاولة، وقفز دمع بارد من عينيها... فخفضت بصرها في محاولة منها للاختباء من أمامِه وشعرت بأنّ الزمن توقف.

إذن هٰذا واقع، ما تشعر به واقع، ما يحصُل ليس مجرّد توتّر، أو أفكار، أو حالة من عدم الاستقرار... هو أيضًا يشعر بها.

لحَظاتٌ صعبة جدًّا من التوتّر بدت وكأنها لا تنتهي، فالزمن ظهر عدوًّا. تمنَّتْ الاختفاء والهرب من أمامِ هٰذا الغريب الذي عرّاها بقوله هٰذا... فقد كان يعرف ما يدور في داخلها طوال الفترة. لقد فهمها من دون الحاجة إلى الكلام. شعر بها بمجرّد وجودِها ضمنَ المجموعة، شعر بها من دون أن يجلس معها «وحدها» قبل الآن.

تمنّت الاختباء كما تمنّت البقاء. أحدُهم قَدِمَ ليناديهما... كان عليهما الالتحاق بالمجموعة، فقد حان وقت الدرس.

كانت الساعات تمرّ ببطء، وكانت ندى غائبةً في ذهنها، ولم تسمع المحاضرة أو تشارك خلال النقاش. كان كلُّ همِّها أن تختفي لتستطيعَ السيطرة على القنبلة التي تفجّرت في داخلها.

انتهى برنامج التدريب لذٰلك اليوم، وذهبت ندى مباشرةً إلى غرفتها، وأغلقتْ الباب، وارتكزت عليه، وانهارت باكية... فمشاعرُها تفجّرت.

وما معنى مشاعر؟؟ ما معنى هٰذه الكلمة؟ أتعني الحب؟ هل من المعقول أن تكون قد أحبّت شخصًا لمجرد أنها تبادلت معه أطرافَ الحديث وجلستْ بجانبه؟؟ إنها تفعل هٰذا طوال الوقت، فطبيعة عملها تُحتّم عليها الوجود بين الرجالِ ولم يسبق أن خفق قلبُها أو توترتْ مع أحدهم كما حصل مع هٰذا الغريب.

جلستْ على الأرض خلف الباب خائرة القوى غيرَ مصدّقة! لا، هناك خطأ، هناك شيء غير صحيح... ماذا حصل؟ لم يسبق أيضًا أن

واجهها رجلٌ مُعلنًا عن مشاعره تجاهَها بكلّ وضوح وجرأة تمامًا كما فعل علي. ندى جميلة، وتتعرّض لمواقف الإعجاب من الرجال. لٰكنها لا تلتفت إليهم أبدًا لأنهم يبنون إعجابهم على مدى رغبتهم فيها لا أكثر، وهي واعية جدًّا لهٰذه النقطة، ولا تنجرف بالكلام المعسول أبدًا، لٰكن مع علي هناك شيء مختلف لم تفهمه بعد.

بدأتْ تسترجع أحداثَ الأيام السابقة وحديثَها معه مرّة أُخرى، وبناءً على ما استجدّ من ما جريات. حديثهما كان عاديًّا ضمن حدود الاحترام والزمالة، لٰكنه في أكثر من مرّة مسّها داخليًّا بكلامه بحيث لفت انتباهها إلى نفسها. فقد حصل وتحدّث مرةً عن علاقته بزوجته ووصفها بأنها جميلة، أمّا من حيث التعاملُ فهي لا توليه الاهتمام الذي يستحقّ حتى انتهت بهما العلاقة بأن يقوم كلٌّ منهما على خدمة البيتِ وليس الشريك، والاهتمامُ الأفقيُّ بينهما مفقود. هٰكذا التفتت ندى إلى نفسها من خلال ما قاله، فهي تخدُم بيتها وزوجَها معنويًّا وماديًّا واجتماعيًّا من دون أن تتذمر، ولا تتلقّى الإطراءَ أو التقديرَ الذي تستحقّ لإيمانها بأنّ هٰذا واجبها.

تمّ النقاش في هٰذا الموضوع عدّة مرات، وفي كلّ مرّة يتمّ الحديث يحصُلُ تقاربٌ في الآراء وتَوافُق في وُجُهات النظر، وتصْغُر فجوةُ «الزميل» ليصبح الزميل صديقًا.

«هذا الشعور ولّد شعورًا بالراحة عندنا كلينا، فما نعانيه مع الشريك متشابه» فكّرت ندى.

أمّا الجديد في الموضوع فهو أنها لا تُناقش حياتها الخاصة مع أحد خصوصًا في مجال العمل ـ إلا سيدة واحدة ـ لأنها امرأة قويّة وتعرف أين تضع الفواصل ومتى. لٰكنّ ندى في هٰذه الحالة شعرتْ بالأمان وكسرتْ هٰذه القاعدة الصارمة وتحدّثت بإسهابٍ عن علاقتها بزوجها وطبيعةِ التواصل بينهما المبنيّة على المصلحة البحتة... لٰكنها

أخفتْ خلف هٰذه المعلومة حياةً قاسية وسنين تعبٍ طويلة. في المقابل كان علي يتحدث في المجال نفسه وفي كلّ مرة يكشف عن ضيقِه وعدم راحته في منزله، وكيف أنّ حياته الزوجيّة لم تعد سوى روتين سلبيّ يباعد بينه وبين زوجته، كما ذكر مراحل انحدار العلاقة الزوجيّة إلى أن وصلت إلى الوضع الراهن.

تماسكتْ ندى وقامت بتثاقل عن الأرض وتوجهتْ إلى السرير، وارتمت عليه بضعف، وتركت دموعها تقطُر مرارًا تبلل وجهَها والوسادةَ ويديها وشعرَها... ما هٰذه اليقظةُ المفاجئة؟ لماذا البكاء؟ ولماذا الضعف؟ من أنا؟

لم تعرف كم بقيت على هٰذا الحال... فقد بكت كأنها لم تَبْكِ من قبل، وبكت وكأنها لن تبكي بعد ذٰلك، وبكت وكأنها لم تشعر بلذّة البكاء إلا الآن. واستمرّت تبكي إلى أن أبكت نفسها للنوم.

استيقظتْ وتحرّكتْ ببطءٍ والتفتتْ إلى واجهةِ الشرفة الزجاجيّة لترى أنّ الليل ما يزال زائرًا... نظرتْ إلى الساعة وإذ بها ما تزال الثالثة والربع فجرًا.

نهضتْ وهي تشعُر بصُداعٍ قويّ يدقّ في رأسها مع دقّات قلبها. تماسكتْ، وقرّرتْ أن تلملم ما تفتّتَ منها في الليلةِ السابقة، وتضعه في صُندوقٍ تُحكِم إغلاقَه، وترميهِ في النيل ليتحلل تحت مياهه القاتمة، وتضيع أجزاؤه بين فروعِه العشوائيّة.

«ما جرى يومَ أمس كان مجرّد تراكمٍ من الضغوط النفسيّة ومضى. مجرّد فيضٍ من المشاعر المكبوتة وانتهى» هٰذا ما حاولت إقناع نفسِها به.

أخذت تبحث في حقيبة يدها عن دواء للصُّداع، تناولتْ قرصيْن وذهبتْ إلى المِرآة لترى آثار قسوة الليلة الماضية قد طُبعتْ على وجهها ومن دون رحمة. فتحت صُنبور المياه وبدأت تغسِل وجهَها بالماء البارد وهي تفكّر أنها لم تبكِ بهٰذه الطريقة مذ كانت طفلة.

ارتدت ملابسَـها اسـتعدادًا للتدريب وحضّـرتْ فِنجانًا من قهوةِ النسكافيه السوداء المركّزة السريعة التحضير من ركن الضيافة الموجود في الغرفة، وجلسـت تراقب بُخـارَ القهوة المنبعثَ مـن الفِنجان في يدها، تنتظرُ طلوعَ الفجـر وهي حائرة !! فصـورةُ علي لا تغيب عن ذهنِهـا... مَن هو هٰذا الغريـب؟ وماذا فعل خلال الأيام السـابقة؟ ما أمرُها هي؟ معه تشعُر بالأمان والراحة والانجذاب القويّ.

وبينما هـي تنتظر أخذتْ الورقةَ والقلمَ وبدأت تكتبُ له رسـالةً خاطبتْه فيها قائلة:

«أيها الغريـبُ ماذا فعلت؟ هل أنت مدركٌ أنـك فتحتَ صُندوق باندورا(*)... صندوقَ مشـاعر الشـرّ... لقد جعلت مشاعري تطيرُ منه صارخةً... **الحرية**، أنت أطلقْتَهـا ورميتَ المفتاح. كيف لي أن أُعيدَها بعد أن فعلتُ المستحيل وأمضيتُ سنواتٍ طويلةً في كبْتِها؟ إنها الآن تتطاير «بعشوائيّة مفترسـة»، وبعدما طال حبسُها صارت حرّة، إلا أنها تتصادم في ما بينها... إنها حـادّة وتحتاج ترويضًا، ماذا أفعل؟ قل لي ماذا أفعل؟ فلقد فجّرتَ بركانًا كان قد خمد منذ سنين طويلة، وها أنا أطلب منك وأقول لك راجيةً: «ابتعِد فأنت مؤلم.»»

ثم طوت الورقة ووضعتْها في جيبها.

انتظرت في غرفتهـا إلى أن حـان وقت التدريب. مشـت ندى متفاديةً صالة الطعام وذهبتْ مباشرةً إلى موقع التدريب واستقرّت في مكانها. ثم بدأ المشـاركون بالتوافد، وجاء علي وجلس بجانبها تمامًا كما يفعل كلّ يوم، ونظر إليها متسـائلًا من دون كلام كأنه يسأل: أين

(*) **صندوق باندورا**: صندوق باندورا في الميثولوجيا الإغريقيّة، هو صندوقٌ حُملَ بواسطةِ باندورا ويتضمّنُ كلّ شُرورِ البشريّةِ من جشعٍ، وغرورٍ، وافتراءٍ، وكذِبٍ، وحسدٍ، ووهَنٍ، ورجاء.

كنتِ؟ ما الأمر؟ لماذا لم تأتي وقت الإفطار؟ لم تتفاعلْ مع تساؤلاته، وبقيتْ هادئة ومتحكّمة في نفسِها مُتصنّعة البسمة حتى نهايةِ اليوم.

بعد انتهاء التدريب قـرَّرتْ المجموعةُ الذهابَ للتسـوق، وخرج الجميع معًا وسـاروا علـى أرصفةِ شـوارع القاهرة المكتظـة بالمارّة، ودخلوا الأسـواق التي فيها من كلّ ما هـبّ ودبّ من معروضات ذات ألوان وروائح... أسواق تفرّعت منها شـوارع صغيرة، فتراك تدخل من طريق وتجد نفسـك خرجت من آخر أصغر، إلـى أنَّ تتحوّل إلى زقاق فيه محلات تبيع القطنيّات على طاولات، وأخرى تبيع الأحذية الجلدية المخيطـة يدويًّا، وهنـاك بائع النحاس ينـادي ويرحّب بهم ليشـتروا التذكارات المزخرفة بكتابات فرعونيّة... محالُّ ودكاكينُ صغيرة وضيّقة تلفُّها ألوان البضائع الصارخة مثلُ الأحمر والبرتقاليّ والأصفر والأزرق، أسـواق لا نهاية لها، بينما مجموعة المتدرّبين تصارع للبقاء معًا حتى لا يتفرقوا وسـط هٰذا الزحام ويضيع أحدُهم، وعلى الرغم من كلّ هٰذا الضجيج تظهر المتعة وروح المغامرة على وجوه الجميع.

أمّا في رأس ندى، فقد كان هناك نـوع آخر من الزحام، وضعت ندى يدها فـي جيبها باحثـةً عن الـدفء هروبًا من بـرودة الطقس الخريفيّ واحتواءً لاختلاط مشاعرها، وأحسّت بالورقة التي كتبت...

وفكّرتْ في نفسـها: «هل أُعطيه إيّاها؟؟ فأنـا بالكاد أعرفه، لا!! لا داعي. أنا لا أملك الجرأة لفعل ذٰلك أيضًـا...» كانت تفكّر وتنظر إليه وهو يمشـي أمامها مع زميلتها مـن دون أن تلفت انتباه أحد إلى ذٰلك، وأكملتْ حوارَها مع نفسـها: «إنه هو. إنه الرجل الذي استطاع أن يقتحمَ حصنيَ المنيع. أشـعرُ بأني عشـتُ معه العمـرَ كلَّه. أعرِفه ويعرفُني... هو يختلف عن كلّ مَن عرَفت... سأعطيه الورقة.»

كان هٰذا قرارها الأخير. فأسـرعت الخطى ومشت وانضمّت إليه وإلى زميلتها، وبدأت تشـاركهما الحديث إلى أن توقف الجميع أمام

متجر كبير يعــرض التذكارات المصريّــة، من عطــور زيتيّة، وتحفٍ زجاجيّة رقيقة مذهّبةٍ وأخرى عاجيّة على شــكل قوارير مطعّمة بقطع معدنيّة ونحاسيّة، ومزيّنة بأحجار كريمة منقوشة بنعومة، فتظهر وكأنها مطرّزة من شدّة دقّة نقشها. أشــكالٌ رائعة التصميم. أصناف وأنواع لا تُعدّ ولا تُحصى.

خرجت ندى بعد انتهائها من التســوّق كما هو متفَق عليه ضمن أفراد المجموعة بأنّ من أنهى التسوق من الزملاء يقف خارجًا بانتظار بقيّة الأفراد، فاســتغلت ندى وجود علي خارجًا ومشت صوبَه مدركةً أنه يراها وينظر إليها.

خاطبتْه بهدوء: «كتبتُ لك رســالة، أريد أن أعطيك إيّاها على أن تقرأها وتعيدها إليّ.»

صمت لحظات ثمّ قال: «آخذُها وأقرأهــا وإذا كنتِ لا تثقين بي فلا تعطيني إيّاها.»

شــعرتْ كأنها مراهقة وهو يهذّبها بإجابته هٰــذه. قالت: «أثقُ بكَ لٰكني لســت معتادة أن أكتب رســائل لأحد، كما أني لست معتادة أن أعبّر عن مشاعري بوضوح.»

ردّ مشجّعًا: «ليس هناك خطأ في أن تعبّري عن مشاعرك.»

كان ردُّهُ بسيطًا ومريحًا... مدّت يدها إلى جيبها وأخرجتْ الورقة بتردّد لأنها على وشك أن تُعرّي مشاعرَها وتكشِفَها له بمحض إرادتها.

ناولتْهُ الورقةَ بتردّد قائلة: «اقرأها وأعِدْها لي غدًا صباحًا إذا أمكن.»

ردّ موافقًا مؤشّرًا بحركة رأس خفيفة: «حسنًا.»

رجــع الجميع إلى مقرّهــم محمّليــن بالأكياس والمشــترَيات، وأصواتهم تقول إنهم قد أمضوا وقتًا طيّبًا معًا. توجّه الجميع، كلٌّ إلى غرفته، منهوكي القِوى طلبًا للراحة.

كانت ليلة ندى ككلّ ليلةٍ منــذ أن عرفت عليًّا، متقلّبة الأجواء لا مكان للنوم فيها وصاخبة الأحداث، وقد بدت حيطان الغرفة كشاشاتِ ســينما كلّما نظرت إلــى إحداهــا رأت فيلمًا يصوّر فتــرة من حياتها الصعبة، فالحائــط الأول يعرض على شاشــته فيلم حياتهــا الزوجية المرهقة والمؤلمة، وتُدير وجهَها هربًا إلى الجهة المقابلة فيبدأ الحائط الثاني بعــرض فيلم طفولتها القاســية والمظلمة، ثم ترجع بجســدها مواجهةً السقف وتحملق فيه لتبدأ صورة عليّ بأخذ أكبر مساحة، ليس فقط في الغرفة، إنما في قلبها أيضًا. وظلّت هٰكذا لا تصدّق ما يجري لها... إلى أن غلبها النعاس داعيًا إيّاها إلى الاستســلام ولو لســاعات قليلة للنوم، فهي مُرهَقة جدًّا ولم تنم بشــكلٍ مريــحٍ منذ أيام، لٰكنها تُنكر ذٰلك وتقاوم التعب.

في صبــاح اليوم التالي اســتيقظت ندى وكلّها مشــاعر متضاربة لمعرفة ردّة فعل علي، اســتيقظت آملةً أنْ يتفهّــم موقفها. ذهبت إلى صالة الطعام باكرًا، وكالعادة بدأ المشاركون بالتوافد وإلقاء التحيّة إلى أن جاء علي يمشي بثقة واستقامة ويداه في جيبي بنطاله كعادته، ونظر إلى ندى من بعيد من دون إبداء أيّ ردّة فعل، واتجه إلى حيث توضع الأطبــاق، واختار من الأطبــاق لإفطاره ومن ثَمّ توجَّه إلى ســخّانات القهوة، وتناول فِنجانًا ونظر إليها من بعيد رافعًا الفِنجانَ وكأنه يسألها: هل أحضر لكِ فنجانًا من القهوة؟

قفز قلبُها من مكانهِ فلم تتوقع أن يلتفت إليها فجأة ويراها تراقبه، وأجابت بارتباك مستخدمة الإشــارة أيضًا: لا، شكرًا! ثُمّ أخذتْ نفسًا عميقًا وأخرجَتْه زفيرًا يكاد يُذيب الأطباق من أمامها.

اقترب وحيّاهــا بطريقته المعتــادة من هدوءٍ واحترام، وســحب كرسيًّا، وجلس مقابِلَها، وبدأ يتناول إفطاره...

أمّا هي فكانت تنتظرُ منه تعليقًا وهي على وشك الانفجار حرجًا

وفضولًا وخوفًا مع الكثير من المشاعر المتضاربة التي كانت قد نسيَت أنها تملكها فعلًا. ولم تستطع أن تتمالك نفسها أمام برود أعصابه، وسألته: «هل قرأت؟»

هزّ رأسَه بخفّة قائلًا: «نعم قرأت.» واستمر يأكل...

قالت وهي على وشك أن تتسلّق الطاولة باتجاهه: «آه؟؟»

بلع طعامه وردّ: «عاديّ، وما في الورقة عاديّ، أنت أعطيت الموضوعَ أكثرَ من حجمه، فلا يوجد هناك خطأ، وهٰذه الأمور تحدث.»

تعجّبت ندى من بساطة الردّ المختصر... ارتاحت نوعًا ما على الرغم من أن ردّه لم يشفِ غليلها، وشعرت بقربه منها أكثر. وأول شيء فكّرتْ فيه أنه لم يحكمْ عليها بسوء، ولم يُصدِر الأحكامَ عشوائيًّا، ولم يُظهر أيّة مشاعر دون المستوى المطلوب من الاحترام أو استغلال موقفها منه.

سكتت ندى للحظات، ومِن ثَمَّ طلبتْ منه الورقةَ بلباقة.

قال: «سأعطيكِ إيّاها، لٰكني تركتُها في الغرفة، ولا أحملها.»

انتهى النقاش بكلِّ بساطة، وشعرت ندى بخفةِ الحركةِ وسهولةِ الانسجام من جديد، وعاد الهدوءُ إلى نفسها.

استمرت أيّامُ التدريب، وبدا الانسجام واضحًا بينهما، كما بدا جليًّا بين أفراد المجموعة من مشاركين وقائمين على الدورة، وتلاشت حدودُ الرسميّات، وبدأ المزاح والاستمتاع يتسلل إلى محتوى التدريب الجافّ. ارتاحت ندى برفقة علي إلى درجة أنهما تشاركا معًا الشرب من الكأس نفسها مع أنها لا تشارك حتى أولادها كأسها، لٰكن مع علي بدا ذٰلك طبيعيًّا جدًّا. فعندما كانت تسأله كيف هو طعم القهوة، كان يعرض فنجانه عليها، فتذوق منه وتعيده إليه، أو كانا يتشاركان كأس ماء واحدة.

مع اقتراب انتهـــاء مدة الدورة، بدأت ندى باســتيعاب أنّ النهاية آتية لا محالة، بدأ الحزن يقترب منها بخبـــث محاولًا أن يجد له بيتًا في قلبها، وبدأت تتعمّد الســيْر وحدَها عند المشـــي في الأسواق، أو خلال الزيارات الميدانيّـــة، وتطلق العَنان لدموعهـــا... تبكي وتُخفي وجهها عن الباقيـــن بارتدائها نظّارات شمســيّة داكنة ســوداء لتُخفي احمرار عينيها، وكانت تُعيد على مسامع الجميع بأنها مصابةٌ بحساسية الربيع (Home dust allergy)، كما وأنها على وشك أن تصابَ بالبرد والإنفلونزا. فهي بطبعها كتومةٌ ولا تشارك أحدًا بما يجول في خاطرِها من عواصف وبراكين... خصوصًا ما استجدّ في حياتها.

انتبهت ندى إلى أنّ أحدَ القائمين على الدورة التدريبيّة والمنسّقَ الرئيسَ لها، وهو شابٌّ لطيف ومهذّب، مصريُّ الجنسيّة اسمه أحمد، كان يطوفُ حول جميع المشاركين ملبّيًا طلباتِهم بتواضع وودّ، انتبهتْ أيضًا إلى أنه لازم عليًّا وأصبحا رفيقين.

كان أحمد ذكيًّا وقد لاحظ أنّ هناك شيئًا يجري في الهواء ما بين علي وندى، ولم يلفت الانتباه بتصرّفاته إلى هٰذا الشـــيء، لٰكنّ ندى وعليًّا شعرا أنه كان يرسلُ إشاراتٍ إيجابيّة تجاههما. وفي أحد الأيام، وبينما كانت المجموعةُ تسير في طريقِها لحضورِ نشاطٍ مسائيّ قريب من مقرّهم، كان أحمد يمشي برفقة ندى. قال لها: «أنتِ مميّزةٌ وفيكِ شيء يختلف...» تردّد، لٰكنه أكمل وقال: «أنتِ تبعثين على الحياة!!» ضحكتْ متعجّبةً من ملاحظته مُعتبرةً إيّاها إطراء... إلى أن دخل عليّ النقاش من دون اســتئذان، فكما يبدو أنه كان يتابــع حديثهما وقال: «هٰذه هي الكلمات التي كنتُ أبحث عنها لأصفكِ بها.» أمّا ندى فقد فوجئت بقوله مســرورةً، كانت هٰذه الكلمات بالنسبة إليها من أجمل ما ســمعَتْ في حياتها، واحتفظت بها في قلبها، خصوصًا أنها جاءت من علي.

هٰكذا مرّ الوقت مـا بين تدريـب، وزيارات ميدانيّةٍ، وتسـوُّق، وسياحة، وتنقُّلٍ مشـيًا على الأقدام أحيانًا، وفي القطار والباص أحيانًا أخرى، وفي كلّ مرة كانت ندى تلتفت وترى أنّ عليًّا يحيطُها بنظراتِه أو بعدسة كاميرتِهِ، فقد كان يوليها اهتمامًا مبطّنًا لم يُرِه غيرَها.

انتهى التدريب وحان وقـتُ العودة كلٌّ إلى بلده ومصدره. بدأت المـرارة تتحوصل في حلقها، وبـدأت دقّاتُ قلبها بالتوسُّـل، وصار الخوف من الفراق يطوفُ أمامها كغولٍ، وارتفع حائط الواقع الأجوفُ منتصرًا في وجهها.

باشر المشـاركون بوضع الحقائب في أماكنها المخصّصة بانتظار قدوم الباص ليُقلَّ الوفود إلى المطار، ومع تقارب وقتِ طائرتَي عمّان وتونس، تمّ ترتيبُ ركوبِ المشـاركين من البلديـن في رحلة الباص نفسِـها إلى المطار... وانطلق الباص بعـد أن كان وداعُ باقي الزملاء والزميلات حارًّا ولا يخلو من الدموع، فمدّة التدريب الطويلة نوعًا ما قد زرعت الوُدَّ والعشـرةَ بين المشاركين والقائمين على الدورة، وكان هناك وداعٌ خاصٌّ لأحمد لإظهارِهِ إخلاصًا لعليّ واحترامًا ووفاءً لندى.

تحرّك الباص إلى المطـار، وجلس علي في المقعـد أمام مقعد ندى مباشـرةً، وبدأ الحديث الأخير معها وهـو مُلتفتٌ ينظر إليها من المسـاحة الصغيرة ما بين المقاعد. وفي منتصـف الحديث الذي كان على مسـمعٍ من الجميع لم تقاوم ندى رَفْعَ يدها ـ سـرًّا ـ وإمرارَها بسبّابتها على ظاهر كفّه الممسِكةِ بالمقعد، أمرّتْها ببطء فلم تستطع أن تقاوم رغبتها في أن تعرف هل هـو حقيقة أم خيال... أرادت أن تتأكد قبل الفراق الذي بات وشيكًا، عالمةً أنها لن تراه مجدّدًا.

إنه حقيقـة، حقيقة حلوة مُرّة، وليتها لم تكـن إلا خيالًا أو جزءًا من العالم الافتراضي. أمّا علي فقد أبقى يـده في مكانها ـ قبضة يده الكبيرة ما زالت تُمسـك بالمقعد ـ كأنه كان يأمُل أن تُعيد الكرَّة مرَّة

ثانية، لٰكنها لم تفعل. وتابعـا حديثهما على الرغم من أنّ الموقف لم يكن يحتمل أيّ كلام... لٰكن كان لا بدّ من إتمام التمثيليّة على مسمع الجميع.

وصل الباص وحانت ساعة الصفر، وبدأ الفريق الأردنيّ بالنزول من الباص، أمّا الفريق التونسيّ فسيبقى في الباص للانتقال إلى مبنى آخر داخل المطار.

بقيت ندى فـي مكانها وكانت آخِرَ فردٍ مـن المجموعة المغادرة لبُعد مقعدها عن باب الباص، وبدأت تودّع الزملاء إلى أن التفتت إلى عليّ في تلك اللحظة، وانقلبت عليها مشـاعرها كلّهـا، لٰكنها كالعادة نجحت في أن ترسم ابتسـامة دافئة على وجهها، مدّت يدَها مصافحةً وتلقّى علـيّ يدَها بكفيّه وأغلق عليها بدفء وحرارة مودّعًا ومبتسـمًا ومشجّعًا، فهو أيضًا كان يتخبّط وراء ابتسامة صفراء، وبدا ذٰلك واضحًا حين انتبهت ندى له وهو يتابعها بعينيه بمجـرد أن نزلت من الباص وخطت على الأرض أولى خطوات حياتها في مراحلها الجديدة، وهي غير مدركة هول الآتي بعدُ.

بدأ الزملاء والزميلات باسـتلام حقائبهم، وانشغلت ندى بتوزيع الحقائب، ورفعت رأسها إلى الشـبّاك حيث مقعد عليّ، فوجدتْه يركّز عليها بعدسة كاميرته ويصوّرها. ابتسم لها مودّعًا، وتمامًا كما بدأ معها بابتسامة أنهى بابتسامة، وانطلق الباص وذهب، وذهب معهُ عليّ.

«لا أنتَ بحاكمٍ ولا بقاضٍ...
لٰكنّكَ حكمتَ عليّ بالعيْشِ معذَّبةً ظلمًا.»

* * *

فرح الأولاد بلقاء والدتهم وشعرتْ بالحبّ والترحيب الدافئ من الجميع... عادت الأمور إلى وضعها الروتيني، وعادت إلى ممارسة عملها وكلُّها حيويّة ونشاط واندفاع، وبدأتْ العمل والتحضير مع الفريق الذي كان معها في مصر لنقل الخبرة التي تعلّموها إلى الزملاء الذين لم يشاركوا في الدورة... بشكلٍ عامّ عادتْ، وسارتْ الأمور معها حسب خطة العودة.

مضت أربعة أيام على العودة وندى ما زالت غير مدركة هول الآتي، ربما هي مدركة وخائفة من المواجهةِ فعملتْ على إبقاء نفسِها مشغولة، ولم تترك وقت فراغ لنفسها لتفكّر... لٰكن في صباح اليوم الخامس بدأ أول الحوادث غير المتوقعة بأن تلقّتْ ندى خبرًا مفاده أنّ «أحمد» منسّق الدورة التدريبيّة قد أصابتْه أزمةٌ قلبيّة حادّة أدّت إلى وفاته. صُدمتْ ندى... فقد كان شابًّا يضجُّ بالحيويّة والحياة... كيف أصبح الآن ساكنًا تحت التراب؟

أثّر ذٰلك في نفسِها كثيرًا، فهو الوحيد الذي «عرف». حزنتْ ندى وتساءلتْ عن موقف علي. راسلَتْه على «الفيس بوك» ونقلت له الخبر. وكان دائمًا يفاجئها بردّة فعله الهادئة بحيث ردّ: «لا حول ولا قوة إلا

بالله، رحمهُ الله.» بدا واقعيًّا وعنده إيمان قويّ بقضاء الله وقدره. وهٰذه إحدى خصاله الجيّدة التي اكتشفتْها في شخصه الغامض.

لم تعرف عنه شـيئًا، لذا كان أيّ ردّ فعل تجاه أيّ موقف يصدُر منه هو معلومة جديدة.

بالنسـبة إليها، هٰذه هـي المرة الثانيـة التي تتواصـل معه منذ انتهاء التدريب، الأولى كانت حين أرسـل رسـالة إلى هاتفها النقّال ليطمئنّ منها إلى سـلامة الوصول... تمامًا كما فعل مع أغلبية الزملاء والزميلات.

بعد أيام بدأتْ ندى تـدرك أنّ هناك خللًا ما يعرقل سَـيْرَ يومها ويطغى على شـخصيّتها، فهي تشـعر بأنّ جذورها تُقتلع من الأرض رافضةً موقعها ومكانها، شـعور غير مريح البتة... هناك خلل يكبر مع الأيام، هي إنسـانة تولد من جديد، والأصحّ أنها إنسانة تركت الزمن يبني فوق روحها طبقات من القسوة والإهمال وسوء المعاملة ونكران الواقع ما جعلها تنسى نفسها تحت ثقل هٰذه الأعباء المؤلمة، وها هي تسقط في الحب، ولا تزال تقاوم الاعتراف بذٰلك... لا تريد أن تصدّق أنها امرأة متزوجة ومحافظـة ومخلصة لبيتها وزوجهـا وتحبّ رجلًا غريبًا لا تعرف عنه سوى القشور فقط.

قرَّرت مواجهة نفسـها، وكعادتها أخذتْ الورقـة والقلم وبدأتْ تكتبُ رسالةً موجّهة له الكلام فيها من دون نيّة منها أن ترسلَها، فقط لتواجه بها نفسها:

«إليكَ أيها الغريب...

إليكَ يا من اقتحم حياتي وقلبها رأسًـا علـى عقب من دون أن يدري... لقد قـررتُ أن أرتبَ أفكاري علـى ورق لأفهم ماذا حصل وماذا يحصُل وإلى أين؟؟؟

من دون إصـــدار الأحكام ســـأدعُ القلمَ يجد طريقَـــه على الورق بحرّيّة، أُعطيه صلاحيـــة ترجمة أفكاري ومشـــاعري المتفجرة ليرتّبها على السطور بشكلٍ لا أستطيع أنا أن أفعله...

ومن دون إصـــدار الأحكام منك أيها الدخيل المســـلّح بســـلاح لم أعرفه قَطّ، ربّما أنت لســـت بواعٍ لكلّ ما يجـــري لي... فأنا بالكاد أعرفك... فلنرَ من أنت؟! أنت إنسانٌ عاديّ تملك نظرة جميلة وابتسامة ساحرة، أنت متواضع وربّ أســـرة، أنت أب يسعى لرزقه ورزق عائلته بعرق جبينه، أنت رجل شـــرقيّ بحت، الغيرة فـــي عروقك، والعربي أصلُك، والصحراء لاحَتْكَ، والأرض أخذتْ حصّتَها من كفَّيك.

لقـــد ذهبنا إلى بـــلاد فرعون والنيـــل. جمعَنا القـــدرُ، الصُدفة... الزمن... لا أدري؟ لقد التقيتكَ ويا لهَولِ ما حدث بعد ذٰلك...!!!!

لنتحدثْ عني: أنـــا، وحتى لقائي بك، ظننتُ أني إنســـانة مفعمة بالحيـــاة، ظننتُ أنني قوية وأســـتطيع أن أُمســـك بزمـــام أمور حياتي وأســـيطر عليها، فقد كنت أمًّا جبّارة مميّزة وموظفـــة ناجحة والأهمّ، كنت زوجة قنوعة.

والمفاجأة التي حصلَتْ هي أني شعرتُ ببركان قد سبق وأخبرتُكَ عنه، بـــركان كان قد خمد ومـــات، وربما لم أكن أعلـــم بأنه ما يزال موجودًا... ظهر وبـــدأ بإلقاء الحمم البركانيّة الحارقة في شـــتّى أنحاء قلبي... بركان لا قاعدةَ له ولا منطق، يقذف حممَهُ بعشوائيّة بلا رحمة.

نظرتُ إلى نفســـي... «ماذا يحصُل لي؟؟ ما الذي يجري؟ ولماذا أنتَ؟؟ فأنا أقابل عشرات الناس الجدُدَ كل يوم في حياتي ولم يصدفْ أن حصل أيٌّ من هٰذا لي من قبل...»

لقد ظننتُ أني بشر، إنسانة،... لا... عرفت أنّ هٰذا ليس صحيحًا، فقد كنتُ رُفاةَ إنسانة، بقايا روح مُنهَكة. نسيتُ أني أنثى، نسيتُ طعم

الشعور والمشاعر، نسيتُ جزءًا كبيرًا من حياتي بين جدران الزوجية والبيت والعمل.

نسيتُ كم هو جميل أن نشعر بالجمال، كم هو جميل أن نمدح الجمال، كم هو جميل أن يتحرك القلب ارتباكًا من نظرة بعيدة... من لمسة غير مقصودة... ولٰكني لن أنسى كم أنت جميل...

لقد شعرتُ بالحبّ وعشْتُه في عقلي وقلبي، ما زلتُ أشعرُ بهِ لٰكنه يُحرق ويؤلم... لم أحسبْ حسابًا لذلك. شعوري يزداد قوة يومًا بعد يوم... برغم البعد... لم أعد أستطيع أن أكبح دموعي التي صارت تنهمر علنًا... ربما جاء خبر وفاة أحمد نجدةً لي، فقد كان عذرًا مقبولًا أمام الجميع...

وأعود وأسأل نفسي: لماذا أنت؟؟

أنا وبكلّ مشاعري التي ظننتُها تهدَّمتْ وماتت ثم تحجَّرَتْ... كيف استطعتَ فعلَ ذٰلك بابتسامة ونظرة فقط؟!!

كنتَ تملك مفتاحي، أنت الوحيد من دون البشر ملكْتَه، وربّما أيضًا لم تكن على دراية بذٰلك... ماذا فعلت؟ فقد رجوتكَ أن تبتعد لأنك مؤلم، ولٰكني أفكّر!! لم يكن هناك قربٌ حتى تبتعد... أو أنك كنت تستمتع بإضعافي!!!

أنت وجدتَ لنفسكَ بيتًا في عقلي لأني أُحدّثك طوال اليوم، أرى الأشياء بعينيْكَ الجميلتين، أسأل نفسي، هل أصارحهُ... ثُمّ أتراجع، فلا أملَ في إخبارك أيّ شيء... حتى لو عرفتَ، وأظنّكَ تعرفُ وتشعرُ ولو بالقليل، ماذا بعد؟؟؟ لا شيء، أو ربّما مزيد من الألم والحزن والوحدة.

لقد كنتُ أظنّ أني أشعر بالسعادة بعد رجوعي إلى عمّان، لٰكني، ومع الوقت، اصطدمتُ بواقع «اللا عودة»، وبدأ الحزن يسيطر عليَّ،

وابتدأتْ القشــورُ المتحجّرةُ تتكسّر عن مشــاعري... بدأتُ أشعر أني ضعيفة جــدًّا ووحيدة جدًّا وتعِبــة أيضًا... أنا تعِبــة وممزّقة، وأحاول الســيطرة على نفســي وإخفاءَ ضعفي، لكن، وكما قلتُ، جاءت وفاةُ صديقنا أحمــد غطاءً على الرغم مــن أني صُدِمْــتُ وبكَيْتُه وتذكّرتُ اللحظاتِ الجميلةَ التي عشناها.

كنتُ أفقد الســيطرة على نفســي عندما كنتَ تــدورُ في محيطي، وأُســقِطُ الأشــياءَ، وأتعثّرُ، وأتخبّــط، خصوصًا عندما تقتــربُ مني أو أشــعر بك تنظُر إليّ. لم أحبَّ يومًا الوقوفَ أمام الكاميرا لأكون محور العدسة، لٰكن بعد أن شجَّعتني وذكّرتني بأنوثتي، وأنّي بعينيكَ جميلة، جعلتَني أشعر بأني معك وأمامك أكتمل، أشكركَ فقد نسيتُ ذٰلك أيضًا.

والآن: ماذا أفعل؟ حاولتُ تفريــغ الطاقة في «عماد»، زوجي، لٰكنّ سورَ الصين ظهر في يومٍ وليلة... جلدتُ نفسي مئاتِ المرّات لخيانتي... لٰكن لا مجالَ لمقارنة مشاعري... فهي خيانة أيضًا إذا أنا تجاهلْتُها.

فالمشاعر التي وُلدتْ ليست ملموسة، ولا أنانيّة، ولا سلبيّة، ولا حتى دنيويّة أو جنســيّة... مشــاعري روحيّة، هوائيّة، طبيعيّة... لٰكنها صارخة وحادّة جدًّا، مشــاعري بحاجة إلى ترويض وســيطرة، فإن لم أسيطرْ عليها فسأتوارى... لا أعرف... لا أعرف... لا أعرف...، لا أريد أن أسيطر على ضعفي، وحزني، واستســلامي، فقد بدأتُ أتلذّذ بهٰذه المشــاعر المؤلمة، طالما أنها تذكّرني بك... لا تتردّدُ دموعي في أن تنزل في أيّ لحظة لذكراك، لأنها بسببكَ ولك.

ربّما، وبعد تســعة أيام من الفراق... ســأدع الزمان يكون كفيلًا بالسيطرة على ولادتي الجديدة.

أنا إنســانة جميلة بفضلك، ومُحبّة ومُقبلة على الحياة بألوانها... أحبّ الناس والطبيعة والموسيقى... أحبّ الخريف لأننا عشناه... أحبّ تونس وأهلها على الرغم من أنكَ أوّل تونسيّ أتعرَّف به في حياتي.

أرجوكَ، ومن أجلي، أن تنتبه لنفسكَ ولا تدع القهر أو الغضب يجد له مكانًا عندك... ابتسِمْ فابتسامتُك جميلة، ولا تبخلْ بنظرتك إلى من تحبّ، فسحرُها نادر، ولا تنس أنّ لي حصةً منها وفيها.»

ندى

تركَتْ الرسالة ولم تقرأْها... لتقرأَها في اليوم التالي بذهن صافٍ.

جلستْ ليلًا في سريرِها فعماد يحبّ السهر أمام شاشة التلفاز تمامًا كأغلبية الرجال في العالم وهٰذا الوضع ممتاز بالنسبة إليها، ويعطيها الخصوصيّة التي تريد. جلستْ وبدأتْ تقرأ ما كتبتْ في الليلة السابقة... وهٰذه المرّة النكرانُ مستحيل، إنها تعاني الحب، تحبّه، كيف؟ ولماذا هو بالذات؟ لا جواب.

عادت بأفكارها مرّة جديدة: إنها امرأة متزوجة ولها أولاد، وهو أيضًا رجل متزوج ورب أسرة، كلٌّ من بلدٍ بعيد عن الآخر، ثقافة أخرى، ولهجة أخرى، وحياة أُخرى و... و...

«روحي التقت نصفَها الثاني... لٰكن هل هٰذا جائز؟؟ أنا امرأة متزوجة وما أفعلُه خيانة، يجب أن أكون مع زوجي قلبًا وقالبًا، يجب أن أتقرّبَ منهُ وأُصلحَ ما عفتْ عليه السنين... أشعر بأني على الشاطئ وبالإمكان السيطرةُ على الوضع، أظنّ أني أستطيع.» قالت ندى في إصرار.

وبدأتْ العمل على تهيئة الظروف بهدف البدء بالإصلاح، فذهبت إلى السوق واشترت هدايا وثيابًا جديدة لها ولعماد واشترت أيضًا أغطيةً فاخرة لسرير الزوجيّة مع وسادات وثيرة وناعمة، كما بدأتْ تنظر إلى نفسِها وتسرّح شعرَها وتهتمّ بألوان ثيابها، عطرها، صورتها... كلُّ هٰذا حصل خلال أسبوعين من الزمن، فقد كان الهدف من الموضوع أن تبدأ بالمظهر علّه يؤثّر في الجوهر الذي ما زال ينزلق من بين أصابع سيطرتها...

كانت ترى في نفسها المرأة الحديديّة، إلا أنّ محاصرة الدنيا لها بدأت بإضعافها وصَهْرِ ردائها الحديدي الذي تحتمي به، لأنها لا تترك للإحباط مجالًا في حياتها. وعلى الرغم من أنّ البيئة مهيّأة لوجوده بكثرة، فأحيانًا، عندما كانت تصل إلى بيتها بعد أن ينتهي عملها، كانت تقف على بابه لحظات، تأخذ نفسًا عميقًا وتقول: «يا ربّ»، وتُعيدُ ترتيبَ تعابيرِ وجهها، وترسمُ ابتسامة أحيانًا لمعرفتها أنّ أولادها خلف الباب مباشرةً أو تمحوها لتدخل بتجهّم وتواجه عمادًا المتكبر.

في ذٰلك اليوم عندما دخلت ندى حاملةً أغطية السرير، كانت كلُّها بهجة وهي تقول لزوجها: «هديّة لنا، نُهديها لأنفسنا بمناسبة اقتراب السنة الجديدة، ما رأيك؟ جميلة، أليس كذلك؟ لنضعْها على السرير.»

صمتَ زوجُها وأظهر عدم رضاه، ثم قامّ متثاقلًا بعد إصرارها، يستفهم مستنكرًا: «كم دفعتِ ثمنها؟»

قالت: «لا شيء يُذكر... فقط لنستمتع بها.»

مجرّد سؤاله عن الثمن كان كفيلًا بأن تنغلق على نفسها وتتقوقع في دائرة الإحباط، لٰكن لا، ليس هٰذه المرّة... لا...

استمرّت ندى على الابتسام وأكملتْ مازحةً: «لم نشترِ أغطيةً كهٰذه في حياتنا، لندلِّل أنفسنا ولو لمرّة، فنحن نعمل بجدّ، لِمَ لا!!! هيّا افرد معي.»

حلّ الليل ونام الجميع وبقيتْ ندى تفكّر بأنها عادةً لا تتلقّى الإطراء من زوجها عندما تفعل شيئًا لطيفًا، كأن تشتري هديّة من دون مناسبة، أو أن تُحضر زهورًا، فقط لإنعاش البيت بِعِرْقٍ أخضر، أو تزرع نبتة موسميّة للزينة...

بالنسبة إليه هٰذا تبذير، بالنسبة إليها: هٰذا يعطي الحياة نكهة.

ما دامت تقوم بواجبها تجاه البيت وتغطّي الجزء المتحتّم عليها أن تغطّيه مادّيًا، لا بل وزيادة، فلا بأس، وعادةً هي تغطّي ثلثَي مصروف البيت لأنه من أهمّ أولويّات حياتها، وعندما تنتهي النقود من محفظتها تستدينُ من الزملاء في العمل ـ وهٰذه عادةُ الجميعِ فلا تكلفةَ بينهم في الشركة كأنهم عائلة واحدة، مَن يملك النقودَ منهم يساعد الآخرين ـ وحين تطلب من زوجها تلميحًا يتمنّن عليها بالفُتات ملمّحًا أيضًا إليها بأن تعيدَ له النقود حين تتوفّر لديها.

وفي ذٰلك المساء بالذات لاحظتْ أن لقاءها بعليّ قد فتح ملفّات كانت تتناسى وجودها، وفي تلك الليلة عادتْ بذاكرتها إلى بداية علاقتها بعماد قبل أن يصبح زوجها.

تعرّفت ندى بعماد وهي في الثانية والعشرين من العمر، وبدأ الموضوع تقليديًّا، شابّ أُعجب بفتاة وطلب يدَها من والدِها للزواج. وافقت الفتاة وتمّت الخطوبة. فترة الخطوبة دامت ستة أشهر، وكانت كفيلة لتكشف عيوبَ الطرفين التي لا بد منها في أيّ شخص، لٰكن اهتمام عماد بالجانب المادّيّ من حياة ندى بدأ يطغى على تصرّفاته. فندى تنحدر من أُسرة عريقة ومتمكّنة مادّيًّا وتسكن بيتًا فسيحًا في موقع محترم في ضواحي العاصمة عمّان. جميع أفراد أُسرتها متعلمون ويعتمدون على أنفسهم في كسب قوتِهم، بمعنى آخر، صورة مثالية لعائلة أردنيّة منفتحة اجتماعيًّا ومستقلة ومحافظة. أمّا عائلة عماد فهي تختلف عن عائلتها، هناك اختلاف ثقافي واجتماعي بين العائلتين. هم يعيشون ضمن العشيرة، والقرار النهائي لكبيرهم، والبساطة والكرم والنخوة أعمدة التعامل في ما بينهم. تعليم عماد وإخوته محدود، وهم جافّون في التعامل بعضهم مع بعض، وعلى الرغم من ذٰلك هم دائمون على احترام بعضهم بعضًا، ويَظهرون يدًا واحدة وقت الشدائد.

أمّـا الصفات الخاصة التي بـدت واضحة خلال فتـرة الخطوبة، عدا عن البخل، فكان أبرزها الشـك. فأينما أدارت نـدى وجهها وجدت عمادًا يراقبها ويسألها لماذا نظرت إلى هناك: هل تعرفين أحدًا؟ بماذا تفكّرين؟... إلى آخره من أسـئلة ظنّتها ندى من بـاب الغيرة والحبّ ليس أكثر، إلى أن...

ذهبـت إلى بيته في أحـد الأيام، فقـد دعاها إلى الغـداء الذي حضّره هو بنفسـه، واسـتمتعا بتناوله، وبعد ترتيب المكان، بدأ عماد بالاقتراب من ندى وبـدأا بتبادل القبل، ثُمّ اقتـرب منها أكثر بحيث تلاصق جسـداهما، في تلك الأثنـاء كانت ندى تتعجـب من بعض الحـركات، فها هي تتعرّف الرجل من خلال مشـاعر متضاربة ما بين لذة ودفء وخوف وارتباك وعدم راحة، كانت تعتقد أن ما يفعلانه من قُبل وتلامس مقبول بين رجل وخطيبته.

«سيكون زوجي بعد أشـهُر» هٰكذا قالت في نفسـها، فلم تقاوم اقترابه ما دام التلامُـس يحصُل وهما مرتديان ملابسـهما، كما وأنها كانت تسمع من صديقاتِها المتزوجات بأنّ هٰذه الأمور عاديّة بين اثنين مخطوبيْن وعلى وشك الزواج.

لم يطلْ الحال، وتمّ التروّي، وغادرت ندى فرحة ومنتشـية نوعًا ما لعيْشها التجربةَ الأولى بالاقتراب من رجل، والشعورُ بأنها محبوبة من قِبل خطيبها، أعطاها دفعة مشـاعر جديدة في نكهتها وواسعة في آفاقها.

في اليوم التالي انتظرتْـهُ بفارغ الصبر لتعبّر له عـن حبّها، لٰكنه لم يـأتِ للزيارة كالمعتاد، فهـو يزورها يوميًّا في بيتها وسـط أهلها، تعجّبَتْ!!

إلا أنـه أتى في اليوم الـذي تلاه، وبدت تعابيـرُ وجهه صارمة، أخافتها، ولم تفهم معنى هٰذه النظرة!!

جلس معها، ومـــن دون مقدّمات قال لها بصـــوت أجوف: «أريد الآن أن أعرف عـــدد علاقاتك بجميع الرجال ومدى عمقِها؟ كم رجلًا عرفتِ وكم علاقةً أقمـــتِ؟؟ فأنتِ قبلتِ دعوتـــي والاختلاء بي ولم تمانعي اقترابي منكِ!!»

للوهلة الأولى لـــم تفهم ندى ماذا قال، لـــم تفهم الموضوع!! حاولت أن تســـتوعب سؤاله! صُدمت، صُدمت بشـــدّة غير مُصدّقة ما تســـمع، وكاد العالم يســـمع صوت انهيار برج «المشاعر» الذي بنتهُ له...!! فمـــا كان منهـــا إلا أن انتفضت بحـــدّة وعصبيّة قائلة: «أنتَ مطرود. اخرج من هنا الآن.» وخلعـــت خاتَمَ الخطوبة ورمَتْهُ باتجاهه، بحيث تدحرج على الأرض، واستمرّ على الدوران تحت المقعد الكبير في غرفة الضيوف، ثم اصطدم بالحائط وسقط مُحدثًا رنينًا خافتًا...

بعد أن رأى ردّة فعلها القويّة، تراجـــع فورًا عمّا قال. تبدّل موقفُه وســـحب اتهامه، لٰكنها أصرّت عليه أن يخرج بلا عودة. فلا مســـتقبل بينهما، وما حصل لم يتعدّ القبلَ بين رجل وخطيبته، وندى لم يســـبق لها الاقتراب من أيّ شـــابّ أو رجل في حياتها، إذ على الرغم من أنّ عائلتها منفتحة لكنها في هٰذه الناحية عائلة محافظة جدًّا.

خرج عماد مُجبرًا وكلّه أســـف، لٰكنها لم تأسف، كانت تقول في نفسها: «يكفي، بخل وشـــكّ ورعب... لا أريد أن أبدأ حياتي الزوجية بهٰذه الفوضى...»

حاول عماد الاتصال في اليوم الثاني، فلـــم تجبهُ أو تعطِهِ مجالًا للعودة أو الاعتذار، فقد كانت ســـتتغاضى عن موضوع نظرته المادّيّة التي طغت على علاقتهما، لٰكن أن يصـــل الموضوع إلى تلك الإهانة واتهامها بشـــيءٍ لم تعرفه فـــي حياتها؟ فلا. المصيبـــة الأكبر أنه كان يختبرها!!! هي كانت قد بـــدأت تقع في حبّه وهو يمتحنها ويســـيء

معاملتها! لا وألــف لا... كلام غير مقبول أبــدًا؛ وبالنتيجة عرفتْ أنّ شعور (الأمان) معه مفقود.

ندى إنسانة تعيش الهواء والرياح، تعيش «غير الملموس»، تعيش الطبيعة، والأرواح والشجر والنجوم... هٰذا ما أحبّته في حياتها، تعيش الله وتحتمي به.

إنها حرّة طليقة ولا تدَعُ أحدًا يقيّدها.

لم تجرّب يومًا التفكير في الاقتراب جســديًّا من أيّ رجل، فهٰذا خارج اهتماماتها، وما حصل لها سبّب جرحًا عميقًا وجديدًا أتاها من أقرب الناس إليهــا، فآثرتْ الصمتَ والانطواء بعدمــا ظنّتْ حينها أن عمادًا ســيكون ســترًا لها وبيتًا آمنًا، لٰكنه كان عبارة عن فخّ معجون بالغدر وعدم الثقة.

بعد هٰذه الأحداث بأيام، كانت ندى تبحث عن الوقت المناســب لتتحدث إلى أحد أفراد العائلة بخصوص مــا حدث. انتهزت الفرصة وخرجت تمشــي مع والدتهــا في المســاء حين وجدت في نفســها الشجاعة لأن تصارحها. فأخبرتْها القصة كاملةً «مُخفِيةً بعضَ التفاصيل الصغيرة المُحرجة بالنسبة إليها»، لٰكنها ذكرت تفاصيل الزيارة البيتيّة، والنظرة المادّيّة، والشكَّ وكلّ النقاط التي، ومن وجهة نظر ندى، كانت سببًا كافيًا للانفصال عنه.

«أنا لا أريد الارتباط بعماد، إنه غير مناسب لي، لا أريده.» وأخيرًا تجرّأتْ وقالت هٰذه الكلمات التي كانت تقولها صُراخًا بالخفاء.

ردُّ الفعــل الأوّل والأخير للوالــدة كان: «لا تملكيــن خيارًا، لا تســتطيعين التراجع حفاظًا على صورة العائلة، فلم يسبقْ أن ارتبطت إحدى أخواتِك وفســختْ الخطوبة. إيّاك والتحدّثَ في هٰذا الموضوع مع أحدٍ وخصوصًا والدك، أفهمتِ؟»

وأضافت: «أنا سأتصرّف.»

ندى كفتاةٍ يافعة لم تعرفْ سوى الخنوع والرضوخ للأوامر، كانت تابعة ولـــم تكن قياديّة في تلك المرحلة مـــن حياتها. خافت وصمتتْ مُجبَرة وكلُّها عدم ثقة وخوف.

اتصلت الوالدة بعمـــاد وطلبتْ منه الحضـــور، وتحدثت إليه، وقالت له: «ابنتي طاهرة وعفيفة ومؤدّبة جدًّا، لا حقَّ لك في توجيه أيّ كلام لها بهذا الخصوص...» إلى آخره مـــن كلام يدلّ على أنّ كلّ الأطراف رابحة إلا ندى... اعتذر عماد وتراجع عمّا قال، واعتبر الجميعُ أنّ القصة انتهت... لم يلتفتْ أحد إلى مشاعرها، فقد بدأت أولى خطواتِها علـــى درب لا تريده ولا خيار لها ســـوى الانصياع لقســـوة الأحداث، والرضوخ إلى قـــرار البالغين عمـــرًا والقاصرين عقلًا.

وتمّ الزواج وبدأت ندى قصة جديدة مع العذاب.

بدأ عماد بالظهور في حياة ندى شرسًا، وعنيفًا، وبخيلًا، ومهملًا، وأنانيًّا، وشكّاكًا، ومُســـتغلًّا. وبدأ يمارس ما نشأ عليه في بيئته حيث يتسلّط الرجل على المرأة فارضًا شـــخصيّته الضعيفة بعضلاته القويّة، وبدأ يلعب معها ألعابًا نفســـيّة أفقدَتْها ثقتَها بنفســـها، وبدأت تصرُّفاتُه تُرهبها. كان يختفي من البيت من دون ســـابق إنذار، ويعود خفيَة من دون أن يبرّر غيابه، ويظهر أمامها فجـــأةً، فتصرُخ، ثم يتّهمُها بالجنون لِصُراخها!

بدأت هذه الأشياء تُخرج أسوأ ما في شـــخصيّتها، فبدأت تعامله بالمثل من عصبيّة وشكّ وسلبيّة . بدأ الأذى الجسدي، وبدأت تحاول الدفاع عن نفسها بالصراخ، فهو رجل قويّ جسديًّا وقَبضةُ يده حديديّة، فأحيانًا كان يضربها مهدّدًا إيّاها بالمزيد إذا صرخت. ولم يكن مُراعيًا

حالتها الصحيّة، فأحيانًا كان يضرِبها وهي حُبلى أو في وضع النفاس. ودائمًا كان يسلّط ضرَباتِه على رأسها ووجهها على الرغم من معرفته الجيّدة بأنها تعاني صداعَ الشقيقة بشكلٍ شبه دائم.

لم تعرفْ ماذا تفعل وإلى من تلجأ، لٰكنها كعادتها، اعتمدت على نفسها، وبدأت تتجرّأ سنةً بعد سنة على الدفاع عن نفسها بأيّ طريقة كانت، كأن تدفعه عنها، أو ترمي أيَّ شيء صوْبَه قبل الوصول إليها، أو حتى محاولة ضرْبه على الأماكن الحسّاسة، والتي بالنهاية كانت فعّالة، فتطرحه أرضًا من دون عناء. بالمقابل انتقل إلى مرحلة جديدة من العنف والإساءة، فبعد كلّ غارة يشنّها عليها كان يترك البيت يومًا وأسبوعًا وشهرًا وثلاثةً وسبعة... يتركها مع الأولاد من دون سؤال أو اهتمام. كانت تتخبّط ما بين عملها ومسؤوليّة البيت والاختباء من الناس كي لا تُسأل عنه، حتى الأهل أغلقوا أبوابهم هربًا من المسؤولية ولم يَمدّوا لها يد العون يومًا.

كانت ندى تتفاجأ باتصال أصدقاء عماد وأقاربه الذكور للإصلاح في ما بينهما، وكانت تتفاجأ كيف يجد في نفسه الجرأة على أن يتحدث عن حياته الخاصة بهذا الانفتاح، ويسمح للرجال بمكالمتها هاتفيًّا! وقد رأت، بكل وضوح، أنّ تسعين بالمئة منهم ظهروا على شكل ذئاب وذكور، وبدأوا بالنظر إليها وكأنها فريسة سهلة، مستغلّين ضعفها ووضعها العاطفي المهتزّ، فهي جميلة، ويافعة، وتلفت الأنظار أينما ذهبت، لٰكنها لم تستخدِم جمالها يومًا للوصول إلى أيّ هدف في حياتها، لأنها متواضعة وصادقة وواقعيّة.

والصديقات، ومن ضمنهم الأخوات، حاولن بأدب التملُّص من زياراتها لهن بحجّة انشغالهن، على عكس ما بدا جليًّا لندى حينها ـ لخوفهن على رجالهن منها ـ لأنهن كنّ يزرنها بالساعات لحبهن لها وإعجابهن بشخصيّتها.

استمرّت الحياة تلعب لعبتها القاسية في حياتها إلى أن قرّرتْ المضيَّ قُدُمًا والتخلّي عن عماد وطرده مرّة ثانية من حياتها، فنهضتْ وقرّرتْ أن تعود إلى مقاعد الدراسة، وأكملتْ دراستَها، وبحثت عن وظيفة في شركة مرموقة، وتوظّفتْ بدخلٍ ممتاز، وبدأتْ تسير مرفوعةَ الرأس وكلُّها ثقة، لم تسمح لأحد أن يحطِّمها أو يقفَ في طريقها، لأنها لم تجد من يقف معها في الطريق حين كانت بحاجة إليهم. لم يعترض دربها أحد، الكلّ تراجع أمام قوة عزمها، وإصرارها على السير الواثق، وعدم الالتفات إلى الماضي، أو الاختباء من الناس، بعد الآن، وبدأت تسير وتقول للأعور بصوت واضح: «أنتَ أعور، والعيب ليس في خلْق الله.»

إنها جريئة بأدب، فلم تترك فجوة لأحد بالتعدّي ولو بنظرة، وبدأت تستخدم ذكاءها الذي بدا وكأنه ضَمر خلال السنوات التي عاشتها مع عماد. وبدأت تتفتّح وتزهو تمامًا كشجرة ريحان عطِرة تظلل بعبيرِها أطفالَها وتحميهم بأوراقها من هبّات الزمن.

ندى مدركة أنها أضاعت الكثير من الوقت لتخطو هٰذه الخطوات، لٰكنها في النهاية خطتها. وهٰذا ما جعل منها امرأة تختلف عن نساء كثيرات خضعن للذلّ، وهيمنة الرجل، والمجتمع، والاختباء، والخجل لمجرّد أنها (أُنثى)، إذا طالبت بحقّها وعلا صوتُها قالوا إنها فاجرة، وإذا اهتمت بشكلها قالوا إنها مبذّرة، وإذا خرجت من بيتها من دون رجل ـ خصوصًا في الليل ـ قالوا إنها عاهرة، وإذا كانت صاحبةَ قرار قالوا إنها كاسرة، و... و... إلى ما لا نهاية من أحكام تذمّ المرأة، فنجد أنّ الأغلبيّة تخاف تلك الأحكام وترضى بالهوان والانكسار بإدراكٍ تامّ بأنّ تسعين بالمئة من هٰذه الأحكام تصدر من المرأة ضدّ المرأة نفسها، لتُزرع في أذن صاحب السلطة، وفي هٰذه الحالة هو الرجل.

كان عماد يراقبها من بعيد وهي تنهض، ولم يكن يستطيع التخلّي عنها، ولم يلجأ إلى الطلاق كحلّ نهائيّ، ولم يكن ذٰلك خياره منذ البداية. فهو يحبّها ويريدها، وقد حاول التقرّب منها، لٰكن في كلّ مرّة كان يحاول التقرب منها كانت تصدّه بقوّةٍ قاصدةً من ذٰلك أن يتعلّم درسه، فهي أيضًا لم تلجأ إلى الطلاق كَحلٍّ، فقد كانت تحبّه، أو ربما كانت العِشرة سببًا جعلها تظنّ أنّ هٰذا هو حب.

كان عماد يراقب نهوضها من بعيد، وأعاد المحاولة بالتقرّب والرجوع إليها من جديد، وبسبب إصراره وكثرة محاولاته، قرّرتْ أن تمنحه فرصة جديدة لأنها مُرهقة مما تحمل من أثقالِ مسؤوليّات الأولاد والبيت والعمل، إنها بحاجة إلى أن تُلقي ببعضٍ منها ولو لفترة قصيرة، ففكّرتْ أنها إذا دعته فسيكون السيناريو القديم نفسه وهو الحميميّة التي ستسبق النقاش والتفاهم لأول ثلاثة أيام، ومن ثَمّ، وقبل نهاية الأسبوع، تعود الأوضاع والعلاقة إلى سابق عهدها وتتحوّل الحميميّة إلى ممارسة جنسيّة بحتة خالية من المشاعر، وكما حصل في المرّات السابقة التي كان يرجع فيها عماد إلى البيت وكمحاولة منها لإصلاح الحال، كان عليها هٰذه المرة أن تتصرف بفطنة، فرفضت أن يتمّ اللقاء بينهما في البيت، ورتّبتْ لقاءاتهما في المطاعم وأماكن عامّة لاحتساء القهوة، لأنها أماكن مناسبة للحديث بهدوء... وبدأت بوضع مطالبها، وأهمّها كان رفضها القاطع استخدام العنف في البيت، بالإضافة إلى الحدّ من استغلالها ماديًّا، فهو الرجل، ويجب عليه أن يشعر بالمسؤولية تجاه بيته وأولاده، بالمقابل قدّمتْ تنازلاتٍ كالسيطرة على تسرُّعها في الحكم، والمحافظة على هدوء النفس قدرَ المستطاع، فهي إنسانة أيضًا ولها عيوبٌ تمامًا كما للجميع نساء ورجالًا.

لم يمنع ذٰلك ندى من أن تضع عمادًا تحت الضغط والامتحان،

فهي تعرف جيّدًا حبّه للمال، فاستغلت هٰذه النقطة، فكانت تطلب فنجان القهوة مع قطعةٍ من الجاتو ولا تمسّ أيًّا منهما.

وكان يسألها: «ألا تأكلين أو تشربين؟؟»

وكانت تقول: «لا أريد، شكرًا.» ثمّ تنتظرُ ردّة فعله الحانقة.

فيُجيب بضيق: «إذن لماذا طلبتِ؟ نقودي ذهبتْ هباءً.»

لٰكن في النهاية وجدت أنه أصبح ألطف وأهدأ، وصار مع الوقت يسألها: «هل أحضِرُ لك طلبًا آخر؟؟»

هذا الكلام بحدّ ذاته تقدُّم لم تكن تحلُم به!!!

وهٰكذا رجع عماد إلى بيت الزوجيّة حيث التواصل مفقود، فموضوع نصّ الحوار دائمًا هو الأولاد ومشاكل الدراسة والمشتريات والضيوف والأمور العامة جدًّا. كانت فخورة بإحداث الفرق في حياتها، فتوقّفَ العنف، والأهمّ من ذٰلك كله أنها ألغت ما يعادل خمسًا وتسعين بالمئة من قائمة الأقارب والمعارف والأصدقاء والجيران. فلم يستحقّ أيٌّ منهم لقبه.

كانت تظنّ أنّ ضرب المرأة والهيمنة على حياتها هو أمر طبيعي، فهي نشأت في بيت كان فيه والدها يفتك بوالدتها ضربًا مبرّحًا، وفي المقابل كانت الوالدة بالاتفاق مع الوالد، تشنّ هجومًا شرسًا عليها وعلى أخواتها من دون الذكور، فتَضربهنّ من دون توقُّف مستخدمةً أيَّ شيء، العصا، و«البربيش» والحذاء، وأيّ أداة يمكن أن يكون أذاها الجسديّ أكثر إيلامًا، ولم تكتفِ بالضرب فقط، بل كانت تنفث ألفاظًا بذيئة تخرج من بين أسنانها المفترسة كأنها شفراتٌ جارحة وسكاكين حادّة تُغرس في ذاكرة الطفولة إلى الأبد.

وفي يومٍ من الأيام حصل هجوم على ندى من كلا الوالدين، لسببٍ لا تذكُره، وبدأ ضربُها بالأيدي والأرجل والعصا والحزام،

واستمرّ الاثنان على الفتك بها إلى أن تشنّج جسدها، وعلى الرغم من ذٰلك استمرّا إلى أن جاءت شقيقتها تصرخ: «لقد قتلتموها. إنها لا تتحرّك! اتركوها، قتلتموها.» قالت هٰذا وهربت خوفًا منهما. وهٰكذا توقّفا بعد أن أكملا إهانتها لفظيًّا ثمّ تركاها على الأرض ترتجف مرتمية من دون حركة. بعدها توقَّفتْ عن النطق لبعض الوقت.

اسمها ندى، والندى من الأشياء الشفّافة الجميلة، الأشياء الصغيرة بحجمها، الكبيرة في سموّها وسحرها، ندى أرضها زهور وسماؤها الحرّيّة... حرام أن يُمسّ منها قطرة، فكيف بأن تُداس وتُهان؟؟؟

فكّرتْ ندى بأن قصتها تكرّرتْ مع الكثير من الفتيات الشرقيّات اللواتي أُجبرن على الزواج بطريقة أو بأُخرى، ولاقينَ الأمرَّيْن من الزوج وهيمنة الذكر (الوالد أو الإخوة الذكور) في حياتهنّ، فعشن سيطرته، وظلمه، وحُبّ التملك لديه والحدّ من الحريّة أو حتى إبداء الرأي، لماذا؟ نعود إلى السبب، المصدر، وهو أنها (أنثى)، وهي الأضعف جسديًّا، بمعنى أنها أنثى لتلبية رغبة الرجل من خِدمات: الطبخ، والتنظيف، وإنجاب الأولاد، وتربيتهم، وتغذيتهم، وغسلهم، وتغيير ملابسهم، والعناية بهم، والسهر وقت مرضهم، والتنقّل معهم لقضاء أقلّ حاجات البيت، فهي تحمل الطفل وحقيبته في يد، وأدواتِ التنظيف والمشتريات في اليد الثانية، وتقطع الشارع مسرعةً خوفًا من السيّارات اللامبالية بثِقل حمْلِها وكعب حذائها الضاغط على قدمها، واهتزاز فقراتِ ظهرها جرّاء السرعة... إضافةً إلى أنها مُجبرة على أن تكون بكامل أناقتها لتذهب إلى العمل حتى تضع خبزًا على الطاولة لأولادها.

قصص عادت إلى ذاكرتها، كلّها مواقف وذكريات أليمة كانت ندى قد أحكمت الإغلاق عليها وتناستها حتى تستطيع المضيّ قُدُمًا. لٰكن لماذا تذكّرتْ طفولةً يائسة ظالمة ومُظلمةً ووحيدة؟؟ لماذا ولماذا الآن؟

إنه علي... أجل إنه علي، فتح عينيها على أنها تستحقّ أكثر مما تظنّ، وأنها لا تقدّر نفسها كما تستحقّ! لقد بدأت أفكاره تسري في دمها، وتفتح عينيها على أشياء كانت قد وضعتها في صندوق باندورا منذ زمن بعيد وأحكمت إغلاقه ورمت المفتاح بعيدًا، إلى أن جاء وفتح الصندوق(*) من دون الحاجة إلى إحضار مفتاح، فقد كان هو المفتاح لكلّ ما هو مُغلق في حياتها، ففتح الصندوق وجعل الشرور تتطاير تمامًا كما تطايرتْ معها كلّ المشاعر السامية والجميلة والراقية والمُحِبّة، المشاعر التي كانت قد نسيتْ ممارستَها، وكانت قد نسيَتْ أنها جزء لا يتجزّأ من شخصيتها.

(*) **فَتْحُ الصُّندوق**: بعدَ سَرِقةَ بروميثيوس النارَ، أمرَ زيوس ابنَه هيفيستوس بخلْقِ المرأة باندورا كجزءٍ من العقوبةِ على البشريّة. أعطيَتْ باندورا الكثيرَ من الهدايا من أفروديت وهيرميز والكارايتات وهوري. حذّرَ بروميثيوس شقيقَه إبيميثوز من أخذِ أيِّ هديّةٍ من زيوس خوفًا من أعمالٍ انتقاميّة، غير أن إبيميثوز لم يُصغِ، وتزوّج باندورا التي كانت تمتلكُ صندوقًا أعطاها إياه زيوس، وأمرَها ألّا تفتحَه، غير أنْ باندورا فتحتْ الصُّندوقَ وخرجَتْ كلُّ شرور البشرِ منه. أسرعتْ باندورا لإغلاقِ الصُّندوق، ولم يبقَ فيه إلا قيمة واحدة لم تخرج هي الأمَل.

«لن تستطيعَ الدنيا قَهْرَ الإصرارِ في قلوبِنا، أو إزاحةَ فُسحةِ الأملِ من عقولنا مهما قستْ علينا وتَغَوّلتْ.»

* * *

استيقظتْ ندى من أفكارها على صوت عماد يفتح باب البيت ووجهُه مكفهرّ!!

سألتْ بقلق: «ما الأمر؟»

قال بصعوبة: «ابن عمّي الصغير تُوفِّيَ» وانهار باكيًا.

امتصّت ندى هولَ المفاجأة غيرَ مستوعبةٍ الموضوع، لٰكنّها مدركةٌ أنّ عليها التصرُّفَ بعقل راجح، فعماد مُنهار. فورًا عملتْ على تهدئته وحرصتْ على أن يشربَ الماءَ، ويغسلَ وجهَهُ، ويدعوَ الله أن يرحمَ ابن عمّه ويجعلَ مثواه الجنة، تأكدتْ أنه تماسكَ وتخطّى الصدمة الأولى، وتركتْه يذهبُ للقاء أفرادِ العائلة لإجراء الترتيبات اللازمة للجنازة والدفن.

أمّا بعد أن خرج زوجُها، وبعيدًا عن مرأى الأولاد، فقد انهارت باكيةً وحدها على الأرض في غرفة نومها. إنها تحبّ هٰذا الشاب كثيرًا، وهي مصدومةٌ جدًّا لموته المفاجئ، مات على أثر أزمة قلبيّة.

كانت ندى على علاقة طيّبة جدًّا معه، وتحبّ التحدث إليه، فهو من أفراد العائلة القليلين الذين كانوا يصارحونها بمعرفتهم بطبيعة عماد العنيفة، كان يشجّعها على الصبر ويعزّز ثقتها بنفسها، ويُكبر فيها أخلاقَها العالية مع جميع أفراد العائلة. موته مفاجئ ومؤلم جدًّا.

إنه ثاني شخص يموت في فترة أقلّ من شهر، أحمد منسّق الدورة وصديقنا هٰذا. حزنتْ نـــدى، حزنتْ كثيرًا فهي تعـــرف أنها بانحدار، وتحتاج إلـــى أيّ دعم يمكن أن يُقدَّم لها، حزنـــتْ وهي مُدركة تمامًا أنها تعيش فترة «تحـــوّل» في حياتها، حزنتْ لأنها أحبّتْ شـــخصًا لا تعرفه ولا تســـتطيع التحدُّث إليه أو أن تراه، حزنتْ لأنها عرفت نوعًا ثالثًا من الرجال، الأول «والدها» الذي أحبّتْهُ أكثرَ من أولادِها في فترة ما من حياتها، وزوجها وأشـــقاؤها، والنوع الثاني هو النوع المتعطّش لرغبات الجسد كالطُّفيْلِيّات، أمّا الثالثُ فهو «علي».

بكتْ وكلُّها ظنٌّ بأنها وصلتْ إلى ســـقف الحـــزن، وأنها محاطة بالوحـــدة، ومتألمة كما لم تختبر الألم من قبل... مســـكينة، لم تدرك أنها بـــدأتْ أولى خطواتِها على طريق عـــذابٍ لا تصِفُه كلمات. كانت تشـــعر أنّ شـــيئًا كبيرًا يختلف ويتغيّر فيها الآن، لم تكـــن تعرف أنها كانت تُكسَـــر، وأنّ الدنيا مُقبِلةٌ صوْبَها حاملـــةً أدواتِ تعذيبٍ جديدةً، وكلُّها من مصدرٍ واحد، «...علي».

بقي علي يســـتحوذ على كلّ عقلها وحياتِها، فالموضوع بالنســـبة إليها شـــائك جدًّا، ها هي تعود وتبدأ جَلْدَ نفسها بأفكارها، فهي امرأة متزوجة منذ ســـنين طويلة، وفكرة التفاتها إلى رجـــل آخر، حتى ولو من باب الإعجاب، غيـــر واردة، أو بالأحرى هي «كالكُفر». فهي امرأة مؤمنة، وتدرك جيّدًا أنّ مشاعرها وتفكيرها يجب أن تكون منصبّة على رجُلِها وبيتها وعائلتها، بغضّ النظر عن ســـوء المعاملة التي تلقّتها من عماد في مرحلة معيّنة من حياتها، ولن تتخـــذ من هٰذا التاريخ حجّة، وما تشـــعر به الآن تجاه ذٰلك الغريب يَكســـر كلَّ ما نشـــأت عليه من عادات وتقاليد، ويتنافى والدينَ الذي نشـــأت عليـــه منذ الصِّغَر. لٰكن هناك شفيع، فما تشـــعر به تجاه هٰذا الغريب هو شيء لم تشعرْه تجاه أحد في حياتها قَطّ.

مرّتْ أيّــام العزاء، وكانت حالة ندى النفســيّة تزداد ســوءًا، فقد اختلطت عليها الأمور، وها هي تتلقّى الصدمة تلو الأخرى، والصدمةُ الكبرى بالنسبة إليها هي علي، إنها تحبّه، روحُها تعلّقتْ به. إنها تحبّه ولا تستطيع أن تشــاركَ أحدًا بهذا الموضوع، فقد تتعرّض إلى مشاكل كبيرة، وربما تُقتل، فحياتها الآن في خطر لأنها تعيش ضمن العشيرة، وأن تلتفتَ إلــى رجل آخر بعواطفهــا، فهٰذا وَحْدَهُ كفيــل بأن يَصدُر بحقّها حكمٌ بالإعدام من دون أدنى شــك، ويُنفَّذ مــن قِبل أحد أفراد ذكور العشيرة، كون قتلِها لا يُحاسَب عليه مرتكبُهُ بالعدالة المناسبة[*]،

(*) البند **340 من الدستور الأردني:**

مرسوم ملكيّ بإلغاء مادّةٍ من قانون العقوبات للحدّ من جرائم الشرف 2013:

أصدر العاهل الأردني الملك عبدالله الثاني مرسومًا يقضي بالموافقة على قرار مجلس الوزراء تعديل المادتين (340) و(342) من قانون العقوبات، إذ تمّ استبدال العذر المُحِلّ من المادة (340) بالسبب المخفّف، حيث كانت المادّة تنصّ قبل التعديل: (يستفيد من العذر المُحِلّ، مَن فاجأ زوجتَه أو إحدى محارمِه خلال التلبُّس بالزنا، مع شخص آخر، وأقدم على قتلهما، أو جرْحِهما، أو إيذائهما كليهما أو أحدِهما. كما يستفيد مرتكب القتل أو الجرْح أو الإيذاء من العذر المخفّف إذا فاجأ زوجته أو إحدى أصوله أو فروعه أو أخواته مع آخر على فراش غير مشروع). وبحسب مراحل قانونيّة فإن القانون أعطى المشرّع سلطة القاضي إيقاع عقوبة جزائيّة على مرتكب الجريمة بموجب نصّ المادة (245) بعد تعديلها مع الأخذ بعين الاعتبار بالأسباب المخففة القانونيّة أو التقديريّة، لاغيًا بذٰلك العذرَ المُحِلّ الذي يلغي صفة الإجرام من الفعل ويجعله مبرّرًا.

وفي ما يتعلق بالمادة (242) فإنه، أي المشرّع، اعتبر مَن قتَلَ أو أصابَ بالجِراحِ، أو بأيّ فعل مؤذٍ ارتكبَ لدفع شخص دخَل، أو حاول الدخول ليلًا إلى منزلٍ آهل بالسكان أو بيتِ السكَن بتسلّق السياج أو الجدران أو المداخل، أو كسْرها، أو باستعمال مفاتيح مقلَّدة أو مصطنَعةٍ أو أدواتٍ خاصة، وإذا وقع الاعتداء نهارًا فلا يستفيد إلّا من العذر المُحِلّ، بعد أن كانت عذرًا مخفّفًا ليجعل فعله مبررًا وغير محرّم. =

= ويُذكر أن تعديل المادة (340) من قانون العقوبات سبقه العديدُ من المحاولات عبرَ السنوات الماضية لإلغاء المادّة أو تعديلها، إذ رد مجلس النواب السابق مشروع قانون يقضي بإلغاء المادة.

ولقد كانت المادة السابقة سيّئة السمعة والذكر، وتنصّ على ما يلي:

1. يستفيد من العذر المُحِلّ، من فاجأ زوجته أو إحدى محارمه حالَ التلبُس بالزنا مع شخص آخر وأقدم على قتلهما أو جَرحهما أو إيذائهما كليْهما أو أحدهما.

2. يستفيد مرتكب القتل أو الجرح أو الإيذاء من العذر المخفّف إذا فاجأ زوجه أو إحدى أصوله أو فروعه أو أخواته مع آخر على فراش غير مشروع.

وبسبب هٰذا النص القديم يتراخى قتلة الشرف وهم يرتكبون جرائمهم، وكانت القطاعات النسائيّة قد ناضلت طوال سنوات لإنجاز هٰذا التغيير القانوني، فيما رفضته غالبيّة ساحقة من قادة القبائل ووجهاء العشائر .

وبالتبديل الأخير تمّ استبدال العذر المحلِّل من المادة (340) بالسبب المخفّف حيث كانت المادة تنص قبل التعديل: يستفيد من العذر المحلّل مَن فاجأ زوجته أو إحدى محارمه حالَ التلبّس بالزنا مع شخص آخر وأقدم على قتلها أو جَرحها أو إيذائهما كليْهما أو أحدهما، كما يستفيد مرتكب القتل أو الجرح أو الإيذاء من العذر المخفف إذا فاجأ زوجته أو إحدى أصوله أو فروعه أو أخواته مع آخر على فراش غير مشروع .

والتعديل الجديد منح القاضي سلطة إيقاع عقوبة جزائية على مرتكب الجريمة بموجب نص المادة (340) بعد تعديلها مع الأخذ بعين الاعتبار بالأسباب المخفّفة القانونيّة أو التقديريّة، لاغيًا بذٰلك العذر المحلل الذي يُلغي صفة الإجرام عن الفعل ويجعله مبرّرًا.

ازدياد الجرائم:

وتشير إحصائيات صادرة عن جهات رسميّة إلى أن نِسَب جرائم الشرف في الأردن آخذة في التصاعد، ويصل المعدّل السنوي للجرائم الواقعة بدعوى الدفاع عن الشرف إلى حوالى 25 جريمة قتل.

من جانبٍ تشريعيّ، قامت الحكومة في عام 2001م بتعديل المادة (340) من قانون العقوبات التي كانت تتيح لمرتكبي جرائم القتل المرتبطة بقضايا الدفاع عن الشرف، الحصول على أحكام مخفّفة.

وفي الوقت نفسه شـعرت باللامبالاة لأنّ حزنها وسوء حالتها النفسيّة قد وجدا ملجأ في أيام عزاء الشـابّ، ومع أنها حاولتْ أن تُزيل همّها هناك لٰكنّها ظلّتْ تشعر بأنها ما تزال تُقتلَع من جذورها وتنحرف عن مسار حياتها، وهٰذا الانحراف يؤلم بصورة كبيرة لا تفهمها.

بدأ شـهر كانون الثاني وقد مرّ على لقائهما شـهران، والتواصلُ بينهما يتمّ عبرَ «الفيس بوك»، ومحتواه كلام وسـلام ونصائح متبادلة. أو بالأحرى كان علي يلعب دور الناصح، ويسـتمع إلى كل ما تقوله ندى ويحـاول توجيهَها وإحاطتَهـا باهتمامه على الرغم من انشـغاله الدائم في العمل.

بالنسـبة إلى ندى لم يكن هٰذا كافيًا، هناك خلـل! كانت تملك الكثير من الكلام ولم تسـتطع التوقـف عند ذٰلك، فهي تشـعر بأنّ عليًا هو سـبب ما تمـرّ به من تخبُّـط وفوضى، وكونها لا تسـتطيع التحدث في الموضوع مع أحد بدأتْ ترسـل له رسائل تُهاجمه فيها، تارةً تكرهه، وتارةً أخرى تحبُّه، ثُمَّ تلومُه وتشـكره، تبكي وتضحك، تصمُتُ وتفكّر... معه تعيش التناقضَ: الماء والنار، الأسود والأبيض، الليل والنهار... تشـعر أنها تحلّق بالتعبير عن كلّ ما يجول في عقلها من أفكار وقلبها من عواطف...

في أغلب الأوقات كان علي مسـتمعًا كريمًا يعطيها الفرص لكي تنهض من دون الاعتماد عليه، لٰكنه آذاها بأسلوبه هٰذا لأنه كان يعذبها كثيرًا فهو يعرف أنها تعلّقتْ به، وصمتُه يقتلها، وكان يرى ذٰلك، لٰكنه لم يكن يعـرف الرحمة حينها لأنه لم يكن شـديد التعلّـق بها بعد، فكانـت دائمًا تقول له: «لا تعرف كم أحبُّك، لـو عرفت لما فعلت ما تفعل.»

أمّا فـي أوقات أخرى فكان يقوم على تهدئتهـا والتعاطف معها، كان يربّت على كتفها ويشجّعها، وهٰذا كان يزيد من تعلّقها به.

لم يساعد شيء في إخراجها من الحزن لأنه تملَّكها فلم يعد يفارقها، فقد وجدت نصفَها الثاني، نصفها الذي لم تسعَ لتجدَه، ولم تبحثْ عنه ولم تكن حتى تفكّر فيه يومًا، قد وجدت بيتًا لروحها، لأنه مريح في التعامل، وهادئ ويبعث على الأمان، هو رجل ويعي معنى هٰذه الكلمة جيّدًا، هو حكيم ومتوازن، لذا كان يحتوي غضبَها بحنانٍ وبساطة، ويترك لها حرّيّة الكلام من دون أن يحكمَ عليها بسوء، كان يُصغي إليها ولم يتعامل معها بعاطفة قطّ، كان يتصرّف معها بعقل لأنها كانت فاقدة عقلها في ذٰلك الوقت. معه كانت تعرف مكانتها، بأنها الأنثى الأضعف، لٰكن مكانتها محفوظة واحترامها واضح، وهي بأمان تحت جَناحهِ فأحاديثهما كانت تروي مواقف حياة، والصفات الشخصيّة لكلٍّ منهما كانت عن العمل وشريك الحياة والأولاد، وعن البلاد وثوراتها، وعن الروتين اليومي، وتبادل النصيحة، والأهمّ كان السؤال والاطمئنان من أحدهما عن الآخر. لا شيء تعدّى حدود الاحترام. معه كانت تفعل كلَّ ما رفض زوجها فعله لها، الحديث والإصغاء، والنصح والتعزية، والتفهم والمشاركة، وتبادل الأفكار، وتبادل الحديث على المستوى نفسه.

استمرّت الأيّام ورجعتْ حياة ندى إلى الروتين السابق، إلّا أنّها بدتْ غائبةَ الذهن، حزينةَ المعالم، فاقدةَ الشهيّة، وبدتْ هزيلةً جدًّا، لم تعدْ على تواصلٍ مع أحد كما في السابق، لٰكن في ذٰلك اليوم بالذات، وفيما هي تصارع لترفعَ رأسَها لتسيرَ إلى الأمام اتصلت شقيقتها لتخبرَها بأنّ خالتَهما قد أُدخلَتْ المستشفى بسبب مرض السرطان الذي كانت تعاني منه منذ سنين، لكنْ، هٰذه المرّة، وضعُها لا يبشّر بالخير، وها قد بدأ مشوارُ حزنٍ جديد يعترضُ سَيْر تحسّن ندى.

بدأتْ تزورُها وترى عذابَها وهي تتلوّى وتصيح طالبةً الرحمة، كانت حالتُها تُبكيها وتزيد من تدهور الأوضاع، وصارت تفكّر بأنها

لا تريد العيشَ، ولا تريــدُ الحياة، ولا تريد أن تحــبّ أحدًا، فالحب يؤذي ويُؤلم، ولقــد وصلتْ إلى مرحلة عمريّــة متقدمة بحيث بدأت تفقد أشخاصًا أحبّتْهم، أشخاصًا كانوا معها منذ ولادتها كالخالة.

شــعور كبير بالألم أصبح ملازمًا لها، لم تفهم ما هو هٰذا الشيء الثقيل الذي بات يعيش في قلبها وعقلهــا، هناك خلل أصبح واضحًا الآن، فحزنهــا ليس عاديًّا، وانطواؤها وانعزالهــا عن العالم كان الأول من نوعه، وحتى عندما يرنّ هاتفها لا تردّ، ولا تُجيب أحدًا يطرق باب البيت عندما تكون وحدها.

وبما أنّ ندى وحيدة فــي حياتها على الرغم كثــرةِ أصدقائها لم تســتطع أن تشــاركَ أيًّا منهم ما يحصُل معها، فلجــأتْ إلى الإنترنت لتبحث عن إجابات ونجحت.

وكم تفاجأت بالنتيجة: هي مصابــة بالاكتئاب(*) !!! كلّ أعراض الاكتئــاب تنطبق عليها وخصوصًــا عدم رغبتها فــي العيش. تفاجأتْ

(*) **الاكتئاب**: عبارة عن مصطلح يُستخدم لوصف خليط من الحالات المرَضيّة أو غير المرَضيّة في الإنسان، والتي يتغلب عليها طابع الحزن. هناك أنواع متعدّدة من الاكتئاب قُسمت حسب طول فترة الحزن، وما إذا كان الحزن قد أثر في الحياة الاجتماعيّة والمهنيّة للفرد، وما إذا كان الحزنُ مصحوبًا بنوباتٍ من الابتهاج، إضافةً إلى نوبات الكآبة. لا يُعتبرُ الإنسان المخلوقَ الوحيد الذي يمكن أن يصابَ بالاكتئاب، بحيث تصاب فصيلةُ الثدييّات قاطبةً بالكآبة، وقد تمّ الاستدلال على هٰذه الحقيقة من خلال إجراء تجاربَ مخبريّة على الفأر والقرد. في الإنسان، يُصاب عادةً 20% من الإناث و12% من الذكور بنوبة من الكآبة في حياتهم على أقلّ تقدير. وهناك نسبة تكاد تكون ثابتةً في مختلف المجموعات البشريّة مفادها أنّ من 5% إلى 10% من الإناث و3% من الذكور مصابون بما يسمّى نوبة الاكتئاب الكبرى، وهٰذه نسبةٌ عاليةٌ جدًّا، ما يجعل نوبة الاكتئاب الكبرى من أكثر الأمراض النفسيّة شيوعًا.

كثيرًا، فهٰذه المرة الأولى التي تصـاب فيها بالاكتئاب، فهي لم تَخبرْه من قبل. إنها واقعيّـة وتتعامل مع الأمور بحزم وسـيطرة، ولا تُطلق العنان لمشاعرها أبدًا، بمفهومٍ آخرَ كانت امرأة حديديّة.

اكتشافها هٰذا جعلها تفسّـر كلّ التغيّرات التي تعيشها، وكلّ الألم الذي تشـعر به، والحزنَ الذي يسـيطر عليها، وبكاءهـا غير المبرّر، وابتعادها عن الطعام والنوم شبه المعدوم...

من هنا قرّرتْ أن تساعد نفسها، وتقف على قدميها من جديد، وتأخذ بِيَدِ ذاتها، وتستعيدَ قوّتها، وتُمسك بزمام أمورِ حياتها. حالتها صعبة، ومن البحث على الشـبكة الإلكترونية تبيّن أنها مسـتعصية جدًّا وبحاجة إلى أن ترى طبيبًا وتأخذ أدويـة لتعالج كيمياء الدماغ التي تُسـبّب لها الاكتئاب... لٰكنّ خوفهـا الاجتماعيّ من أن يكون الطبيب على معرفة بزوجها منعها من أن ترى أيّ طبيب، فأوّل كلمة ستسمعها في حال تسرُّب الخبر هي أنها مجنونة وتتعالج عند طبيب نفسـي. للأسـف هٰذه نظرة المجتمع لمن هو مُرهق نفسيًّا وبحاجة إلى العلاج.

أوّل قـرار كان يجب عليهـا اتخاذه هو أنها سـتتوقف عن زيارة الخالة في المستشـفى، ولأجلِ الصُدفـة كان ذٰلك اليـومُ هو ذكرى ميلادها. كان يومًـا حزينًا جدًّا، فقـد توجَّهتْ من مـكان عملها إلى المستشـفى ورأت الخالة في وضع صحّيٍّ متدهور جدًّا. كانت متألمة كثيرًا، وعندمـا رأت ندى أخذت يدَها، وشـدّت عليهـا، وأغمضت عينيْها، وبدأت دموعُها تنزل بصمتٍ حزين.

بكاء الخالة لم يكن بالعينينِ فقط، بل سـرى مـن خلال قَبضة يدها إلـى قلب ندى. مـرّت لحظات صعبـة الوصـف، ففيها روت الخالةُ القصصَ القديمةَ التي لم يعشـها معها سـوى نـدى، فذكَّرَتْها بعلاقتهما المميّزة، وصوّرت لها الفساتين الجميلة التي حاكتها لها في

الأعياد فبــدت الصوَر واضحةً، حتى إنّ رائحــة الورود والأزهار على الفســاتين كادت تعبق في غرفة المستشفى وتطغى على رائحة الأدوية والمعقّمات المتعارَف عليها في أروقة المستشــفيات، كما وشــاهدتْ الألعــابَ والكراتِ الصغيــرةَ الملوّنة التــي كانت تنبُع مــن حقيبتها العجيبة، والحلوى والسكاكر المغطّاة بطبقة من بودرة السكّر الأبيض المطحــون، وتذكّرتْ قصصًا كثيرةً فيها قطط صغيــرة تلعب وعصافيرُ تغرّد في الأقفاص وأشــجارٌ نديّة مُزهرة ومُثمــرة... ذكريات جميلة، وستبقى كذلك، فلا شيء سيغيّرها.

ودَّعَتْها ندى في ذاتهــا، وتمنّتْ لها الرحمــة، وتركتْها بين يدي المولــى، وذهبت وهي تــذرف دموعًا حارقة، لأنها تعــرف في قرارة نفسها أنّ الخالة لن تتحسّن ولن تعيش أكثر من أيام أو أسابيع قليلة.

مِن شــدّة حزن ندى وهي خارجة لم تجدْ المــكان الذي أوقفت فيه سيّارتها، بقيتْ تبحثُ وتمشي وتبحثُ إلى أن استسلمتْ وأوقفتْ سيّارةَ أجرة أوصلَتْها إلى البيت وكلُّها صمت.

كانت هٰذه أوّل خطوة تتخذها لمساعدة نفسِها على المضيّ قُدُمًا، وقد كان إنجازًا اعتبرتْ نفسَــها فيه أنانيّة جدًّا، لٰكن كان يجب عليها البدء بمساعدة نفسها...

أمّا عماد، في هٰذه الأثناء، فلم يلحظ أيّ تغيير أو حزن أو انطواء أو بكاء، كان لا يبالي، كان مرتاحًا لوجــود زوجته في البيت في كلّ الأوقات، هادئة مستسلمة لا تخاطب أحدًا، لا تمانع أيّ تصرُّف سلبيّ يصدُر من قِبَله أو من قِبَل الأولاد.

كم تمنّت لو أنه يقتربُ منها ويسألها: «ما بك؟»

لم يفعل!! كانت بحاجــة إليه وإلى دفئه وحنانــه، لٰكنه لم يكن ليلتفت إلّا إلى رغباته في الأوقات التي يختار...

في إحدى المرّات بينما كانت ندى بين أحضان عماد وتفكّر في علي وتصرخ في قلبِها وتقول: «ساعِدْني.» تفاجأت بعماد يمسكها من كتفيْها ويُبعدها عنه ويسألها بحزم: «ماذا قلت؟؟»

خافتْ، لم تنتبه إلى أنّ الكلمة خرجتْ من فمِها، فقالت بصوت خافت: «ساعِدْني لأرتاح، فأنا حزينة على الخالة» ثُمّ حضنَتْه وأجهشتْ للبكاء خوفًا وضعفًا واستسلامًا... صمتَ عماد وحضَنها.

وقال: «لقد نسيتُ كيف تبكين!!!» صحيح، ملاحظته في مكانها، فهي مُعتادة أن تخفي مشاعرَها عن الناس، ولا تضعف أمام أحد... أقلّه قبل أن تعرف عليًا.

تعلُّقها بعليّ يزداد يومًا بعد يوم، كان هو كلّ ما تريد في الدنيا، كانت تبحث عنهُ في كلّ مكان، في «الفيس بوك»، وفي رسائل الهاتف، وفي البريد الإلكتروني، أو عند ناصية الشارع لعلّه يظهر هنا أو هناك. أصابها هوس لتعرف أين هو ؟ وماذا يفعل؟ هل هو بخير؟ حيٌّ يُرزق؟ بدأت تلاحقُه وتشعر بأنها تخنقُه اهتمامًا وتقيّده حرصًا... إلا أنها لم ترجع يومًا إلى الصور التي وُزّعت عليهم في آخر يومِ تدريبٍ في مصر. هناك المئات من الصور وأغلبها جماعيّة لكنّها لا تجد في نفسها الفضولَ لرؤيتها لأنها لا تريد أن تتذكّر شيئًا عن تلك الأيام التي أوصلَتها إلى هنا.

وقرّرتْ أنها يجب أن تقطع علاقتها به، فهو لا يبدو مهتمًّا ولا يبادلها هٰذا الكمّ من المشاعر، لأنه هادئ ومتّزن وحكيم، وهي لا تستطيع أن تكون مثله، لا تستطيع أن تجاري هدوءه، وهو لا يستطيع أن يجاريَ اندفاعها، فهي ما زالت تتخبّط ولا تفهم ما يحصُل، وفي كلّ الأحوال، وتماشيًا مع خطّة التحسُّن التي وضعَتْها لتنقِذَ نفسَها، قرّرَتْ الانسحاب.

كتبتْ له خطابًا طالبةً فيه الانسحاب، خطابًا فيه حبّ، وخجل، وهجوم، ولوم، واحترام، وندم، أرسلتْه وكلُّها تردُّد وخوف، فهو قرار

يفوق قدرتَها علـى الالتزام به، ويفـوق قدْرتَها علـى التحمُّل أيضًا، أرسلته وهي واثقةٌ بأنها لن تسمع منه ردًّا، وأنهتْ الخطاب بقُبلةٍ على الرأس اعتذارًا واحترامًا وطلبًا بالسماح.

لم تمضِ سـاعة على إرسـالها الخطابَ حتى خاطبهـا متفاجئًا ومتعجبًـا من هٰذا التصرّف وهٰـذا الخطاب!!! ما الـذي يجري؟ قال لها مخاطبًا عبر الرسـائل في «الفيس بوك»، قائلًا بحزم إنّ هٰذا القرار خاطئ ومرفوض رفضًا قاطعًا، فلا يوجد سـبب لإنهاء كل هٰذا، وبدأ يردّ على هجومها واتهامها له «بأنه صائد الفرص» بحيث إنه اسـتغلّ ضعفها، ويسـتغلّه، ليبقيها ضمن مجموعة التـذكارات المفضّلة لديه. كانت ندى واثقة بأنه ليس مُسـتغلًّا، لٰكن من ضعفها كانت عشـوائيّة ومتسرّعة في كلامها وإصدار الأحكام...

ويبـدو أنّ وصفها له بصيّـاد الفرص قد آذاه وجرحـه، فقال لها مُدافعًا: «هٰذا أسـوأ وصـفٍ وُصِفتُ به في حياتـي، الله يعلم كم أني أتعامل معكِ باحترام وحرْص!»

أمّا ما تفاجـأت به ندى فهـو ردّة فعلها من نفسـها. لم تحتمل أن تسـمع منه أيّ ملامة، ولم تحتمل أن تكون سـبب ألم له. بدأت بالتراجع والندم حتى إنها توسَّـلتْ إليه للتوقّف عن الملامة، ورجَتْهُ مبرِّرة أنها تحبُّـه كثيرًا ولا تحتمل أن تؤذِيَهُ بحـرف، وانهارت باكية. تفاجأ علي من كلمات التوسّل وطلب منها التوقف عن استخدام هٰذه اللغة البائسـة كما أسـماها، وفهمَ وضْعَها، وتخطّى الموقفَ بسـرعة لأجلها، وطمأنها إلى أنه بخير، ولم يحدثْ أيّ ضرر، وبدا متماسـكًا من خلال حديثه الكتابي معها.

إذًا هو مصرٌّ على أن تكون ندى في حياته، وهي أضعف من أن تنسحب، والبقاء على العلاقة يقتلها، لا خيار ولا تراجع. حبُّه يقتلها ويعذّبها ببطء شديد. لا تستطيع أن تكون معه بأيّ طريقة، كان يجب

عليها التعايــش مع حياتها الجديدة غيرَ مدركــة حجم العذاب الذي بدأ يغزو حياتهــا، لٰكنها أصبحت تعرفه أكثر مــن خلال ردّات فعله لمواقف التسرُّع والهجوم التي كانت تشنّها عليه بين الحين والآخر، فقد حافظ على التوازن في التعامــل معها، والردّ عليها بهدوء وقلب طيّب كلُّه رجولة ونصح.

تحبّه!!!!!!

فهي في النهاية حوّاء، تريد العاطفة والحنان والاهتمام والدفء، تريد سيْلًا مفتوحًا من المشــاعر، تريد وقت آدمَ وعقلَهُ، تريد امتلاكه وحبْسَه في حصنٍ اسمُه «قلبها». حوّاء تحبّ الاستحواذ على الرجل، تريــده لها مهما كانــت ثقتها به كبيــرة لٰكن لا شــيء يكفيها، فهي دائمًا تريــد المزيد، ودائمًا تطالبه بالجديــد، الجديد في الحب، وفي الاهتمام، وفي التواصل، وفــي الحميميّة. وعلى أرض الواقع: هي لا تبوح بما يدور في خلدها، فحوّاء الشــرقيّة لا تســتطيع أن تعبّر عن رغبتها في كثير من الأحيان بســبب حاجز الخوف والعيب والحرام، إنها تخاف من الرجل، وخوفها هٰذا نشأ نتيجة تربيتها، تخافُه وترهب غضبَه، تخاف أن يســتهزئ بطلبها، أن يلبّي رغباتِها الماديّة والمعنويّة والجسديّة، وتخاف أن يرى في ذٰلك انفتاحًا غيرَ مسبوق بالنسبة إلى امرأة شــرقيّة، ثم يبدأ بســؤالها من أين لك هٰذه الأفكار؟ مَن علَّمكِ إيّاها؟ ويبدأ مسلســلُ الشــكّ والتخوين في التعامل. أمّا العيب، فهو في حال طلبتْ منه أن يلبّي رغبتَها من مشــاعرَ وعواطفَ، وخصوصًا الجنســيّة الحميميّة، فإذا طلبتْ فهــو بالتأكيد ســيُظهر انزعاجه من الموضوع بأنّ رغبتها هٰــذه يمكن أن تتطوّر وتــزداد، وذلك قد يؤثّر فيه مــن نواحٍ كثيرة، مع العلــم أن آدم لو فكر قليــلًا في الموضوع، وسار في الطريق مُلبّيًا رغبات زوجته، لســارت حياتُه بشكلٍ أفضل، ولوجدَ أنه مستمتعٌ بقضاء الوقت معها، وأوّلُ شيء سيتغيّر: أنّ فجوةَ

التضادّ بينهما ستضمحلّ، وهو بتصرّفه هٰذا قد رفع من شأنها وجعلها صديقة، ومن ثَمَّ اكتسب احترامها له ـ لا خوفها منه ـ والذي بدوره ينعكس على بقية أفراد العائلة النَّواة، أو الممتدّة بشكل إيجابيّ وقويّ. ولو جرّب أيضًا أن يلبّي حاجة زوجته الحميمة فسيجد أنّ رجولتَه قد اكتملت فعليًّا، وأنه قد اكتسب وُدَّ زوجته وحبَّها، وجعلها تثق به، ويكون بذٰلك قد نجح في رسم البسمة على شفتيها فصارتْ مصدر إشراق في البيت وأركانه.

ولو فكر آدم أيضًا لوجد أنه قد كسب حليفًا في الحياة، ووسادة مريحة يلجأ إليها وقت التعب، فما عليه سوى أن يزرع ليحصد، عليه أن يعلّم زوجته أن لا تخافه، وأن تثق به، عليه أن يحبّها لتتشجَّع وتُظهرَ حبّها له، لا أن تخجل منه. بالمقابل، على الزوجة أن تتعلّم الإصغاء لرَجُلِها وأن تلبّيَ رغباتِه من دون حساب وكبرياء، فهي تركت بيت أهلها للالتصاق بزوجها، وتتوقع أن يكون هو كلَّ عالمِها، والرجل الذكيّ يستغلّ هٰذه النقطة، ويجعل من نفسه عالَمَ زوجته.

أمّا على أرض الواقع، فعلي ليس زوجها، ولا تستطيع أن تفرض عليه الأوامر أو تطلب منه شيئًا، ليس هناك ما تستطيع قوله، فعلاقتهما «محرّمة» من جميع الاتجاهات، فقد بدأت منتهية. لذا كان عليها الانسحاب في الوقت الذي كانت تشعر بأنها تستطيع فعل ذٰلك... لٰكنّ عليًّا تمسّك بها ولم يدعْها تذهب، وموقفُه هٰذا كان سيفًا ذا حدَّين بالنسبة إليها، الأول أنها تحبّه وما زالت تغرق في حبّه لأنه أوّلُ إنسان تعرفه يُعاملها كما تستحقّ، ولأنه أوّلُ إنسان تعرفه وتشعُر معه بالأمان من دون أن تعرفَ عنه شيئًا. أمّا الحدُّ الثاني فهو أنها أصبحتْ مدركة الآن أنها مُقبلة على عذاب كبير، والذي فاق تصوُّرَها لاحقًا.

بدأ الاتصال بينهما يزداد، وبدأتْ تتعرّفه أكثر، وتكتشف فيه خصالًا جديدة كلَّ يوم، وأول شيء شعرت به: قسوته، أجل هو رجل

قاسٍ ولا يُظهر عواطفه، وعرفتْ ندى أنّ سبب هٰذه القسوة يعود إلى ألم سابق وحياة صعبة عاشها، فهو في هٰذا يشبهها. استخدم قسوتَهُ كدرعٍ حمايةً لنفسه، كما وجدتْ فيه الرجلَ الكَتومَ جدًّا الذي لا يثق بالناس كثيرًا، وأنه صارم، ومهذّب، ولطيف، ومسؤول، ويحبّ بيته، ويؤمنُ بقضاء الله وقدره.

كان التواصلُ بينهما مؤلمًا جدًّا بالنسبة إلى ندى، فهي غير مرتاحة أبدًا، وغير مستقرّة نفسيًّا وعاطفيًّا، إنها تزداد تعلّقًا به يومًا بعد يوم، وتتألم كثيرًا، وما تزال تسبح عكس التيّار لأنها لا تريد الاستمرار، وفي منتصف الطريق تتعب من السباحة فيجرفها التيار مرّةً أخرى، وهٰكذا هي مستمرّة على الدورانِ داخل دائرةٍ من التعب والعذاب.

لم تستطع ندى أن تحملَ هٰذا الوضعَ وحدها، كونها لم تخبرْ أحدًا بما تمرّ به حتى الآن. ولاحظ الجميع أنها ليست على ما يرام، كانت تبحث عن ملجأ آمن لعلّها تجد مَن يساعدها على الوقوف والسَّيْر، وفعلًا وصلتْ إلى مرحلة من الإرهاق بحيث لم تستطع النهوض صباحًا والوقوف على قدميْها، فقواها خائرة، وعلى الرغم من أنها تعيش مع عماد إلا أنه لم يلتفت إلى التغيّر الذي تعيشه، ولم يبالِ بالانعزال والانطواء «ما دامت غريزتُه تُشبَع منها»، وهي لم تكن تملك القدرة على النقاش والمقاومة أو عدم الانصياع.

نظرتْ، وبحثت في الناس مِن حولها، فوجدتْ صديقتَها في العمل «ختام»، سيّدة قديرة ومحتَرمة، وتملك من خبرات الحياة ما يكفي لتُخرّج أجيالًا، سيّدة تكبر ندى بثلاثة عشر عامًا، هي رفيقتها منذ سنين طويلة، تعرف قصة حياة ندى الأليمة، فكثيرًا ما كانت تأتيها ندى وكلُّها رضوضٌ وإصابات، فتسرع لإحضار الكِمادات الباردة لمعالجة تلك الرضوض والإصابات في حمّام الشركة وتُهدئ من روعها نفسيًّا، كانت بلسمًا بالنسبة إليها، تصبّرها، وتنصحها، وتعمل

على تهدئتها وتسدّد خطاها إلى الخير، كانت بمثابةِ أمٍّ وصديقة وأخت وملجأ أمان... كانت تأخذ بيدها في أحلك أوقات حياتها.

ومن المواقف المضحكة المبكية، أنّ نـــدى أتت إلى ختام ذات صباح وكتفُها مصابةٌ وفكُّها أزرقُ اللون جرّاء ما جادت به نفسُ عماد من ذكورة. قامت ختام مســـرعة بإحضار العلاج الســـريع واللازم لأن ندى على وشك الخروج لإلقاء محاضرة في مؤسسة حكومية، تمّ كلُّ شيء بســـرعة، وخرجت ندى إلى المؤسســـةِ ووجدت أجمل استقبال وترحيب، وأُجلست إلى طاولة مقابِلة للحضور وأمامها باقةُ ورد تليق بوزير... بدأت بإعطاء المحاضرة، والمفارقة كانت أنَّ جميع الحضور كانوا رجالًا، وكلُّهم آذانٌ صاغية لما تقول: «وهٰذه الصورة جعلت ندى تفكر كيف هي الآن قائدة وســيّدة ومُحاضِرة وضيفة شـــرف ومحور ارتكاز الحدث، وكيف أنهـــا كانت كخُرقةٍ باليةٍ لمســـح الأرض قبل ساعات قليلة من الآن.»

كانت ختام الأقرب إليها والأكثر ائتمانًا على حياتها وأســـرارها، والأهـــمّ أنها تعـــرف متى تســـدي النصيحـــة وتقدّم الخدمـــة، ومتى تتعاطف، ومتى تضع الحدود وتقضي الأمور. امرأة حازمة بكلّ ما في الكلمة من معنى.

تردّدَت ندى كثيرًا خوفًـــا واحترامًا، لٰكنها فـــي النهاية قرَّرتْ أن تلجأ إليها للمســـاعدة وحســـن النصيحة، فهي لم تعد تفكّر بشـــكلٍ مستقيم، الحبّ أعماها، والعذابُ يفتك بها ليل نهار، ولم تعد تستطيع فِعْلَ شيء بشكلٍ سويّ فالانكسار لا يرحم.

نادتْها خلال فترة الاســـتراحة في مكان العمـــل، واختلت بها في غرفة اجتماعات صغيرة تتســـع لأربعة أشـــخاص، غرفـــة فيها خزائنُ ممتلئة بالكتب على رُفوف، تبدو كمكتبة، غرفة دافئة وهادئة وملائمة جدًّا للأحاديث الخاصة.

جلستْ ختام وجلستْ ندى مقابِلها، قالت لها: «هناك أمر أودّ التحدُّثَ معكِ فيه، وقبل كلّ شيء أريدُكِ أن تعرفي أني بحاجة إليك معي.»

تردّدتْ ندى لحظاتٍ وتنهّدَتْ بألم، فهٰذا الموضوع حسّاس جدًّا، وخافت من ردّة فعلِ ختام بعدم تقبُّله، وأن تفقد صداقتُهما الأمان والاحترام.

لٰكنّها توكّلتْ على الله وبدأت بسرد القصّة، وبدأ البكاء المرّ المصاحب لحديثها يصوّر أقتمَ التفاصيل وأكثرَ مواقف حياتها ألمًا... فبينما كانت ندى تتحدّث كانت تدرك حجم الورطة التي تعيشُها، كانت تسمع كلامًا يخرُج من فمها لأوّل مرة. سمعتْ صوتَها يقطرُ ألمًا. وكانت تتفاجأ!! مَن ذا الذي يتحدّث؟ وما حجم هٰذا البلاء! وكلّما تحدثتْ كانت تختنقُ وتنهار أكثر، فهي أخفتْ سرَّها ثلاثة أشهر... أجل مضت ثلاثة أشهر منذ أن عرفت عليًّا والعذاب في ازدياد.

في تلك الأثناء كانت ختام تنظر إلى ندى وكلُّها استغراب وتساؤل: «مَن هٰذه التي أمامي؟»... «من أنتِ؟ وماذا تقولين؟؟ أنتِ وقعتِ في الحُبّ؟؟ أنتِ ندى واقعة في الحب؟؟»

صمتت ختام لحظاتٍ وبدتْ في حيرة، لٰكنّها قالت: «منذ رجوعِك من السفر، انتبهت إلى أنّ نظرةَ عينيْك تبدو مختلفةً، فقد كان هناك وهجٌ في عينيكِ، ومع مرور الوقت تحوّل الوهج إلى حزن وانكسار. كانت عيناكِ تسرُدان قصصًا، وبدوتِ معذّبة، فلم تقولي شيئًا، ولم تقتربي مني. خلال هٰذه الفترة، عرفتُ إنكِ لستِ بخير، لٰكني كتمتُ في قلبي إلى هٰذه اللحظة، فأنتِ لم تعودي ندى التي أعرف! هنالك شيء كبير يهزُّك، وأنا أعرفك جيّدًا، ليس أيّ شيء يهزُّك، والآن ها أنتِ تخبرينني ما كنتُ أشكّ في حقيقته، لكنّكِ أكدتِ لي أنّ شكوكي صحيحة.»

ثُمّ أكملتْ: «لا أعرف ماذا أقول!!! لم أعد أعرفُك!!»

بكت ندى متوسّـــلة: «أرجوكِ افهميني... أرجوكِ انتظري...» ولم تستطِع إكمالَ حديثها، فهي مختنقة وجسدها خائر القوى، إنها معذّبة ولا حول لهـــا ولا قوة. وختام ملجأها الوحيد، وهي ليســـت في حال لتفقد هٰذا الملجأ الآن.

لٰكن ختام، وفي قرارة نفســـها، وعلى الرغم من القناع القاســـي الذي وضعتْه أمام ندى قرّرت أن تســـخِّر نفسَـــها لإخـــراج ندى من هٰذا البلاء، وأنها لـــن تتخلّى عنها أبدًا، فقد عرفـــت في ندى المرأة الحديديَّة والفولاذية... عرفت كـــم هي معطاءة، وجارفة في عواطفها ومخلصة في صداقتها، فبينهما رابط قويٌّ وعِشـــرة عمرٍ طويلة. هما امرأتان. والتشابُه بينهما كبير. لٰكن في الوضع الراهن كانت الكلمات تعجز عن وصف حال ندى، فصورتها التي تراها الآن جديدة عليها، ولم يســـبق أن رأتها في هٰذه الحال على الرغم من صعوبة الظروف التي سبق ومرّت بها.

كان على ختام أن تســـيطر على الوضـــع الآن فهما ما تزالان في العمل، والاســـتراحة على وشـــك الانتهاء. طلبت منها ختام الذهاب للاغتســـال لأن معالمَ البكاء والتعب أصبحت واضحة جدًّا عليها، ولا تريد لفت الانتباه إلى ما دار بينهما من حديث.

اســـتمرّت الأيام، وبقيت ختـــام مطّلعة على حال نـــدى، وظلّت تناقشها، وتنصحها، وترشدها، وتغذّيها أحيانًا، وتقدّم لها عصائرَ حتى لا تفقدَ قواها الجسديّة التي باتت تاريخًا قديمًا. ولم تُخفِ ختام عدم حبّها لعلي، فهي لا تحبّ مـــا يفعل في حياة ندى، ولأنها لا تحبّ أن تراها مبتلاةً وضعيفة و... فهي لا تحبّـــه... وبدأتْ تطبع هٰذه الصورة في عقل ندى لتنسحب من حياته مرّةً ثانية.

فما رأته ختام هو أنّ ندى تعتاشُ من الحياة التي في الهواء فقط،

وهـــي لا تحيا إلّا لأنّ هناك يـــدًا ربّانيّة تحميها، وهٰـــذه نعمة لم يرها أحد، فالله لَطَف بها وكان سندَها الوحيد.

استمرت الأيام، وبدأ الانهيار الحادّ يظهر على ندى، وبدأت ختام ترتبك، فالوضع أكبر مـــن تصوّرها. وبدأت الأمـــور تخرُج من يدها. كانـــت تراها كطفل رضيع مثير للشـــفقة أحيانًا، وأحيانًـــا أخرى تراها تتخبّط شمالًا ويمينًا وتهوي في هاوية العذاب، وكأنها تُصعق بالبرق، ومِن ثمَّ تُرمى على الأرض خائرة القوى. ألمُها شديد لا يوصف، وما أصعبَ هٰذا المنظر...! «أدعو ربي أن يَشـــفِيَكِ» هٰذا ما قالتْه لها وهي تمسح بيدها على شعر ندى المنهارة على قدميها تبكي وتتلوى.

كانت نـــدى بعينيْها الواســـعتين، وقوامِها الجميل، تلفـــتُ انتباهَ الرجـــال، ويتهافتون مـــن حولها عندما تمشـــي، وكانـــت ختام ترى الحيطان تتمايل معها وترقص من شـــدّة تأثير ســـحرها في المحيط... حالها اختلف الآن، حالهـــا يُبكي الحيطان ويهدُّهـــا تعبًا. ونظرة ندى إلى الرجال لم تتعدّ كونهم كائنات بشريّة لا أكثر. ولٰكن علي كان غير ذٰلك.

كانـــت ختام في حيرة شـــديدة من أمرها: ها هي تـــرى صديقتَها تتوارى ألمًا وعذابًا، ولا تســـتطيع أن تســـاعدها. فحبُّها لعلي يسيطر على قلبها وعقلها. عذابُ حبّها يزداد، فندى عاشت حياةَ عذاب وهي مُطلّعة عليها، كمـــا أنّ لها خبرةَ حياةٍ طويلة، لٰكنّهـــا لم ترَ في حياتها عذابًا وألمًا ومرارةً بهذا الكمّ والشـــكل. ولم تعد تستطيع احتمال ما تراه. ألم ندى صـــار يزحف إليها وهي غير مســـتعدّة لكل هٰذا. إنّ ما تعيشُه الآن كانت تراه في الأفلام وتسمعُه من القصص المَرْويّة، أمّا أن يكون أمام ناظريْها... فقد بدأ ذٰلك يخيفها.

عجزت ختام عـــن وصف الصورة، لٰكنها تـــرى بوضوح أنّ ندى تعيش عذابًا لا يوصف من مريض أو عليل.

الانهيارات غيـر معقولة، والبـكاء أليم والدمع كان دمًا يرسـم الحزن والانكسـار على خدَّيْها الهزيلين، كانت ختام تحاول أن تكون بلسـمًا لذٰلك العذاب، ومن شـدّة غيرتها عليها كانـت أحيانًا تنهَرُها لتنهضَ وتسـتندَ على قدميها على الرغم من أنها على يقين بأنّ ندى كانت تتنفّس شـوكًا لأنها كانـت دائمًا تكرّر: «النفَـس يؤلم.» وتضعُ يدَها على صدرِها علّ الألم يهدأ. وأحيانًا كانت ختام تقول لندى: «إذا بقيتِ على هٰذه الحال فسـتصابين بالعمى وتفقدين بصرك.» وتصرخ في وجهها: «كفى!»

لٰكنّ هٰذا الكـمَّ الكبير من الحب لم تفهمـه ختام؟!!! فهو ليس حبًّا، إنه ابتلاء وقهر وضعف، إنه تمزُّق وتشتُّت لا دواء له ولا علاج، فالرجل بعيد ومتـزوج، وهي أيضًا متزوجة وعندهـا أطفال. ولا أمل بنسبةِ واحد بالمئة أن تنجح العلاقة بينهما...

إنه تَعَبٌ حتـى ينتهيَ التعب. إنه ألم حتـى ينتهيَ الألم، ومرارة حتى تنتهيَ المرارة. وفـي هٰذه اللحظات لو وقـف العالَمُ أمامها لَما استطاع ردعَها عن تغيير موقفها من الحب.

«فأن تعيش ندى هٰذه التجربة وتنجو منها، فذلك فقط بحماية الله وإرادة منه.» فكَّرتْ ختام، وتحدثتْ إلى نـدى وقالت لها: «يا بنيّتي، أنا أراكِ تموتين، ولن تعودي إلى سـابقِ عهـدِك حتى لو قطعتِ هٰذه الدربَ القاسـية، وما في عينيـكِ يعكس نظراتِـك الضائعة، وصورةَ الصبيّة الحائرة، والمرأة الشـاردة، والطفلة المعذّبة، فأصبحتِ تُبكين الحجرَ، وصرتِ لعبـةَ القدر، وحياتُك غدت أوراقَ شـجرة تهبُّ في خريفٍ أبْكَى الوتر...

يجـب أن تبتعدي عن علي. يجـب أن تبتعدي عـن هٰذا البلاء. يكفـي! فأنا متأكـدة أنه على مـا يُـرام، ولا يعاني كمـا تُعانين. إنّه قويّ، والدليل أنه لا يسـعى إليك بالطريقة نفسـها التي تسعين أنت

إليه فيها. استيقظي وانظري إلى نفسِــك، أنت أمٌّ ولديكِ أولاد، وهم بحاجة إليك، يريدونك، يريدون صحَّتَك، وابتسامتَكِ وإشراقَتَك داخل البيت. كفى خداعًا لهم وتصنّعًا للبسمة، يكفيكِ التعذُّرُ بأمراضِ وجعِ الرأس والتعب لتختفي في غرفتك. أطفالك ليسوا بحاجة إلى الطعام والشــراب وبيتٍ نظيفٍ إذا كنتِ تعتقدين بأنــك تفعلينَ واجبك كأمّ. استيقظي، ولا تحرمي الأولادَ أُمَّهم... استيقظي...»

هٰذا أقلّ ما كانت تستطيع ختام قوله لندى لتستيقظ وتبدأ الوقوف على قدميها والســير في حياتها من جديد. لٰكن ختام تعرف جيّدًا أنّ ما يحصُل لندى ليس مجرَّد عثرة في الطريق أو نزوة عابرة، لا... هٰذا تغيير مصير، وهناك حياة على المحكّ.

بقيت ختام تشــدّ على يد ندى، وتحفزها أحيانًا وتمارس الضغط عليها أحيانًا أخرى، لتخرُج من هٰذه العلاقة القاتلة غيرِ المتكافئة. إلى أن اقتنعت ندى جزئيًّا بأنّ عليها الانسحاب من حياة علي.

أدركت ندى أنها تقف على مفترق طرق، وفي نهاية الطريقين هي تواجه موتًا محتومًا. إذا استمرّت، فهي ستبقى معذبةً مدى الحياة إلى أن ينتهيَ أجلُها، والطريق الثانية هــي أن تُنهيَ الأمورَ الآن، وتختصرَ العذابَ، وتموت ســريعًا، وتعــودَ إلى وضعِ الجثّة التــي تتنفَّسُ كما كانت قبل لقائها بعلي.

وافقــتْ بصعوبة، وافقتْ تحــت الضغط، وافقت مُجبَــرةً وكلُّها ضعف وخيبــة في ذاتهــا لخيانتها قلبَهــا... فهي تحبّه ولا تســتطيع الكلمات وصف حبّها له... لٰكنه لا يعرف كلّ ما يدور، فكلّ ما يعرفه أنها تحبّه وتُعاني، وأنَّ الزمنَ كفيلٌ بأن تتغيَّر إلى الأحسن متّكلًا على أحداثِ القدر في ذٰلك. لم يدرك أنّها صادقة وشفّافة في كلّ مشاعرِها تجاهَهُ ولا تريد منه شــيئًا، وما لم يقصِده هو أنَّ لُطْفه وحرصَه عليها كانا يقرّبانها منه. كان يحبّها على طريقته، فقد شاهد فيها ما لم يشاهده

في غيرها. هي تختلف عــن البقيّة في روحها وشــكلها، تختلف في ردّات فعلها، وتختلف بقوّتها وجرأتها. امرأة قويّة، هٰذا ما لفت انتباهه الأوّل، بالإضافة إلى عينيْها المميّزتَين بنظرتِهما العميقة.

كانت مصدر بســمةٍ بيــن المجموعة خــلال التدريــب، كانت اجتماعيّةً ومندمجةً مع الجميع من دون اســتثناء. كانت لطيفة وتشعّ طاقة. كانت منفتحة ومرِنة في النقاش، وتقبل الآخَر. صفاتٌ بســيطة، لٰكنها لفتت انتباهه وجعلتْها محورَ قاعةِ التدريب بالنسبة إليه. والأهمّ قوّتها كامرأة.

بدأت تكتب له خطابًا، وكان شــعورها بأنها تحكُم على نفســها بالموت. أرســلَت الخطــابَ ودخلتْ في دائرة حــزنٍ وعذاب يفوقان احتمالها، وبقي عندها أمل أن يتمسّــك بها تمامًــا كما فعل في المرة الأولى...

وفعلًا، أبدى اســتياءه، وفي الوقت نفســه تفهُّمَــه، وأظهر حنانًا وعطفًا، وبدا أقرب وأهدأ. جذبها بكلام قليل... كلام عاديّ يخلو من العذوبة والعاطفة الجيّاشــة، ويختلف عن أيّ كلام متداوَل ما بين أيّ اثنين جمعتْهما علاقة. كلام واقعيّ.

فقد قال لها: «لماذا لا تدَعي القدر يأخذ مجراه بيننا؟»

وأعاد ما يقولــه دائمًا: «ماذا نفعــل؟ هٰذه حكمــة الله. وهٰذا هو قدرنا.» «لا أُحبّ أن أســمع أنكِ تعِبة ولســتِ على ما يرام. تماسكي وابقَيْ قويّة كما عهْدتُك دائمًا.»

ولم تقف الأمور عند هٰــذا الحدّ، بل التهبت المشــاعر، وكانت بينهما أول مكالمة هاتفيّة اســتمرت تســع دقائق. استغرب كلٌّ منهما نبرة صوت الآخَــر. فهٰذه المرة الأولــى التي يتمّ فيهــا التواصل عبر الهاتف، وهو أوّل تواصل فعليّ بعد الفراق.

تحدّثــا معًا وبــدا الارتباك واضحًــا خصوصًا فــي صوت ندى. دقّات قلبها كانت تخفق كأنها على مســمعٍ من العالَم، وكانت تشوّش عليها سماعَ صوته. بدأتْ التحيّة بخجل وصوتٍ خافت، كانت خائفة ومتوتّرة. فهي ليســت خبيرة علاقات ولا تعــرف كيف تبدأ الحديث. مشاعرُها أقوى منها، تسيطر عليها، لا تستطيعُ مقاومتَها، لذا تركتْ له القيادة في الحديث مع الكثير من التحفُّظ والانضباط.

ولهجتهما تختلــف الواحدة منهمــا عن الأخرى، فقــد كان من الصعــب عليهمــا فهم بعــض الكلمات في مــا بينهما بســهولة لأن التواصل عادةً يتمُّ كتابةً وباللغة العربية الفصحى، فهما يملكان الكثير من العوامل والصفات المشــترَكة، ومنها حبُّهما للغة العربيّة، وكذلك إتقانُهما لها هو إحدى تلك الصفات.

ولٰكنهما اســتطاعا تبادُلَ التحيّة والاطمئنان كلٌّ عن الآخَر، وفي النهاية اســتطاع أن يقولَ لها بوضوح بأنْ تهدأ، ولا تتسرّع وتنسحب، لأنّ ما بينهما مميّز، وأصرّ بقوله إنها إنســانة مميّزة ولن يتخلّى عنها أبدًا. قال: «لن أتخلّى عنكِ، وليس بهٰذه السهولة.»

وطبعًا، ولأنّ هٰذه هي الكلمات التي كانت تنتظرُ سَماعَها وجاءت في الوقت المناســب، تخلّت عن كلّ أفكارها في إنهاء العلاقة، والتي بحدّ ذاتها ليست علاقةً أرضيّة أو جسديّة أو ماديّة. وعلى الرغم من أنها تصف نفسها بالعقلانيّة عند اتخاذها خطوات في حياتها، ها هي الآن لا تعرف ماذا تفعل، ومَن هي هٰذه الإنسانة التي تتّخذ عنها القرارات.

انتهت المكالمة وهــدأت ندى قليلًا ولو مؤقتًا. أقلّه اســتطاعت الابتســام ومســحت الدموع. تمامًا كطفلة صغيرة توقَّفــت عن البكاء لمجرد أن أُعطيَت الحلوى.

شــرحت الموقف لختام، وعلى الرغم من أنهــا أبدت امتعاضها

مما حصل، إلا أنّها أظهرتْ تفهُّمًا وتقبّلًا، وكأنها كانت على يقينٍ بأنّ ابتعادها عن علي سيكون دمارًا ومزيدًا من الألم والعذاب لها، وقرْبه أهونُ العذابين.

لم تتحسّن الحال بالنسبة إلى ندى، فقد بدأت تعاني الفرق الذي بات واضحًا في التعامل بينها وبين زوجها، وبينها وبين علي. شتّان ما بينهما في التواصل والاحترام! الفجوة كبيرة على كلّ الصُّعُد إلا على صعيد العلاقة الجنسيّة في ما بينهما. فزوجها يمارس حقّه على أكمل وجه، وهي بدأت تمانع وتختلق الأعذار لإبعاده عنها، ولٰكن مهما حاولت، في النهاية ستنتهي الأعذار، وهو بدوره لا يضغط، لٰكنه يقترب، وهي زوجته، ولم يسبق أن أهانتْه أو استخدمت قربه وسيلةً للوصول إلى شيء تبتغيه، أو أنها استخدمت جسدها للسيطرة على رجُلها. لا، هي لا تفعل ذٰلك أبدًا. وباتت تعرف جيّدًا أنْ ممارسة الجنس ممارسة غرزيّة بحتة، وكلّ ما تحتاجه جسدين، ذكرًا وأنثى. لٰكن الجديد في الساحة هو ظهور مارد يُدعى «المشاعر». مشاعر ندى تفجّرتْ، ولم تعد تستطيع أن تمارس الجنس. أصبحتْ ترى بوضوح أنّ هٰذا النوع من العلاقات هو شيء خالٍ وفارغ، ومؤلم أحيانًا. مؤلم لأنها لا تريد أن تكون هنا في السرير مع زوجها... لا تريد أن تكون في أيّ مكان مع أيّ شخص. وأصبح المارد يتوسط سريرَها، ويجعل دموعَها تنهمر بصمت وخفيَةً، وقلبها يصيح، وعقلها لا حول له ولا قوّة إلى أن تنطفئ رغبةُ الجسد وتهدأ بانتظار ثَوَران جديد.

كان عليها أن تتماسك... كان عليها أن تتصنّع الحياة، كان عليها أن تُكابر وتجرّ نفسها جرًّا لتستمرّ وتسيرَ على دربِ عذاب لم تنتظرْه أو تعرف عنه شيئًا، درب بدأ يطول ويزيدها تعبًا واستسلامًا.

وفي يومٍ من الأيام، وبينما هي تتحدّث مع علي من خلال الإنترنت، قال لها:

«أتعرفين! فيكِ شـــيء لا أستطيع وصْفه. لٰكن أُرسل لك القصيدة التاليـــة ففيها ما أريد قوله...» وأرســـل قصيدة الشـــاعر أبي القاســـم الشابّي(*) التي وضعت ندى بصمت وحيرة لساعات...

عـذبةٌ أنـــتِ كـالطفولةِ، كالأحـ ... لامِ، كـاللحنِ، كـالصباحِ الجديدِ
كالسَّماءِ الضَّحُوكِ، كاللَّيلَةِ القَمْراءِ ... كـالـــوردِ، كـابتسـامِ الـوليـدِ
يـا لـها مِـــنْ وَداعـــةٍ وجـمالٍ ... وشَـــبـابٍ مُـنـعَّـمٍ أُمْلُـــودِ
يـا لـها مِن طهارةٍ تبعثُ التَّقديـ ... سَ فـي مُـهجَةِ الـشَّـقيِّ العنيدِ

يـا لـهـــا رقَّـةً تَـكادُ يَـرفُّ الوَرْ ... دُ مـنها فـي الـصَّخْـرَةِ الجُلْمودِ
أَيُّ شـيءٍ تُراكِ؟ هلْ أَنْتِ فينيسُ ... تَـهادتْ بَـيْنَ الـوَرَى مِنْ جديدِ
لـتُعيدَ الـشَّـبابَ والفرحَ المعسو ... لَ لـلـعالَـمِ الـتَّعيـسِ الـعميـدِ
أَمْ مـلاكُ الفِردوْسِ جاءَ إلى الأَر ... ضِ لـيُحييَ روحَ السَّلامِ العهيدِ
أَنـتِ مَـا أَنتِ! أَنْتِ رسمٌ جميلٌ ... عـبقـريٌّ مـن فـنِّ هٰـذا الوُجودِ
فـيكِ مَا فيـهِ من غموضٍ وعُمْقٍ ... وجَـمـــالٍ مـقَـدَّسٍ مـعبـودِ
أنتِ ما أنتِ! أَنتِ فجرٌ من السّحرِ ... تـجـلَّـــى لـقـلـبـيَ الـمـعمـودِ
فـأراهُ الـحَياةَ فـي مُونِقِ الحُسْنِ ... وجـلّـــى لـــه خـفـايـا الـخُلودِ

أَنـــتِ روحُ الـرَّبيـــعِ تـختالُ فـ ... ي الـدُّنيا فتهتـزُّ رائعاتُ الورودِ

(*) **الشاعر التونسي أبو القاسم الشابّي**: وُلد أبو القاسم الشابّي في الثالث من شهر صفر سنة 1327هـ، الموافق ليوم الأربعاء في الرابع والعشرين من شهر شباط عام 1909م، وذٰلك في بلدة توزر في تونس.

أبو القاسم الشابّي هو ابن محمد الشابّي الذي وُلد عام 1296هـ (1879)، وفي سنة 1319هـ (1901) ذهب إلى مصر، وهو في الثانية والعشرين من عمره ليتلقّى العلم في الجامع الأزهر في القاهرة. ومكث محمد الشابّي في مِصر سبع سنوات، عادَ بعدَها إلى تونس يحملُ إجازة الأزهر. =

وتـهُبُّ الـحَياةُ سَكرى من العِطْـ ـرِ ويـدْوي الـوُجـودُ بـالتَّغريدِ
كـلَّما أَبْـصَرَتْكِ عيناىَ تمشـينَ بـخَـطـوٍ مـوقَّـعٍ كـالـنَّشـيدِ
خَـفَقَ القلبُ للحياةِ ورفَّ الزَّهـ ـرُ فـي حـقلِ عـمريَ الـمجرودِ
وانـتشتْ روحيَ الكئيبَةُ بالحبِّ وغـنَّـتْ كـالبُلْبُـلِ الـغِرِّيـدِ
أَنـتِ تُـحيينَ فـي فؤاديَ ما قدْ ما تـلاشَى فـي عهديَ المجدودِ
مِـنْ طموحٍ إلى الجمالِ، إلى الفنِّ، إلـى ذٰلـك الـفضـاءِ الـبعيدِ
وتَـبُثِّينَ رقَّـةَ الشّـوْقِ والأَحلامِ والـشَّـدْوِ والـهوى فـي نشيدي

بـعـدَ أنْ عـانقَتْ كـآبَـةُ أَيّامي فـؤادي وأَلـجمـتْ تـغريدي
أَنـتِ أُنـشـودَةُ الأَنـاشـيدِ غنّاكِ إِلٰـهُ الـغـنـاءِ ربُّ الـقصيـدِ
فيكِ شبَّ الشَّبابُ وَشَّحَهُ السِّحْرُ وشَـدْوُ الـهَوَى وعِـطْرُ الورودِ
وتـراءى الـجمـالُ يَرْقُصَ رقصًا قُـدُسـيًّا عـلى أَغـانـي الـوُجودِ
وتـهادتْ فـي أُفْقِ روحِكِ أَوْزانُ الأَغـانـي ورِقَّـةُ الـتَّـغريـدِ
فتمايَلْـتِ فـي الـوُجـودِ كلحنٍ عـبقـريِّ الـخيالِ حُـلْوِ النَّشـيدِ
خُـطُواتٌ سـكرانةٌ بـالأَناشـيدِ وصـوتٌ كَـرَجْعِ نـايٍ بـعيدِ

= ويبدو أنّ الشيخ محمد الشابّي قد تزوج إثر عودته من مِصر ثُمَّ رزق بابنه البكر أبي القاسم. قضى الشيخ محمد الشابّي حياته المسلكيّة في القضاء بالآفاق، ففي سنة 1328هـ (1910م) عيّن قاضيًا في سليانه، ثُمّ في قفصه في العام التالي، ثُمّ في قابس سنة 1332هـ (1914م)، ثُمّ في جبال تالة سنة 1335هـ (1917م) ثُمّ في مجاز الباب سنة 1337هـ (1918م) ثُمّ في رأس الجبل سنة 1343هـ (1924م)، ثُمّ إنه نُقلَ إلى بلدة زغوان سنة 1345هـ (1927م). ومِنَ المتوقع أن يكون الشيخ محمد كان يأخذ أسرته معه، وفيها ابنُه البكر أبو القاسم وهو يتنقّل بين هٰذه البلدان. ويبدو أنّ الشابّي الكبير قد بقِيَ في زغوان إلى صَفَر من سنة 1348هـ أواخر تموز سنة (1929م) حين مرض مرضَه الأخير، ورغب في العودة إلى توزر. ولم يعِشْ الشيخ محمد الشابّي طويلًا بعد رُجوعه إلى توزر، فقد توفي في الثالث من ربيع الثاني 1348هـ الموافق الثامن من أيلول/ سبتمبر 1919. =

= كان الشيخ محمد الشابّي رجلًا صالحًا، تقيًا، يقضي يومه بين المسجد والمحكمة والمنزل، وفي هٰذا الجوّ نشأ أبو القاسم الشابّي. ومن المعروف أنّ للشابّي أخوين هما محمد الأمين وعبد الحميد، أمّا محمد الأمين فقد وُلد في عام 1917م في قابس، ثم مات عنه أبوه وهو في الحادية عشرة من عمره، ولٰكنه أتمّ تعليمَه في المدرسة الصادقيّة، أقدمِ المدارس في القُطر التونسيّ لتعليم العلوم العصريّة واللغات الأجنبيّة، وقد أصبح الأمينُ مديرَ فرع خزنةِ دار المدرسة الصادقيّة نفسِها، وكان الأمين الشابّي أوّلَ وزيرٍ للتعليمِ في الوزارة الدستوريّة الأولى في عهد الاستقلال، فتولّى المنصِبَ من عام 1956م إلى عام 1958م.

وعُرف عن الأمين أنه كان مثقّفًا، واسعَ الأُفُق، سريعَ البديهة، حاضرَ النكتةِ، ذا اتجاهٍ واقعيٍّ، كثيرَ التفاؤل، مختلفًا في هٰذا عن أخيه أبي القاسم الشابّي. أمّا الأخ الآخر، عبد الحميد، فلم تتوفر لديّ معلومات عن حياته.

يبدو بوضوح أنّ الشابّي كان يعلم على أثر تخرُّجه في الزيتونة، أو قبلَها بقليل، أنّ قلبه مريض، ولٰكن أعراض الداء لم تظهر عليه واضحةً إلا في عام 1929م، وكان والدُه يريده أن يتزوج، فلم يجد أبو القاسم الشابّي بدًّا للتوفيق بين رغبة والده وبين مقتضياتِ حالته الصحيّة، من أن يستشير طبيبًا في ذٰلك. وذهب الشابّي برفقة صديقِه زين العابدين السَّنوسي لاستشارةِ الدكتور محمود الماطري، وهو من نُطُسِ الأطباء، ولم يكن قد مضى على ممارسته الطبَّ يومذاك سوى عامين، وبسط الدكتور الماطري للشابّي حالة مرضه وحقيقة أمر ذٰلك المرض، وحذّر الشابّي، على أيّة حال، من عواقب الإجهاد الفكري والبدني. وبناءً على رأي الدكتور الماطري وامتثالًا لرغبة والده عزم الشابّي على الزواج وعقد قرانه.

ويبدو أنّ الشابّي كان مصابًا بالقُلابِ منذ نشأته، وكان يشكو انتفاخًا وتفتّحًا في قلبه، ولٰكنّ حالتَه ازدادت سوءًا في ما بعد لعوامل متعددة، منها التطوّر الطبيعي للمرض وفقًا لعامل الزمن، وأنّ الشابّي كان في الأصل ضعيفَ البنيةِ، ومنها أحوالُ الحياة التي تقلّب أبو القاسم فيها طفلًا، ومنها الأحوال السيّئة التي كانت تحيط بالطلاب عامّةً في مدارس السُّكنى التابعة للزيتونة، ومنها الصدمة التي تلقّاها بموت محبوبتة الصغيرة، ومنها، فوق ذٰلك، إهمالُه لنصيحة الأطباء =

= في الاعتدال في حياته البدنيّة والفكريّة، ومنها أيضًا زواجُه في ما بعد. لم يأتمر الشابّي بنصيحة الأطبّاء إلا بتركِ الجرْي، والقفز، وتسلُّق الجبال، والسياحة، ولعلّ الألم النفسانيّ الذي كان يدخل عليه من الإضراب عن ذٰلك كان أشدَّ عليه مما لو مارس بعضَ أنواع الرياضة باعتدال. يقول في إحدى يوميّاته، الخميس 16-1-1930م، وقد مرّ ببعض الضواحي: «هاهنا صِبْيةٌ يلعبون بين الحقول، وهناك طائفة من الشباب الزيتونيّ والمدرسيّ يرتاضون في الهواء الطلق والسهل الجميل، ومَن لي بأن أكون مثلَهم؟ ولٰكن أنّى لي ذٰلك والطبيب يحذّر عليّ ذٰلك لأن بقلبي ضعفًا! آه يا قلبي! أنتَ مبعثُ آلامي، ومستودعُ أحزاني، وأنت ظُلمةُ الأسى التي تطغى على حياتي المعنويّة والخارجيّة.»

وقد وصف الدكتور محمد فريد غازي مرضَ الشابّي فقال: «إنْ صدَقَنا أطبّاؤه، وخاصةً الحكيم الماطري، قلنا إنّ الشابّي كان يألمُ مِن ضيقِ الأذنيّة القلبيّة، أي أنّ دَوران دَمِهِ الرئويّ لم يكن كافيًا، وضيقُ الأذنيّة القلبيّة هو ضيقٌ أو تعبٌ يُصيب مدخلَ الأُذنيّة فيجعلُ سَيَلان الدم من الشرايين من الأُذنيّة اليُسرى نحو البُطيْنة اليسرى سَيلانًا صعبًا أو أمرًا معترِضًا (سبيله). وضيقُ القلب هٰذا كثيرًا ما يكون وراثيًّا، وكثيرًا ما ينشأ عن برد، ويصيب الأعصابَ، والمفاصل. وهو يظهر في الأغلب عند الأطفال والشباب ما بين العاشرة والثلاثين، وخاصّةً عند الأحداث على وشك البلوغ.» وقد عالج الشابّي الكثيرُ من الأطبّاء، منهم الطبيب التونسي الدكتور محمود الماطري، ومنهم الطبيب الفرنسي الدكتور كالو. والظاهر من حياة الشابّي أنّ الأطبّاء كانوا يصفون له الإقامة في الأماكن المعتدلة المناخ.

قضى الشابّي صيفَ عام 1932م في عين دراهم مستشفيًا، وكان يصحبه أخوه محمد الأمين، ويظهر أنه زار في ذٰلك الحين بلدة طبرقة، برغم ما كان يعانيه من الألم. ثم إنه عاد بعد ذٰلك إلى توزر. وفي العام التالي اصطاف في المشروحة، إحدى ضواحي قُسنطينة من أرض القطر الجزائري، وهي مِنطقةٌ مرتفعةٌ عن سطح البحر تُشرف على مساحاتٍ مترامية، وفيها من المناظر الخلّابة، ومن البساتين، ما يجعلُها مُتعةَ الحياة الدنيا، وقد شهد الشابّي بنفسِه بذٰلك. ومع مجيء الخريف عاد الشابّي إلى تونس الحاضرة ليأخذ طريقه منها إلى توزر لقضاء الشتاء فيها. غير أنّ هٰذا التنقل بين المصايف والمشاتي لم يُجْدِ الشابّي نفعًا، فقد ساءت حالُه في آخر عام 1933م واشتدّت عليه الآلام، =

وقَــوامٌ يَـكادُ يَـنْطِـقُ بالأَلحانِ ... فـــي كـــلِّ وقـفـةٍ وقُـعـودِ
كـلُّ شـــيءٍ مُـوقَّعٌ فيــكِ حتَّى ... لَـفْحَـةُ الـجيدِ واهـتــزازُ النّهودِ
أَنـتِ أَنتِ الحَياةُ في قدْسِها السّا ... مـي وفي سِحْرها الشَّجِيِّ الفريدِ
أَنـتِ أَنـتِ الـحَياةُ فـي رِقَّةِ الـ ... فَـجْرِ فـي رَوْنَـقِ الرَّبيعِ الوليدِ
أَنـــتِ أَنـــتِ الـحَيــاةُ كلَّ أَوانٍ ... فـــي رُواءٍ مِـنَ الـشَّـبابِ جديدِ
أَنـتِ أَنـتِ الـحَيــاةُ فـيكِ وفي ... عَـيْنَيْكِ آيـاتُ سِـحْرِها المَمْدودِ
أَنـتِ دُنْيا من الأَناشيدِ والأَحلامِ ... والـسِّـــحْرِ والـخيــالِ الـمديــدِ
أَنـتِ فوقَ الخيالِ والشِّعرِ والفنِّ ... وفـــوقَ الـنُّهى وفـــوقَ الحُدودِ
أَنـتِ قُـدْسي ومَعبدي وصباحي ... وربـيعـــي ونَـشْـــوتي وخُـلودي

= فاضطرَّ إلى ملازمة الفراش مدّة. حتى إذا مرّ الشتاء ببرده، وجاء الربيع، ذهب الشابّي إلى الحمّة أو الحامه (حامة توزر) طالبًا الراحة والشفاء من مرضه المجهول وحجْز الأطباء، والاشتغال بالكتابة والمطالعة. وأخيرًا أعيا الداء على التمريض المنزلي في الآفاق، فغادر الشابّي توزر إلى العاصمة في 26-8-1934م. وبعد أن مكث بضعة أيام في أحد فنادقها وزار حمّام الأنف، أحدَ أماكن الاستجمام شرق مدينة تونس، نصح له الأطبّاء بأن يذهب إلى أريانا، وكان ذٰلك في أيلول، وأريانا ضاحية تقع على نحو خمسة كيلومترات إلى الشمال الشرقي من مدينة تونس، وهي موصوفة بجفاف الهواء. ولٰكن حال الشابّي ظلّت تسوء، وظلّ مرضُه عند سواد الناس مجهولًا، أو كالمجهول، وكان الناس لا يزالون يتساءلون عن مرضه هٰذا: أداءُ السلّ هو أم مرض القلب؟

ثُمّ أعيا مرضُ الشابّي على عنايةٍ وتدبيرٍ فرديّين، فدخل مستشفى الطليان في العاصمة التونسيّة في اليوم الثالث من شهر أكتوبر قبل وفاته بستة أيام، ويظهر من سجلّ المستشفى أنّ أبا القاسم الشابّي كان مصابًا بمرض القلب.

تُوفِّي أبو القاسم الشابّي في المستشفى في اليوم الأول من رجب سنة 1353هـ الموافق التاسع من أكتوبر من عام 1934م فجرًا في الساعة الرابعة من صباح يوم الإثنين، ونُقل جثمانه في أصيل اليومِ الذي تُوفّيَ فيه إلى توزر، ودُفن فيها. وقد نال الشابّي بعد موته عنايةً كبيرة، ففي عام 1946م تألّفتْ في تونس لجنةٌ لإقامة ضريحٍ له نُقلَ إليه باحتفالٍ جرى يوم الجمعَة في السادس عشر من جمادى الثانية عام 1365هـ.

يـا ابـنةَ الـنُّـورِ إنَّني أنا وحدي ... مَـنْ رأى فـيكِ رَوْعَـةَ المَعْبودِ
فـدعيني أَعيشُ في ظِلِّكِ العذْبِ ... وفـي قُـرْبِ حُـسـنكِ المَشْهودِ
عـيشـةً لـلجَمالِ والفنِّ والإلهامِ ... والـطُّهْرِ والـسَّـنى والـسُّـجودِ
عـيشَةَ النَّاسكِ البَتُولِ يُناجي الرَّ ... بَّ فـي نـشـوَةِ الذُّهول الشَّديدِ
وامـنحيني السَّـلامَ والفرحَ الرُّو ... حـيَّ يـا ضـوءَ فجريَ المنشـودِ
وارحـميني فـقد تـهدَّمتُ في كَوْ ... نٍ مِـنَ الـيأْسِ والـظَّلامِ مَشـيدِ
أنـقِذيني مِـنَ الأَسـى فلقدْ أَمْسَـ ... ـيْـتُ لا أسـتطيعُ حَمْلَ وُجودي
فـي شِعابِ الزَّمانِ والموتِ أَمشي ... تـحتَ عـبءِ الحَيـاةِ جَمَّ القُيودِ

وأُمـاشـي الوَرَى ونفسيَ كالقبـ ... ـرِ وقـلـبي كـالعالَـمِ الـمهدودِ
ظُـلْمَـةٌ مَـا لـها خِـتـامٌ وهولٌ ... شـائعٌ فـي سُـكونِها الـممدودِ
وإذا مـا اسـتخفَّني عَبَثُ النّاسِ ... تـبسَّـمتُ فـي أَسًـى وجُـمودِ
بَـسْـمَةٌ مُـرَّةٌ كـأنَّني أَسـتلُّ ... مـن الـشَّـوْكِ ذابـلاتِ الوُرودِ
وانْـفُخي في مَشاعِري مَرَحَ الدُّنيا ... وشُـدِّي مِـنْ عـزميَ الـمجهودِ
وابـعثي فـي دمـي الحَرارَةَ عَلِّي ... أَتـغنَّى مـع الـمُنـى مِـنْ جَديدِ
وأَبـثُّ الـوُجـودَ أَنـغـامَ قـلبٍ ... بُـلْـبُـلـيٍّ مُـكَـبَّـلٍ بـالـحديـدِ
فـالصَّباحُ الجميلُ يُنْعِشُ بالدِّفءِ ... حـيـاةَ الـمُـحَطَّـمِ الـمكـدودِ

أَنْـقِذيني فـقد سـئمتُ ظلامي ... أنـقِذيـنـي فـقدْ مَـلَلْـتُ رُكودي
آهِ يـا زهـرتي الجميلةَ لو تدرينَ ... مـا جـدَّ فـي فـؤادي الوحيدِ
فـي فؤادي الغريبِ تُخْلَقُ أَكوانٌ ... مِـنَ الـسّـحرِ ذاتُ حُسْـنٍ فريدِ
وشُـمـوسٌ وضّـاءةٌ ونُـجـومٌ ... تَـنْثُـرُ الـنّورَ فـي فَـضـاءٍ مديدِ
وربـيـعٌ كـأنَّـهُ حُـلُمُ الـشـاعرِ ... فـي سَـكرةِ الـشَّـبابِ السَّعيدِ
وريـاضٌ لا تعرفُ الحَلَكَ الدَّاجي ... ولا ثـورَةَ الـخريـفِ الـعتيدِ
وطـيـورٌ سِـحْـرِيَّةٌ تـتناغَـى ... بـأَنـاشـيدَ حُـلـوةِ الـتَّغريـدِ
وقُصورٌ كأنَّها الشَّفَقُ المخضُوبُ ... أَو طَـلْـعَـةُ الـصَّبـاحِ الـوليـدِ

وغيــــومٌ رقيـقــةٌ تـتـهــادَى   كـأَباديــدَ مِـــن نُـثـارِ الـورودِ
وحيــاةٌ شِــعْرِيَّةٌ هـــي عـندي   صُـورةٌ مـن حَيــاةِ أَهْلِ الخلودِ
كـلُّ هٰذا يَشــيدُهُ سِــحْرُ عينيكِ   وإلـهــــامُ حُسْــنِكِ الـمعبــودِ
وحــــرامٌ عـليــكِ أَنْ تَـهْدِمي مَا   شـادهُ الـحُسْنُ في الفؤادِ العميدِ
وحـرامٌ عـليكِ أَنْ تسْـحَقي آمـ   ـالَ نـفْسٍ تَـصْبــو لـعيشٍ رَغيدِ
مـنكِ تـرجو سَــــعادَةً لم تجدْها   فـي حياةِ الوَرَى وسِــحْرِ الوُجودِ
فـالإِلٰهُ الـعظيــمُ لا يَـرْجُمُ العَبْدَ   إذا كــــانَ فـي جَـلالِ السُّــجودِ

اختيارُه لهٰذه القصيدة ليقولَ لها ما لا يســتطيع قوْله بلسانه، هو شيءٌ لا يوصَف بالنسبة إليها، عجزَتْ عن الكلامِ وصمتتْ تفكّرُ بأنها تعيشُ أحلى لَحَظاتِ سنَواتِها الأربعينَ وأجملَها...

وردّت عليه بدوْرها بــأنْ قصّتْ لقاءهما معًا على شـكــلِ قصّةٍ قصيــرة تتحدّثُ بالــرمــوز عمّا دار بينهما ولــم يترجَم إلى كلماتٍ حينَها...

سَفَرُ وَرْد

شـــاءتْ الأقدارُ أن يتمَّ الحُكمُ على الوردِ بالسفرِ إلى بلادِ النيل، الوردُ متمسّكٌ بأرضهِ رافضًا فكرَةَ الســفرِ والبُعد، ظانًّا أنّ اقتلاعَه مِن ترابه ســيقتُله. الحُكمُ صدَر، والحكُم قاسٍ على الورود... في النهاية هو وردٌ، وليس له في الحربِ حيلة... إنه مسالم.

لمْلَمَ أوراقَهُ وزمَّ بتَلاتِه بألوانِها الإلٰهيّة وخذَل عِطْرَه... وقامَ بالسفرِ متململًا ومثقلًا... مُخبّئًا شــوكتَه الذهبيَّة التــي ميّزَتْهُ عن جميعِ وُرود الدنيا وأزهارِها... الطريقُ جعلتْ الوردَ يشــعرُ ويفكّرُ ويتساءلُ عمّا قد يراه من عَجبِ العُجاب بين صفَحاتِ القــدَرِ غير المقروءة... كما كان يستشعرُ من همَساتِ الموجِ ونسَماتِ الهواء... الآتيةِ مِن هناك...

وصلَ الوردُ وكان هادئًا متماسكًا، ولٰكنْ بعد وقتٍ بدأ يُرخي عِطْرَه ويُسدِلُ أوراقَه... ربَما مِن تَعبِ السفرِ، أو ربّما لأنه بدأ بالانسجام مع مَنْ حَوْلَهُ منْ أزهارٍ وجمالِ ألوان... لٰكنّ جذورَه أيضًا بدأتْ بالتراخي والاسترخاء، وهٰذه المرَّةَ لرؤيةِ ترْبةٍ خصبةٍ فيها انتعاش، ورائحتُها تعبَقُ بطعمِ الغذاءِ والماء... تـرُشُّ ذرّاتِها الناعمةَ داعيةً الوردَ إليها... داعيةً إيّاه إلى الحياة... تربةٍ امتلأتْ قَطَراتِ ندًى يلامسُ بعضُها بعضًا برخاوةٍ على بتلاتِ وُروده الشهيّة...

اختارتْهُ من بينِ الورود...

تعجّب الورد؟؟ فقد ناداها في سرِّه، كيف سمعَت؟؟

فعلًا، التربةُ لم تسمع، بل شعرتْ بالحاجة وعرضتْ عَطاءها بكرمٍ ولباقة وإعجاب وصدق... دعتْه إلى الاقتراب أكثر فأكثر لتشمَّه وتستمتعَ بطاووسِه المتكبّر الخلّاب...

اقترب الورد أكثر، كأنه وجدَ مكانَهُ وبيئته... اندفعَ بسرعةٍ، ومن دون أن ينتبِه، غرسَ شوْكَتَهُ الذهبّيّةَ في صميمِ التُّربة التي جمَدت في مكانها...

فتوقّف الهواءُ وأصبحَ ساكنًا وثقيلا

الصمتُ أزعجَ المكان

الموسيقى تلاشتْ

الطيور اختبأتْ

الألوان بهتتْ... أمّا الشمسُ

فحزِنتْ...

فجأةً شهقتْ التُّربة... خاطفةً عميقًا، طويلًا وقويًّا

صارخةً: الحياة...

نبضتْ من جديد...

فزعَ الوردُ وأخرجَ ما تبقّى مِن شــوكَتِهِ وابتعد متردّدًا، متأسِّــفًا، متعثّرًا... لم يقصِدْ... لم يعرِفْ... ربّما تمنّى لا يُنكِر!!

لَمُلــمَ أوراقَهُ المتبعثــرةَ وألوانَهُ الصارخةَ وعِطرَهُ الفوّاحَ مســرعًا هاربًا إلى أرضِهِ حيث التربةُ التي ألِفَها، عاش ونمى فيها، تربةٌ قاســيةٌ وجافّةٌ، تربةٌ حدَّدَتْ ألوانَه، وعِطْرَهُ، وحتى أشواكَه.

أمّا هي... التربة التــي تركَها تنزِفُ في بلاد النيــل... ورُغم كلِّ الألم الذي ذاقتْه، فقــد فرحتْ بأنّ الوردَ كادَ أن يقُتلَها بشــوكةٍ ذهبيّة مسَّتْها بالصميم وانكسرتْ فيه... ترك لها قطعةَ ذهبٍ تؤلمُ، لٰكنها غايةٌ في الجَمال... جَمالٍ أحياها، أنعشــها، جدَّدَها وعِطْرَها... جمالٍ ناثرًا دُررًا من حبّاتِ الندى على حُبَيْباتِ تُرابِها...

«أحبّكَ» كلمةٌ لا تعني الكثير، «أقدِّسُكَ» ربما هي أقربُ إلى ما لا أستطيعُ أن أجدَ له تعبيرًا.»

* * *

لم تهدأ ولم تفهم ماذا يحصُل ولماذا...! لٰكنها قرّرَتْ أنها لا بد أن تراه. لا تستطيع الاستمرار هٰكذا. لا بدّ أن تواجه ألمها لتقضيَ في الأمور تمامًا كما واجهت مرضَ الخالة وتقبَّلَتْه. وفوقَ كل هٰذا هي تريد أن تراه لتطفئ عطشَ الحبّ.

بدأت ترسُم كيف ستراه وأين؟

وفقط عندما اتخذت هٰذا القرار، تُوفِّيتْ الخالة...

وعادت ندى إلى نُقطة الصفر في التقدُّمِ والتحسُّن والضعف، وعادت إلى الانعزال والصمت. بحزنها لم تزعجْ أحدًا، بل كانت العواصفُ والبراكينُ تدور داخليًا، أمّا في الشكل الخارجيّ فكانت تبدو مرهقة وحزينة...

في تلك الأثناء كانت علاقتها بعلي تتطور يومًا بعد يوم بحيث بدأ يفتقدُها في التواصل، ويتحدّث عن نفسه باقتضاب، لٰكن هٰذا لا يقارن بحجم الجرائد التي كانت ترسلُها ندى بشكلٍ شبه يوميّ. فمعه تشعر براحة وتتحدث بإسهاب في أيّ شيء. تتحدّث بحرّيّة لم تتعدَّ يومًا خطّ الاحترام المتبادل. لٰكنه كان قاسيًا جدًّا، يضع الحدود والقوانين، فممنوع الحزن وممنوعةٌ الشكوى، وممنوع البكاء... وهي لا تُنكر داخليًا أنّ ما يفعلُه يحفظُ العلاقة في إطارها الصحيح... إطار

بالنسبة إليه وقفص بالنسبة إليها. كان علي يسمّي عالمَهما العالم الافتراضيّ، وكان هٰذا الوصف يزعج ندى لأنها لا ترى سوى الواقع، فهي تتألم وتتعذب وتتحدث إليه . أين الافتراض في الموضوع؟ أين اللاواقع؟

لٰكنها في قرارة نفسها ترى أنّ في كلامه شيئًا من الصواب، لأنها لا شيء فعليًا في حياته. كيف لها أن تعتب عليه أو تطلب منه المزيد من التواصل؟ إنها بعيدة عنه مسافة «كبسة زر» يستطيع أن يلغيَها بأن يكبس زِرَّ الاستبعاد من قائمة الأصدقاء على «الفيس بوك». وكانت دائمًا تكرّر لنفسها:

«رحم الله امرأً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ وَوَقَفَ عِنْدَه.»

ومع الأيام صارت تفكّر: ما الضررُ في أن تدعه يعيش في عقلها وقلبها؟ ما الضررُ في أن تدع كلماته تحييها؟ وبدأ صراعٌ داخليٌّ جديد يسيطر عليها، فلم تعدْ تتحدّث إلى الله، ولا تجدُ في نفسها الاحترام الذي يجبُ أن توصَفَ به لتقفَ بين يديهِ بقلبٍ مخلص ومؤمن. صارت تختبئ من أمامه، وإن ناجَتْه فعلتْ ذلك بقلبٍ مكسور... فقلبها ينبض بالحب... هل هٰذا محرّم؟ إنه في داخلها فقط؟ هل هٰذا حرام؟ فهي أحبّت زوجها بصدق، وكانت دائمًا مخلصةً له. قَبَّلَتْ يديه وطلبتْ رضاه لسنينَ طويلةٍ لٰكنه كان مصرًّا على أن يدفعها بعيدًا بقسوة وأنانية. تلاشى كلُّ شيء: المشاعر، والحب والاحترام، كلّ شيء أعطته إيّاه كان قد ألقاه في الظلمة، أنكره وتنكّر له، وقد ترك في ذاكرتها الظلم، والعنف، والخوف، والتعب النفسيّ، والسيطرة، والشكّ، والبخل، وعدم الثقة. بالمقابل وجدت شيئًا آخر لم تَسْعَ له... الحرّيّة... هل هو حرامٌ عليها أن تشعر بالحرّيّة؟ أو قبلَ الحرّيّة، هل هو عليها حرام أن تشعرَ أنها إنسانة، ولها كرامة، ولها حقّ في المشاعر والتعبير عنها بحرّيّة؟

أم عليها أن تتبعَ ملايينَ النساءِ اللواتي تنكَّرنَ لمشاعرهنّ، أو حتى عِشْــنَ من دون أن يعرفن بأن عيْشَ المشــاعر، ولو حتى في الخفاء، هو عالَمٌ جميل، وواســع، ولذيذ، وفيه خيــارات، وأنّ من حقّ المرأة أن تتبع مشــاعرَها وتختار مَن تحبّ؟ لٰكن في حال تعرّفن مشاعرهنّ وعواطفهنّ، فإنّ حدود هٰذا تنتهي عند الشفتين، ففي كثيرٍ من الحالات ليس من المسموح للمرأة أن تعبّر عن عواطفها إلا لزوجها، وإذا سمح لها فبذٰلك فقط، وفي غير هٰذا هي من دون صلاحيات.

«هل هٰذا كثير يا ربي؟ قل لي أرجوك! هل هٰذا كثير عليّ يا ربي؟ لماذا؟ ومهما حاولتُ التقدُّمَ خطوةً إلى الأمام أرجع اثنتين إلى الوراء، أنا حاولتُ، وأحاول، لٰكني تعبتُ من المحاولة وأستســلِم. لا أُريدُ أن أعودَ إلى وضعي السابق خصوصًا بعد أن التقيت مشاعري الجديدة.

«أوّل مرة في حياتي أشــعر أنــي جميلة بحقّ، لــم أرَ ذٰلك من خلال عيني عماد، لأنّ نظراته دائمًا مُشكِّكة ومحبِطة، إنه يرى العيوب ويكبّرها، لا يشــكر ولا يمدح ولا يصارح ولا يحبّ... يمتصّ الحياة ببطء، يأخذ ولا يعطي.

«لا أدري ماذا حصــل، ولٰكني أعرف أني أحب وقلبي حيّ، ومَن أحبّه لا أعرف عنه شــيئًا، لٰكني مدينة له بالكثير لدخوله قلبي بشكلٍ مفاجئ، فقد كسر الباب ودخل عَنْوَةً ومن دون استئذان...»

الوضع ليس بخير، ولٰكن فكرة أن تراه ما زالت تراودها. وبدأت التفكيــر والتخطيط من جديد. أوّل شــيء فكّرتْ فيــه الوضوح، فقد أخبرت عمادًا بأنها تريد الاختلاء بنفسها والبعد عن كل الظروف التي مرّت بها مــن وَفَياتٍ، وصعوباتٍ في العمل، وتراجع نفســيّ. وقالت إنها بحاجة إلى الراحة، فعلى الرغم من الظــروف الصعبة التي مرّت بها كانت تعمل بكــدٍّ، وتصل ليلها بنهارها، وتزيــد من دخل البيت، وتغطّي نفقات الحياة للأولاد...

كان عماد راضيًا عــن أدائها، ووافق لها أن تختلي، وقالت له إنها تريد الســفر إلى بلد لا تعرف فيه أحدًا وإنها تختار تونس. اســتغرب اختيارها، ولٰكنه لم يمانع. وشــرحت له أنّ عليًّا متدرب تونسيّ كان معها في الــدورة الأخيرة في مصر وأنها ســتقابله وتتعــرف بعائلته. وأيضًا لم يمانع، فعادةً هي على تواصل مع الرجال في مجال عملها.

لم تكذب، بل أعطت المعلومات الضروريّة التي يجب أن يعرفها عماد، واحتفظت بالباقي لنفسها.

تناقشــت مع علي بخصوص زيارتها إلى تونس، وبدا مرحّبًا بها. فقد كانا دائمًا من خلال حديثهما يتمازحان بأنهما سيتبادلان الزيارات. لٰكن الآن المزاح أصبح واقعًا. وها هي تكسر كلمة «العالم الافتراضي» وتدوس أرض الواقع، شيء لم تحلم بأن تفعله في حياتها.

توجهــت بفكرة ســفرها إلى تونس وناقشــتْها مع ختــام بتردّد، تفاجأت ختام من موقف ندى وتعجبت من قوة المشــاعر التي تُكِنّها لعلي حتى جعلتْها تفكّر في الســفر إليه، إنها تحبّه حقًّا، ومن الصعب جدًّا أن تؤثّر فيهــا أو تجعلها تفكّر بطريقة أُخــرى وتنظر إلى الأمور من منظــور آخر، ومع ذٰلك بدأت تحلّل معها قرار الســفر وتناقشــه، وتضع كلّ الاحتمالات الواردة في حال ســافرت وأساء الحكمَ عليها، أو تخلّى عنها، أو حتــى طلب منها البقاء... ناقشــتْ كلّ ذٰلك، لٰكن من دون جدوى، فندى عازمة على الســفر، فما كان من ختام ســوى الرضوخ لرغبتها، فهي تعرف مدى العذاب الذي تعيشه ندى ولا تريد لها الاستمرار على هٰذا العذاب أبدًا، فقد أصبحت مقتنعة بأنّ استمرار ندى على هٰذه الحال سيقتلها، ســتموت من الوهن والتعب والضعف والحزن، وهٰذا آخر ما تريده لها.

ســتقطع بلدانًا لترى مَن تحبّ، وطلبت منه شــيئًا واحدًا فقط... تريد أن تراه لمدّة ساعة وتحتسي معه القهوة.

اعترض علي على موضوع «الساعة» وقال: «قليل.»

ولأنّ ندى ليست خبيرة علاقات، عرفت أن عليها اتخاذ هٰذه الخطوة لعدة أسباب، وأهمّها أن تتحدّى الدنيا، فتلك الأخيرة لم تكتفِ بكسرها وسحقها، بل إنها ما تزال تستلذّ بتعذيبها بشتى الطرق والمجالات. وسفرها هٰذا سيكون بداية النهضة بالنسبة إليها. ستبدأ بمواجهة الدنيا مهما كانت النتائج مخيفة. وزيادةً على الوضع الراهن فكّرتْ ندى في أنها ستذهب إلى بلد غريب، وتقابل رجلًا غريبًا أيضًا وتعيش مصيرًا غامضًا...

ماذا لو أنها تعرّضت لحادث سيّارة؟ أو عصابة اعترضت طريقها بهدف السرقة، أو الاغتصاب...؟ فهٰذه هواجس النساء عادة... لٰكنها توكلت على الله وشعرت بالأمان. لٰكن ماذا لو أن عليًّا عكس الصورة التي رسمتْها له من خلال معرفتها السطحيّة به؟ ماذا لو أحضر زوجته لإهانتها... أو أغلق هاتفه ولم يستقبلها؟ ماذا لو هزأ بها واستهتر بعواطفها وطردها إلى العالم الافتراضي من جديد...؟ ماذا لو...؟ وماذا لو...؟ تساؤلات إلى ما لا نهاية لها من أفكار سوداوية اعترضت تفكيرها وشوّشتْ صورتَها الكاملة عنه والتي صوّرَتْهُ بها... لٰكن رغم كلّ ذٰلك كان قلبها يقودها وينير لها الطريق، فقد قررت الاحتماء بالله والإيمان والتمسّك بكلّ الخصال الحسنة التي عرفتْها في علي من خلال أحاديثهما القصيرة...

«إنه إنسان مميّز... وأنا ألتفت إليه من دون البشر. وهٰذه الإشارة تكفي.» قالت في نفسها عازمة.

بدأت بتحضير إجراءات التاشيرة وحجز الفندق وتذكرة السفر. وكثّفتْ جهودها لتنجز واجباتها في العمل وفي المنزل.

وفي خضمّ برنامجها المكثّف والمزدحم قبل السفر، فكّرتْ ووضعتْ نفسها مكان علي... ماذا يفكّر؟ وكيف ينظر إليها؟ هل سيستمرّ احترامه لها؟ «امرأة متزوجة تترك زوجها وبيتها وأولادها

وحياتَها وتأتي إلى هنا لمدة ســاعة وتحتسي القهوة معي!!! عجيب!» هٰكذا كانت ندى تتخيّل أنّ هٰذا سيكون موقف علي من زيارتها.

وبعد أن حلّلتْ موقفه، أرســلتْ له رســالة كأنها تطمئنه إلى أنها تعيش المخاوف نفسها والتساؤلات نفسها بطريقة أُخرى، وطلبت منه كلّ ما تريد بكلمات رقيقة...

رسالة لنا...

الأيّام لا تعود، والزمن ذكرياتٌ لا تثمّــن... ولا أحد يعلم متى سيكون لقاءٌ ثالث، وهل ســيكون؟! لذا لِنَعِشْ هٰذا الزمن على أكمل وجه، ونضعه في خانة أغلى ما نملك...

فنضحكُ كالأطفال
ونتحدّثُ كالعلماء
ونصمتُ وكأنّ الكلام انتهى
ونحتسي قهوةً مرّةً فيها كلُّ الكلام
ونمشي من دون وُجهة
ونجلسُ في الظلّ تحتَ الشمس
ونحزن بهدوء... آملين أنَّ القادمَ أحسنُ، وأنّ غدًا آتٍ بألوانٍ بهيّة
ونفرحُ!! نحن أُناسٌ طيّبون
فبرغم قسوةِ الحياة على أرواحنا الملائكيّة وأجسادنا الغضّة
أبَيْنا ونأبى ألّا نكون... إلّا طيّبين
والله ثالثنا

... وإلى لقاء قريب

«سَمِّها جَهْلةَ الأربعين، سَمِّها مراهقةً ثانية، سَمِّها ما شئت!! أنتَ حرّ، أمّا أنا فأسمّيها... أنت.»

* * *

صعدتْ إلى الطائرة من جديد وجلستْ، لٰكن هٰذه المرَّة لم يكن عقل ندى يحمل الفكر نفسه الذي سافر معها إلى مصر قبل أن تقابل عليًّا. إنها إنسانة مكســورة وضعيفة ومهزومة. إنها إنسانة تعِبة ومُرهَقة ولا حياة فيها، عقلها مشــوّش للغاية. إنســانة لا تريد من الدنيا سوى الإجابة عن سؤالها: «لماذا؟؟»

لماذا يا دنيا؟ لماذا؟؟ تقدّمين الحلو والمرّ، تقدّمين الداء والدواء، تقدّمين الســعادة والحزن... تقدّمين كلَّ شيء... لٰكنّ الانكسار صعب جدًّا... فندى واجهتْ الكثير، مثلها مثل مليارات الناس الذين يعيشون على وجه الكرة الأرضيّة... لٰكن أن تكون حصّتها من العذاب أكثر من الحدّ الطبيعي...!!

ندى تجلس في الطائرة وتتمنى لو أنها تسقط منها وتختفي. فلم تعدْ تريد العيش. ولا تريد الحياة. هي تحبّه ولا تعرف كيف حصل كلُّ هٰذا، وكيف غيّرها لتصبح إنســانة أخرى... إنسانة كانت مفعمة حيويّةً صارت جســدًا بالكاد يتنفّس. كانت امرأة حديديّــة تتخطّى الصعاب وصارت امرأة هشّة من قَصديرٍ ينحني عند أيّ هبّة هواء يتعرّض لها.

لقد اختفتْ صورة زوجها عن الســاحة، اختفت تمامًا، فهو جسد بالنسبة إليها. يصرّ على أن يُرضيها جنسيًّا لأن هٰذا هو الشيء الوحيد

الذي يستطيع أن يشاركها إيّاه، وعدا ذٰلك لا تواصل ولا اتصال، تسير كعبدٍ مأمورٍ وتتقبّله، لا تقاوم بل تُسلّمه القيادة إلى النهاية.

للأسف هٰذا أكثر بُعدٍ يصل إليه الرجل مع زوجته ويسعى إليه، لٰكنه لا يسعى إلى ما أبعد من ذٰلك في التواصل والاقتراب من فهمها. بالمقابل الزوجة تتقوقع في فكرة أنّ هٰذا هو مفهوم الزواج، وبما أنها تُقدّم لزوجها ما يُرضيه فهي إذن زوجة وفيّة. اللوم في هٰذه الحالة يقع على الزوجة لأنها ترضى بأن يكون تعامُل زوجها معها واتصالُه بها مربوطًا بالسرير. وما يجهله الاثنان هو أنّ الطريق إلى السرير طويلة وتحتاج إلى جهد. فلكي يستمتعا فعليًّا بما وهبه الله للأزواج وحلّله لهما، عليهما السعي بالتواصل الفكري والمعنوي والعاطفي وتفهّم أحدهما للآخر. لتحقيق ذٰلك عليهما أيضًا فتح أبواب الحوار وتبادل الآراء واحترام كلٍّ منهما للآخر وتقبّله بحسناته وسيّئاته ليصلا إلى نتيجة منطقيّة ترضيهما.

يظنّ الرجل أنّ زوجته ما دامت في سريره فهو يمتلكها. وما لا يعرفه هو أنه فعلًا يمتلك جسدها فقط، أمّا روحها وقلبها وكيانها فهي بعيدة كلّ البعد عن سريره وامتلاكه لها.

الحلول بسيطة جدًّا. الحلول تكمن في مفاتيح التواصل بينهما وهي التخلص من القيود الاجتماعية التي نشأ عليها كلٌّ من الرجل والمرأة: الرجل قياديّ وصارم وله القرار والكلمة الأخيرة في البيت، والمرأة تابع وعبد مأمور، تعيش بضغط نفسيّ لتجنُّب إثارة غضب الرجل.

يعتبر الرجل أنّ مكانته ستهتزّ إذا انفتح على زوجته، في حين يشكّل الانفتاح فرصة حقيقيّة ومميّزة لتحسين مستوى الحياة والتواصل داخل الأسرة. ومنهم من يقول: أنا عفّى عليّ الزمن، فأنا متزوج منذ عشر سنين أو خمس عشرة سنة، وما فات قد مات...!! صحيح ما فات قد مات بالمفهوم الإيجابي، وأنّ الزوج يجرّب مرّة ويخبر زوجته بأنه يحبّ سَماع الأغنية الفلانيّة، ويجتمع الاثنان مساءً

ويستمتعان بألحان تلك الأغنية على رائحة النعنع مع الشاي في أيّ مكان داخل البيت... المطبخ أو غرفة الجلوس! يمكنهما عمل ذٰلك حتى لو كان البيت كلّه غرفة واحدة ما دام هناك مصدر بثٍّ مثل التلفاز أو الهاتف النقّال أو الراديو. وفي حال لم يتوفر ذٰلك يستطيع أحد الزوجين التقرّب من الآخر بأن يتسلّيا بلعبةٍ من الألعاب التراثيّة القديمة التي تجمع الأولاد للّعب معهم أيضًا...

فيمضي الوقتُ، وتبدأ الحواجز بالزوال، ويستفيد الزوج بأنه أحاط بأفراد العائلة من حوله، وتشعر الزوجة بدفء وخجل في الوقت نفسه، ويرسم الأولاد صورة صحيحة وصحّيّة عن مفهوم الأب والأم والأسرة.

ولأن المرأة عاطفيّة فهي تتجاوب مع موقف الرجل بسرعة، وبتعبير أقرب، المرأة هي مرآة الرجل، فإذا ضحك ضحكتْ، وإذا كان صارمًا خافتْ منه، وإذا أهملها أهملت هي نفسَها.

ولٰكن أين المُعضلة؟؟ إنها تكمن في كون الرجل تربّى على يدي امرأة، والدته في أغلب الأحيان أو إحدى نساء العائلة في حالات خاصة. فالرجل لا يعرف غير الذي تربّى عليه ونشأ عليه. لٰكن ما العمل في هٰذه الحالة؟ ربما يجب على المرأة إعادة برمجة نفسها لتعرف كيف تتعامل مع الرجل ونشأته، وكيف تجعله يسير إلى جانبها لا أمامها ولا خلفها أو فوقها.

نعود إلى ندى... وحالها الذي يُرثى له.

شعرتْ أنَّ الطريق طويلة جدًّا وهي ما تزال لا تصدّق أنها أخذت هٰذه الخطوة، تسافر لتراه كأنّ هناك مَن يحرّكها، كأنها تسير مبرمَجة، لٰكنها تحبّ ما تفعل، إنها تلبّي رغبة نفسها في أن ترى عليًّا وتفهم ما الذي يحدث. استيقظتْ على صوت مضيفة الطيران تطلب من المسافرين ربط الأحزمة استعدادًا للهبوط... وبالفعل هبطت الطائرة،

وبدأ قلبها بالخفقان غير العـاديّ. نزلتْ إلى المطار، وأتمّت إجراءات الوصول، وخرجت إلى صالة القادمين، ومشـتْ في الممرّ أمام الناس وكلٌّ ينتظر قـدومَ صديقـه أو رفيقِـه أو عائلتِه... لٰكـن هي لا أحد ينتظرها، فقد اتفقت مع علي على أن لا يأتي، لأنه مشـغول وسيكون في مكان بعيد عن موقع المطار.

تمنّت نـدى لو يظهر علي من بين الحشـود ويرحـب بها، فقط أملت لو يتخلّى عن انشغاله ويأتي مرحّبًا بها من باب الصداقة لا أكثر، فهي قطعت بلادًا لتراه، لٰكنه لم يقطع بضعة كيلومترات لاسـتقبالها. توجّهتْ إلى مكتب الاسـتعلامات، تسأل عن السيّارة التي تمّ حجزها مُسـبقًا، والتي من المفـروض أن تنقلها إلى الفنـدق. وتحدّثتْ إلى الفتاة خلف المكتب، وكانت بَشوشة جدًّا ولطيفة، ورحّبتْ بها بلهجةٍ تونسـيّة جميلة، واتصلت بالفندق وقالت عَبْرَ الهاتف: «هناك سـيّدة أردنيّة مزيانة برشا تنتظر السـيّارة لتنقلها إلى الفندق.» ضحكت ندى لهٰذا الوصف اللطيف، وربما ضحكتْ لسبب آخر وهو أنها على أرض الواقع الآن، وهي فعلًا في تونس.

طلبتْ منها الفتـاة أن تنتظر دقائقَ حتى تصل السـيّارة، في تلك الأثناء توجّهتْ ندى واشترت تشكيلة من الشـوكولاته وقدّمَتْها للفتاة التي ازدادت بشاشـتُها بشاشـة، ثُمّ توجَّهتْ إلى كشـكٍ لبيع خطوط الهاتف المحمول واشترت خطّ هاتف تونسيّ وفعّلَت هاتفَها. في تلك الأثناء وصل سائق السيّارة، وصعِدت إليها وبدأتْ رحلتَها داخلَ تونس إلى الفندق... نظرتْ مـن النافذة إلى تونـس[*] ... وأوّل انطباع كان

(*) **تونس**: تونس، رسميًّا الجمهورية التونسيّة، هي دولةٌ تقع في شمال أفريقيا، يحدّها من الشمال والشرق البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب الشرقي ليبيا (459 كلم^2) ومن الغرب الجزائر (965 كلم^2). عاصمتُها مدينة تونس. تبلغ مساحة الجمهوريّة التونسيّة 163,610 كلم^2. =

أنها بلد شـــرقيّ وعاديّ بشوارعه وســـيّاراته... فلم تكن قادرة على أن ترى شيئًا لأن مشاعرها تتخبّط... لٰكنها استطاعت أن تشعر بالمساحة والضوء واتساع رقعة الأرض. أمسكت هاتفها المحمول وبدأت تطبع رســـالة لعلي لتخبره أنها وصلت وتطمئنه، فكتبـــتْ من باب المزاح: «تونس مليئة تونسيّين، ظننتُك نادر.» وأرسلَتْها.

= أدّتْ تونس أدوارًا هامّة في التاريخ القديم منذ عهد الفينيقيّين والأمازيغ والقرطاجيّين والوندالييّن فسُمّيت باسمها القارّة كاملة. فتحها المسلمون في القرن السابع الميلادي وأسّسوا فيها مدينة القيروان سنة 50 هـ لتكون أوّلَ مدينة إسلاميّة في شمال أفريقيا. في ظلّ الإمبراطوريّة العثمانيّة، كانت تسمى «الإيالة التونسيّة». وقعت تحت الاحتلال الفرنسي في عام 1881، ثمّ حصلت على استقلالها في عام 1956، لتصبح رسميًّا المملكة التونسيّة في نهاية عهد محمد الأمين باي. مع إعلان الجمهوريّة التونسيّة في 25 يوليو 1957، أصبح الزعيم الحبيب بورقيبة أوّل رئيس لها.

تلى الأخيرَ في رئاسة الجمهوريّة زين العابدين بن علي بالانقلاب عام 1987، واستمرّ حكمه حتى سنة 2011 حين هرب خلال الثورة التونسيّة. اعتمدت تونس على الصناعات الموجّهة نحو التصدير في عمليّة تحرير الاقتصاد وخصخصته والذي بلغ متوسّط نموّ الناتج المحلّي الإجمالي فيه 5% منذ أوائل عام 1990، وقد عانت تونس الفساد في ظلّ حكم الرئيس السابق. لتونس علاقات وثيقة وتاريخيّة بكلٍّ من الولايات المتحدة الأميركيّةِ والاتحاد الأوروبيّ، ولها عدّة اتفاقات شراكة متقدمة تجمعها مع الاتحاد الأوروبي، والذي يعدّ الزبون الأوّل لتونس والحليف الاقتصاديّ القويّ. تونس هي أيضًا عضوٌ في جامعة الدول العربيّة والاتحاد الأفريقي. كذٰلك أنشأت تونس علاقات وثيقة بفرنسا على وجه الخصوص، من خلال التعاون الاقتصادي والتحديث الصناعي، وبرامج الخصخصة. وقد جعلت النهج الذي تتبعه الحكومة في الصراع بين إسرائيل وفلسطين وكأنها وسيط في مجال الدبلوماسيّة في الشرق الأوسط، ومساهم كبير في فرض السلام في العالم عَبْرَ قوّاتها المنتشرة في مناطق النزاع والتابعة للأمم المتحدة.

أهمّ مدُنها: تونس، صفاقس، سوسة، قابس، نابل، المنستير، بنزرت، القيروان، باجة، قفصة.

وصلتْ إلى الفنـــدق من دون أن تدرك طول المـــدّة الزمنيّة أو المســـافة التي اســـتغرقتْها من المطار إليه. نظرت إلى بوّابة الفندق الذي اختارت أن يكون منتجع خمســـة نجوم، حتى في حال ظلّت وحيدة فســـتكون قادرة على ملء الوقت واستخدام مَرافقه وخدماته. دخلتْ البهـــو الكبير وهي ما تـــزال لا ترى أيّ شـــيء محدّد بعد، وانتظرت عند مكتب الاستقبال انتهاءَ إجراءات التسجيل، وجاء أحد موظفي الفندق محضرًا معـــه عربة وضع عليهـــا حقائبها، ثمّ طلب منها باحتـــرام أن تلحقه ليقودها إلى غرفتها التـــي كانت في الطابق الأرضي، وفتح الباب ووضع الحقائـــب وذهب. دخلت ندى الغرفة وأغلقت البـــاب خلفها بإحكام كأنها تهرب مـــن أحدهم. كان همّها الاختباء في مكان حيث لا يراها أحد... لا تريد التحدّث إلى أحد... تريد فقط الاختباء من كلّ الناس حتى من نفســـها، فها هي في بلد غريب لا تعرف فيه أحدًا، بل تعرف فيه شخصًا واحدًا فقط، تركت حياتَها لأجل أن تراه...

دقائق من الهدوء، وإذ بصوت المحمول يرنّ ويكسر الهدوء عالمةً أنه علي...!! فهو الوحيد الذي يعرف رقمها من الرســـالة التي أرسلَتها له.

التقطت المحمول ويدُها ترتجف وتكاد لا تصدّق، فتحت الخط وردّت ببشاشـــة: «ألـــو!» رَدّ علي بصوت واضـــح ومرحّب وضاحك: «الحمد لله على الســـلامة، يعنـــي عملتيهـــا!!! والله إنك...هههههه» وضحك الاثنان معًا.

ســـألها عن حالها واطمئنّ عليها واتفقا علـــى اللقاء في اليوم التالي.

أغلقـــت المحمول وشـــردت لحظـــات تســـتمتع بصوته وصوت ضحكته اللذين ما زالا يصدحان في أذنيها. فقد انقلب مزاجها وتلاشى

أوّل مخاوفهـــا، فها هو يرحّب بها وينتظرها تمامًـــا كما قال لها... بدا صادقًا بنبرة صوته، وهٰذا كلّ ما أرادت سماعه الآن.

استوعبت أنها في تونس فعلًا وأنها هنا لترى عليًّا وتواجهَ نفسها وحبّها، وتبـــدأ مرحلة جديدة لا تعـــرف إلى أين تقودهـــا... وبعد أن تكسّر بعضُ مخاوفها في ألّا تلقاه وأنه لن يســـتقبلها بشكلٍ مناسب، ارتاحت قليلًا. وتوجّهتْ بنظرها إلى غرفتها ووجدتها شَرِحة وجميلة، فيها ســـرير كبير، غطاؤه ملوّن باللونين الأخضر والأزرق، وفي أقصى الغرفة مقاعد مبنيّة مع الجدار وعليها وسائد بألوان من غطاء السرير... كما لاحظت أنّ باب الشرفة الزجاجيّ خلف الستائر يُطلّ على حديقة الفندق. خرجت إلى الشرفة، لٰكن الظلام قد حلّ، والطقس كان باردًا قليلًا، لذا رجَعَتْ، وأغلقتْ الســـتائر، وقرّرت أن ترتّب ملابسها وتفرز أشياءها.

أنهتْ كلّ شيء واستعدّتْ للنوم على الرغم من أنّ وقته لم يحِن بعد، لأنها لا تريد الخروج أو التحدث إلى أحدٍ وليســـت حتى مهتمّة بسياحة أو تسوّق، هي هنا لسبب واضح، هي هنا لتفهم ماهية علاقتها بعلي وتُمســـك بطرف الخيط، والأهـــمّ هو أنها تريـــد أن تدع عينيها ترتاحان وأن ترى مَن تحبّ.

افتقدت، وهي تجلس، فنجان النســـكافيه الذي عـــادةً ما يلازمها في أوقاتها الخاصة، لٰكنها تردّدت في الطلـــب من الفندق لعدم لفْتِ الانتباه إلى وجودها، أو لأنها ما تزال غير مســـتعدّة للتحدث إلى أحد بعد.

لقاؤهما غدًا، أجل غدًا مساءً، بدا وقت اللقاء بعيدًا جدًّا، سيُنهي عمله ويَلقاها. وصلتْ الليل بالنهار، ولم يغمضْ لها جفن، وهي تفكّر وتضرب أخماسًا بأســـداس، وما لم تدركْه هو أنها كانت تضع نفسَها تحت ضغط نفسيٍّ هي في غِنًى عنه الآن.

نهضت من السرير تفكّر في احتساء فنجان من القهوة أو النسكافيه الساخن ليقلب مزاجها بطعمه المرّ اللذيذ، ولتبدأ به يومًا تأمل أن يكون جميلًا. وقفت أمام الخزانة حائرة ماذا ترتدي، وقد لاحظت أنها أحضرت ملابس كثيرة، أكثر من حاجتها للرحلة، ولم تكن تتذكّر أنها قد وضعتها منذ البدء، فقد كانت كالغائبة عن الوعي في ما يتعلّق بهذا الموضوع، لأنها كانت تركّز على إنهاء أمور عملها وبيتها، وتقاوم الخوف من المجهول في داخلها.

اختارت سروالًا أسود وتي شيرتًا أزرق قصيرًا لمعرفتها أنه يحبّ اللون الأزرق، وسترةً خفيفة سوداء، فالطقس ما يزال ربيعًا، وأحيانًا تهبّ نسماتٌ باردة في أوقاتٍ غيرِ متوقَّعة، وابتسمت عندما نظرت إلى الأحذية الأربعة التي أحضرتْ، هي ليست بحاجة إلى هٰذا الكمّ من الأحذية، أكيد، فمدّة سفرها هي ثلاثة أيّام فقط، لٰكنها كانت تضع أشياءها في حقيبة السفر من دون وعي، واختارت من ضمنها حذاءً أسود طويل العنق عمليًّا ومن دون كعب لسهولة المشي والحركة.

استحمّتْ وجلستْ قليلًا تحت الماء الساخن المنهمر بغزارة على رأسها وجسدها، وتمنّت لو أنّ الماء يُزيل عنها الأفكار المتعِبة. أغلقتْ صنبور الماء وتناولتْ المِنشَفة وبدأت تجفّف نفسَها، ثمّ ارتدتْ ملابسها، وسرّحَتْ شعرَها وتركتْهُ حرًّا فوق كتفيها، ووضعت مساحيق خفيفة، ورشّت عطرًا أهداه لها عماد لٰكنه لا يذكّرها به أبدًا. نظرت إلى شكلها النهائي في المرآة... على الرغم من جمالها لم ترَ سوى الكثير من الألم... تراجعتْ عن المِرآة وبكت.

التفتت إلى الستائر وتذكّرت الشرفة، أزاحتْها ووجدتْ أنّ شرفتها تطلُّ على حديقة جميلة فيها أشجار مُزهرة، ونباتات غنيّة بلونها

الأخضر تحيط بممرّات مرصوفة بعناية وتناسق، مُلائمة للمشي والاستمتاع بمنظر حمّام السباحة الكبير.

في تلك اللحظة جاء طير رماديّ اللون متوسّط الحجم وبدا كلُّه شقاوة، ووقف على أقرب شجرة من شرفتها وبدأ يُصدر أصواتًا مختلفة... ابتسمت قليلًا واستنشقتْ هواء تونس الصباحيّ، وقرَّرَتْ البدء من جديد.

توجّهتْ إلى صالة الطعام لتناوُل الإفطار، والأهمّ احتساء القهوة... وبينما هي تمشي شعرت بالأنظار تتوجه إليها، أو هٰكذا بدا لها، لٰكنها قطعتْ أيَّ نوع من التواصل بينها وبين أيّ إنسان من حولها، حتى التواصل من خلال العيون... فهي وحدها، وفي بلد غريب، والجميع يظنّها أجنبية لأنّ المرأة العربيّة نادرًا ما تسافر وحيدةً بهدف الاستجمام، وأغلب الأحيان، وإن سافرت وحيدة، فهي تكون ضمنَ مجموعةِ أفراد تخصّ العملَ، تمامًا كما سافرت إلى مصر... ولأنّ ملامحها مختلطة ما بين الطابع الشرقي والغربي فهي حنطيّة، أو كما يقولون عنها شقراء... لٰكنها ليست بيضاء... لونها يشبه لون القمح، ومَن مثلها في الأردن يقولون عنها إنها قمحيّة اللون.

توجّهتْ إلى مكان القهوة، كأنها كانت تعرف أين هو من قبل أن تراه، وسكبت لنفسها فنجانًا كبيرًا وابتسمت له واستنشقت رائحته، واختارت طاولةً صغيرة بمقعد واحد تطلّ مباشرةً على حمّام السباحة الذي بدا كاملًا أمامها، وأخرجت هاتفها المحمول من حقيبة يدها مع سمّاعات الأُذن واختارت مقطوعة موسيقيّة تتناسب والصورة وذهبت في عالمها الواسع إلى أقصاه...

لا تعرف كم من الوقت مضى، لٰكنها فكّرتْ في كلّ شيء، ومن الأشياء التي فكّرت فيها... أنها لم تتلقَّ اتصالًا من عماد ولا

حتى رسالة (كالعادة)، لٰكنها تواصلتْ مع الأولاد واطمأنّت إلى أنهم بخير.

أمّا الحدث الأكبر فهو لقاء اليوم، بحيث ستكسر كُلّ قواعد العادات والتقاليد، وستكسر أيضًا حاجز العلاقة الافتراضية، وستخطو خطوةً كبيرة لم يسبق أن خطتها امرأة تعرفها أو سمعتْ عنها سوى في الأفلام. اليوم ستلتقي الرجل الذي تحبّ... أو الغريب الذي عشقه قلبُها، وسكن عقلَها، وشعرت معه مشاعر لم تشعرها نحو أحد من قبل... ها هي تغامر في حياتها وتتحدى القيود الاجتماعية والأعراف التقليديّة مدركة تمامًا أنها ستُقْتَلُ على يد أحد ذكور العائلة إذا عرف ماذا يدور في فكرها ولماذا هي هنا في تونس.

والمشكلة أنّ قتْلها يصبح مبرَّرًا ولا يعاقَب عليه مرتكِبُه بعدالة، لأنّ في قتلها غسل عار العائلة واسترداد الشرف الذي لطَّخَتْه، وعادةً، وفي هٰذه الحالة، لا تقام لها أيّ مراسم للدفن، فقط تدفن من دون احترام. فالمرأة حيث نشأت ندى هي مصدر شكٍّ في نظر الرجل، وأغلبية النساء هناك هن كذٰلك. ولٰكن هناك أسباب أخرى يتعذّر بها الذكر في قتل شقيقته أو زوجته بسبب الطمع، فتُقتل الأنثى للسبب الظاهريّ بحجّة الشرف، بينما السبب الحقيقيّ يكون تقليص عدد الأفراد المستفيدين من الميراث.

في حالة ندى يكون القتل بحجّة الشرف، والسبب أنها أحبّت عليًّا.

كلّ هٰذا لم يهزّ شعرة من شعر رأسها، على العكس، كم تمنّت لو يحصُل! أقلّه تكون قد قُتلت لأجل مَن تحبّ، وفائدة أخرى تراها هي أنها سترتاح من العذاب الذي تعيشه... فبعد أن عرفت عليًّا فقدت الحياة معناها بالنسبة إليها.

هناك وقت إلى أن يحيـن موعد اللقاء. فكّـرت في التجوال في المدينة، رجعـتْ إلى الغرفة وأخذت حقيبة يـد كبيرة نوعًا ما وضعت فيها الكاميرا وكتابًا، «أمّا الدفتر والقلم فهما يلازمانها في حلّها وترحالها دائمًا»، كما وضعت في الحقيبة بعض المكسّـرات غير المحمّصة مثـل اللوز والجـوز مخلوطة مـع الزبيب كوجبة خفيفة تسدّ جوعها قليلًا لعدم معرفتها بالأماكن والمطاعم الجيّدة. لٰكن السـبب الرئيس هو أنها لا تملك شهيّة لأكل أيّ شيء بسبب ارتباك وضعها النفسـي، وهٰذه المكسّرات كافية لأن تُمدّها بالطاقة التي تحتاج ولو مؤقتًا.

توجّهتْ إلى باب الفندق واختارت سيّارة تكسي من بين طابور السـيارات، وذٰلك بالنظر إلى عيني السائق وشـكله. اختارت رجلًا في آخر الخمسـينات مِن عمره باحثًا عن رزقه وليس عن شيء آخر. وطلبت منه أن يأخذها فـي جولة في المدينة تتضمّـن أهمّ المعالم السياحيّة فيها. وبدأت السيّارة بالتحرّك، وبدأت أعصابُها بالارتخاء، فالمدينة بدت جميلة جدًّا. وعلى الرغم من أنها مرّت بذٰلك الطريق يوم أمس إلا أنها لم تسـتطع الالتفـات إلى شـيء حينها. اختلف الوضع الآن، واستقرت قليلًا ورأت المدينة خضراء، والربيع في كلّ مكان، والأزهار فيها في حقول وسـهول، هناك أشجار من مختلف الأنواع على جانبَي الطريق، أمّا اللـون الأصفر فقد كان أكثر الألوان إشراقًا بين الأزهار. مناظر تخطف الأبصار، تبعث على راحة العيون والنفس. وبدأت الطريق تطلّ على البحر، ويا لجمال البحر!!! سهول خضراء وملوّنة تنتهي بمسـاحاتٍ زرقاء صافية تنعكس فوق الأرض على السـماء... إنها أكثر من مناظـر ونباتات أو مـاء... إنها أرواح الأزهار وعطرها، إنها النور والصفاء والحب، إنها الهدوء والصمت... «يا الله!! ما أجملَك يا تونس...» لم تكن تظنّ أنها بهٰذا الجمال أبدًا

فهناك بُعد ثالث غير الطبيعة والبشر، هناك السحر تنثره الرياح فوقها مع كلّ نسمة آتية من البحر كانت أو من اليابسة...

وقعت في حب المدينة بتلك البساطة، أحبّتها كثيرًا وبدأت تهتمّ أكثر، فأنصتتْ باهتمام إلى كلّ ما يقوله سائق التكسي ويشرحه لها عن المواقع التاريخيّة والتراثيّة، ورغبت في دخول المتاحف والمواقع الأثريّة. والتقطت صورًا كثيرة وهي تبتسم لجمال ما ترى، لا تصدّق أن الأزهار البرّيّة بهٰذا الكمّ، وتعيش في كلّ مكان، نسيتْ همّها واستمتعت بالتنقل من مكان إلى آخر بحيث لم يبخل سائق التكسي عليها بمنظر أو بمعلومة حتى الطريفة منها.

وفجأةً رنّ هاتفها. بالتأكيد هو علي، توتّرتْ وبدأ قلبها يخفق بشدّة، وضعفت، لٰكنها يجب أن تردّ عليه، قالت بصوتٍ خافت: «ألو!»

ردّ بحماسة: «ألو... صباح النور كيف الحال؟»

قالت وهي مبتسمة: «بخير، وأنت؟» قال «بخير والحمد لله. أين أنتِ وماذا تفعلين؟»

قالت: «أنا في جولة سياحيّة وقد وصلتُ الآن إلى منطقة قمرت.»

قال: «أنا أنهيتُ عملي باكرًا وأريد أن نلتقي بعد حوالى نصف ساعة في شارع بورقيبة(*) أمام فندق أفريقيا!»

(*) **شارع الحبيب بورقيبة** (نسبةً إلى الحبيب بورقيبة) هو أهمّ شوارع مدينة تونس في الجمهورية التونسيّة. في عهد الحماية الفرنسيّة في تونس حمل اسم «شارع البحريّة» (بالفرنسية: Avenue de la Marine)، ثمّ من عام 1900م حتى الاستقلال اسم «شارع جول فيري» (بالفرنسية: Avenue Jules-Ferry).

يلتقي في شارع بورقيبة العديد من الشوارع الرئيسة: شارع روما وشارع الجزائر العاصمة، وشارع باريس، وشارع مرسيليا، وشارع القاهرة، وشارع محمد الخامس، من جهة شارع جمال عبد الناصر، وشارع اليونان، وشارع قرطاج، وشارع ابن خلدون. =

قالت: «الآن؟ دعني أسأل السائق كم من الوقت نحتاج للوصول إلى هناك.» سألت السائق وقال قد نحتاج إلى ثلاثة أرباع الساعة.

قال علي: «أنا أريد أن أكسب الوقت معكِ لذا حاولي الوصول باكرًا.»

وافقت ندى وانتهت المكالمة، وبدأت بالارتعاش، وانقلبت كلّ مشاعرها.

ونسيت المتعة والطبيعة الخلّابة والراحة... ضاقت بها الدنيا ولازمها شعورٌ لا تُحسَد عليه. طلبت من السائق أن يذهب بها إلى المكان المتفَق عليه، وانغلقت على نفسها وصمتت طوال الطريق.

وبعد حوالى نصف ساعة وصلت إلى العنوان، وأخبرها السائق بأنّ عليها النزول هنا، أي حوالى متئي متر بعيدًا عن باب الفندق لوجود حاجز أمنيّ يمنع الاصطفاف أمام الفندق مباشرةً. دفعت الأجرة وأكرمَتْه لأنه كان بمثابةِ دليل سياحيّ لها ومرافق أمين. نزلت وسط زحام السيّارات والمُشاة، وإذ بسيّارة أُخرى تقف أمام التكسي مباشرة ويترجّل منها علي وشخص آخر، ثم مضت السيّارة ورأت عليًّا يفترق عن زميله. نادتْه من الخلف عدَّة مرّات، وعلى الرغم

= جرت العادة في عهد الرئيس الحبيب بورقيبة أن تقع تسمية الشارع الرئيس في كلّ مدينة من المدن التونسيّة باسم شارع الحبيب بورقيبة. ولٰكن بعد إزاحته عن الحكم عام 1987م، تمّ تغييرُ أسماء البعض من تلك الشوارع. وتحمل الشوارع الرئيسة الكبرى الآن في مداخل أغلب المدن اسمَ شارع البيئة، فيما احتفظ الشارع الرئيس في العاصمة بالاسم نفسه. شهد شارع الحبيب بورقيبة أكبر مظاهرة في الثورة التونسيّة، والتي كان لها الدور الأكبر في هروب الرئيس زين العابدين بن علي بعد أن هدّد المتظاهرون بالتوجّه إلى القصر الرئاسي، وكان هٰذا في يوم 14 جانفي 2011.

من أنها كانت بعيدة عنه بضعة أمتار فقط، إلا أنه لم يسمعْها بسبب ضجيج السيّارات، ولم تستطع الوصول إليه، ولم يلتفت هو إلى الخلف، وصار يمشي باتجاه الفندق بخطوات واسعة وسريعة، لم تصدّق ندى عينيها، ها هو أمامها! إنها تراه! وها هو يمشي مسرعًا ويلتفت يمينًا وشمالًا باحثًا عنها، لٰكنه لا ينظر إلى الخلف... لشدّة سرعته في المشي بدأت المسافة بينهما في الاتساع... فأسرعت ندى خلفه لٰكنه كان أسرع وبحْثه عنها مستمرّ... ولخوفها أن تفقده لأنها أصبحت بالكاد تراه رنّت له من هاتفها، لٰكن مع نبض الشارع وصوت السيارات والناس لم يسمع، فهي ما تزال ترى أنه يلتفت لٰكنه صار على الطرف الآخر من الشارع، ومع سيل السيّارات المتّصل لم تستطع العبور إلى جهته، لذا بقيتْ مكانها حيث صارت أمام مدخل فندق أفريقيا مباشرةً، ورنّت له من هاتفها مرّةً أخرى وهي ما تزال تنظر إليه وتراه.

هٰذه المرَّةَ مدَّ يده إلى جيبه والتقط الهاتف وردّ عليها بسرعة وبصوت قويّ: «ألو!!»

قالت: «أنا كنتُ خلفَك، وها أنا الآن أمامَك، لٰكن على الطرف الآخَر من الشارع.»

رفعتْ ندى يدَها قليلًا ملوّحة لينتبه لها، وبدأ ينظر إلى الجهة المقابِلة إلى أن رآها وقال: «آه، ها أنتِ! رأيتك.»

وضع هاتفه في جيبه، وهمّ بعبور الشارع صوْبها. وفي تلك اللحظة بالذات شعرت بضعف وبأنها على وشك الانهيار أو الإغماء... فها هو بلحمه ودمه أمامها.

عبر الشارع وهو مطأطئ الرأس تارةً، ويلتفت يمنةً ويسرةً تارة أخرى، لٰكنه لا ينظر إليها، فيبدو أنه متوتر أيضًا ويحاول السيطرة

على نفسه وعلى تعابير وجهه. وصل أمامها وابتسم مرغمًا مادًّا يده للمصافحة، صافحَتْه بضعف وتمتمتْ ردًّا على التحيّة. لم تنظر إليه ولم تستطِع قول شيء بعد ذٰلك، فَهِم توتُّرها وبقي صامتًا، لٰكنه قادها في السير معه إلى الأمام، سارا عدة دقائق على الرصيف بين الناس، وكم حمدت الله على صوت ضجيج الشارع حتى لا يسمع أحد صوت الزوابع والاصطدامات في عقلها وقلبها... كان لقاءً غريبًا نوعًا ما، لقاء يخلو من الفرح، وقد طغت الجدّيّة والصمت والألم على قلب كلٍّ منهما.

وصلا إلى ساحة فيها طاولات صغيرة ومقاعد، ويتخلّلها أحواض أشجار متناثرة هنا وهناك، محاطة بالشارع من ثلاث جهات ويظلّلها مبنًى ضخم من الجهة الرابعة. لم تملك الفضول حينها لتسأل عنه، يبدو أنّ المكان وكأنه مقهًى شعبيّ، وسألها: «ما رأيك في أن نجلس هنا؟»

قالت: «لا بأس.» فهي عادةً سهلة التأقلم في البيئة المحيطة ولا تهتمّ لمستوى الرفاهية من حولها ما دام هدفها هو الشخص نفسه وليس العلبة التي تحيطه.

اختارا طاولة صغيرة في طرف الساحة لٰكنها مكشوفة من كلّ الجهات وجلسا. نظرت حولها وشاهدت رجالًا ونساءً وبنات وشبابًا يجلسون براحة ومن دون قيود، أجل هو مكان عامّ وقهوة شعبيّة وخدماتها بسيطة، فالمقاعد تحتاج إلى تنظيف وإعادة طِلاء، والطاولات بحاجة إلى صيانة للتوقّف عن الاهتزاز... لٰكن لا بأس ولا يهمّ، ما دامت معه فهي بخير. أفكار تبادرت إلى ذهن ندى لتبعد عنها وساوس الأفكار الأخرى.

بدأا يتجاذبان أطراف الحديث والسلام والكلام وراحا ينتقلان من موضوع إلى آخر ويستعيدان ذكريات الدورة التدريبية التي حضراها وأيامَهما التي عاشاها في مصر وتذكّرا الزملاء فردًا فردًا حتى أحمد.

بدأ الثلج بينهما بالذوبان، وبــدأت تصرّفاتهما تصدر من منطلق العفويّة، وصارت تخلو من الرسميّات. سألها ماذا تشرب؟

قالت: «قهــوة» فهي هنا من أجــل فنجان القهــوة، قطعت بلادًا وقارّات لتحتسيَ فنجان قهوة مع من تحبّ ولمدة ساعة، فمن الناحية الماديّة إنه أغلى فنجان قهوة في حياتها، دفعت ثمنه تذكرةَ سفر وفندقًا وســيارة وڤيزا. أمّا من الناحية المعنويّة فهو ما يزال أغلى فنجان قهوة في حياتها، فهي تركت أولادها واختارت أن يكون فنجان القهوة أغلى منهم ولو لفترة قصيرة. صحيح! هي ســعتْ واختارت بشدّة أن تكون هنا على أن تكون مع أولادها. وهٰــذا يؤكد لها أنها بالفعل تحبّ هٰذا الرجل ومستعدّة لأن تفعل أكثر من ذٰلك لتكون معه.

أحضر النادل المســتعجل فنجان القهوة وعلبة الكوكا كولا للسيد علي ووضعهما على الطاولة وذهب مســرعًا كما أتــى، ليلبّي طلبات الآخرين. نظرت ندى إلــى فنجان القهوة وضحكتْ، فقد كانت القهوة إسپريسّــو، أي كميّة القهوة في الفنجان تكــون حوالى الثلث فقط من حجم الفنجــان، بدا الفنجان شــبه فارغ، على الرغم مــن أنها طلبت فنجان قهوة أميركيّة سوداء مرّة، لٰكن هٰذا ما جاءها.

تعجّب علي وسألها: «ما الأمر؟» فقد بدا لها من سؤاله أنه ليس بخبير قهوة، أقلّه للآن. شــرحت له الفرق بين القهوتين، وأنّ كميّة القهوة الأميركيّة أو قهوة الماكينة تكون أكبر، وطعمها مرّ معتدل، أمّا الإسبريسّو فتكون الكمّيّة قليلة، والقهوة مُركّزة، ومرّة، وثقيلة. لٰكن في الحالتين الرائحــة تطغى وتعبق المــكان بزكاوتها ونكهتها التي تغزّل بها أعرق الشعراء في قصائدهم، وانشــغل الكتّاب في تأليف القصص فيها، ففي القهوة كلام لا يُقال، وســحر لا يُفسّــر، وطعمٌ أبعادُه لا تتوقف عند الفم واللســان، طعم يتذوّقــه العقل، ويمتصّه القلب، وتفهمه الروح...

فهم علي الفرق بين القهوة التي طلبتْ والقهوة التي على الطاولة، وعرفت منه كونه رجلًا فلاحًا أنه يحب شرب الشاي المحلّى أكثر من القهوة.

وخلال ذٰلك الوقت جاء صبيّ يبيع أزهارًا مكونة من براعم الفلّ مربوطة على شكل زهرة ومُثبتة على عود. براعم الفلّ طبيعيّة، ورائحتها زكيّة، اشترى لها واحدة على الرغم من ممانعتها وأعطاها إياها، شعرت بشعور غير مريح لأنها ليست معتادة أن تتلقى شيئًا من أحد، فهي دائمًا من يبادر من دون أن تنتظر شيئًا بالمقابل، وما حصل الآن كان كأنه واجب عليه أن يقوم به، يشتري لها شيئًا لترضى، أو أنها العادة بأن يشتري الرجل هديّة للمرأة، وفي الوقت نفسه عذرتْه لأنه ليس خبير علاقات ولا يعرف كيف يتصرف، من وُجهة نظره هٰذا ما يجب عليه أن يفعله، قبِلتها وطلبت منه أن لا يفكّر بهٰذه الطريقة معها لأنها أبسط من ذٰلك، أكّدتْ أنها لا تريد منه شيئًا سوى فنجان القهوة.

وبعد دقائق جاء صبيٌّ آخر يبيع النوع نفسه من أزهار الفل، واشترى لها علي زهرة أُخرى، وطلبتْ منه عدم الانصياع إلى الكلام المعسول الذي يستخدمه هؤلاء الصبية ليجبروا الناس على أن يشتروا من دون توقّف، ونوعًا ما خالفها الرأي قائلًا، إن هؤلاء الصبية يبحثون عن رزقهم، ولا حول لهم ولا قوة. كلامه صحيح مئة في المئة، فكّرت ندى، ولٰكنها كانت تحاول أن تجعله يتوقّف عن شراء الأزهار لها... لأنّ ما بينهما يتعدّى ذٰلك بكثير.

أنهيا احتساء القهوة، وبدأ الظلام يتسلّل إلى المدينة والجوّ بدأ يبرد، وقال لها: «لنمض.» سارا مرّةً أخرى، وبدأت إنارات شارع الحبيب بورقيبة برسْم سحرها على المباني والسيّارات والناس والأشجار، فكلّ عمود إنارة في ذٰلك الشارع يحمل قصة جمال في

بلّوْراته الكرويّــة البيضاء الواقفة على عمــودٍ أوروبِّيِّ التراث يحاكي، الأشجار بطوله والقمرَ بظلّه.

تجاذبا أطراف الحديث براحة أكثر، ومن دون رســميّات، وكانت ندى مركّزة كلّ حواسّــها على علي وموجّهة إياها نحوه، كأنها لا تريد حتى أن ترمش كــي لا تُضيع لحظةً من دون أن تراه أو تســمعه، لن تُضيّع ثانيةً معه قد تنــدم عليها لاحقًا، كان يقودها ويمشــي معها لا خلفها ولا أمامها، كان يســير قربها. أحبّت كونها تتحدث إلى شخص يتحدّث معها وإليها، أحبّت أنه كان يحيطها بنظراته، وينتبه لخطواتها، ويوجّه سَيْرها بكلّ أدب واحترام...

وفجأةً، قطع حديثَهما وأوقفَها مكانَها وقال لها وعلى وجهه تعلو ابتسامة ساحرة:

«أنتِ بيــن أخواتِك، اختاري...!» وفتح يديه بحركة اســتعراضية لبقة.

للحظةٍ لم تفهم ما قال، ولم تربط كلماتِه بحديثِهما، لٰكن حركات يديه جعلتها تلتفت خلفها. شــهقتْ ورفعت يديهــا وخبّأت وجهها... فقد كان خلفها وعلى طول الرصيف محلّات بائعي الورود الواحد تلو الآخر... أزهار وورود من كلّ الألوان والأشكال والأحجام...

أعاد كلامه مــرّة أخرى وقال: «هؤلاء أخَواتــك... هيّا اختاري.» عجزَت عــن الكلام حيث إنها مــا زالت تحت تأثيــر المفاجأة. إنها أجمل لحظة تعيشها في حياتها. أدهشها ســحرُه. ثمّ بدأت بالضحكِ وبدأ علي بالضحك أيضًا على الرغم مــن أنّ عرْضَه كان جدّيًّا، لٰكن ردة فعل ندى كانت غير متوقّعة، لقد فرحت كثيرًا ولم تستطع التعبير بأكثر من الضحك والإعجــاب والتقدير لموقفه النبيــل هٰذا وكلامه الجميل. تلك اللحظة أحيت فيها مشاعر فرح بريئة كما لو أنها كانت في العاشرة من عمرها.

وأخيرًا اســتطاعت أن تقول شــيئًا: «قالت فاجأتني مفاجأة سارّة، هٰذه أحلى لحظات حياتي.» بــدا أنه أعجب بردّة فعلها، فالابتســامة ظلّت تعلو وجهه وهو ينظر إليها بشغف.

قالت: «أنا لا أريد أيًّا منها، فأنا امتلكتها بقولك هٰذا.» وفعلًا هٰذا ما شعرت به. انصاع علي لرغبتها بتردّد وأكملا طريقهما بقيادته. قطعا الشــارع واتخذا الجزيرة الوسطيّة في شــارع الحبيب بورقيبة ليكملا سَــيرهما. فالشــارع طويل، والجزيرة الوسطيّة واســعة وعريضة بقدر عشرة أمتار إلى خمسة عشر مترًا، تُحيطها الأشجارُ النضرة والمشذّبة، وأعمدةُ الكهرباء الرائعة بهيبتها التاريخيّة ورقّتها الرومانسيّة. مشيا معًا ذهابًا وإيابًا على طول الشارع عدّة مرّات وتحدّثا في أمور أغلبها عامّ، تخصّ تونس والناس والعمل، وضحــكا وتصرّفا ببراءة الأطفال وبدأا بالتقــاط الأوراق عن الأرض ووضعها في ســلّة المهمَلات، فالمنطقة نظيفة جدًّا إلّا مــن ثلاثة مناديــل ورقيّة أو أربعة وكأس بلاســتيك. تحدّثا كأنّ الكون قد خلا من البشــر فاختفى ضجيج السيّارات العالي وأحاطهما الدفء على الرغم مــن برودة الجوّ، وانحنت أعمدة الإنارة فوقهما بحنان لتُنير دربهما. ولم يشــعرا بالوقــت، إلى أن انتبه علي، ومن باب حرصه عليها أخبرها بأنّ عليها العــودة إلى الفندق قبل أن يتأخر الوقت، فالطريق إليه ليست مأهولة وهو لا يملك سيّارة، وعليها أن تعود. وافقتْه الرأي. أوقف سيّارة تكسي وتحدث إلى السائق يخبره بالعنوان. صَعِدت ثمّ التفتتْ إليه لتودّعه وذهبت.

شعورٌ غريب يعتريها، ها قد انتهى اليوم مع علي، قضت معه وقتًا جميلًا وشــربت القهوة التي أتت من أجلها. لٰكنها حزينة ومتألمة وما تزال تشعر بالضياع والانكسار. هي في ورطة، هي تحبّ هٰذا الرجل، ويبدو أنه من الصعب أن تفهم وتعرف عمق هٰذا الحب، لٰكنها مُدركة تمامًا حجم الورطة التي تعيشها.

قبل أن يفترقا، كانـا قد اتفقا على أن يلتقيا مـن جديد في اليوم التالي في منطقة اسمها سيدي بوسـعيد(*). كان هٰذا الاتفاق أكثر من توقُّعها وسرَّها ذٰلك.

وصلتْ إلى الفندق بأمان وتوجّهتْ مباشـرةً إلى غرفتها وأغلقت الباب، تمامًا كما فعلتْ في المرة الأولـى، أغلقتْ الباب لتختبئ من العالم، وتوجّهتْ إلـى السـتائر وأغلقَتْها أيضًا لتبـدأ بإطلاق العنان لأفكارها العشـوائيّة ومشـاعرِها الصارخة، على السـرير، والأرض، والحيطان من دون قيود. في تلك اللحظة رنّ هاتفها وردّت على علي بصوت هادئ: «ألو!»

جاء صوته الذي تُحبّ، قائلًا: «هل وَصَلتِ؟»

(*) **سيدي بوسعيد**: هي ضاحية سياحيّة تقع على بعد: 20 كلم في شمال شرق تونس العاصمة. تعدّ ضاحية سيدي بوسعيد أوّلَ موقع مَحمِـيّ فـي العـالَـم ويعـود تأسيسُها إلى القـرون الوسطـى، وتقع في أعالي المنحدَر الصخري المطلّ على قرطاج وخليج تونس. يقطنها حوالى 5000 شخص. وتمثّل مكانًا سياحيًّا رائعًا، وتتميز بفنٍّ معماريٍّ خاصّ بها، إذ إنك تجد جُلّ البيوت بهٰذه الضاحية بيضاء، ذات أبواب عتيقة، يغلب عليها اللون الأزرق. كما تحتوي هٰذه الأبواب على نقوش وزخارف عتيقة في غاية من الجمال. تُنسب المدينة إلى وليٍّ صالح هو أبو سعيد الباجي، عاش في فترة معاصرة للشيخ أبي الحسن الشاذلي، وهو مدفون في تونس في ضاحية سيدي بوسعيد المسمّاة باسمه. إلى جانب ذٰلك نجد القهوة العالية، وهي مكان سياحيّ يستقطب العديد من الزوّار المحلّيّين والأجانب، وخاصة في فصل الصيف. يتميّز سيدي بوسعيد بالمشموم التونسي، وأكله البمبالوني. كما يشهد سيدي بوسعيد مظاهر احتفاليّة في فصل الصيفِ كخرجة سيدي بوسعيد، وتتضمّن هٰذه الخرجة فِرقًا من العيساويّة التي تقوم بسرد قصائدَ ومدائحَ ودفوفٍ وبُخورٍ وزغاريد تعلو الأجواء. تعدُّ قرية سيدي بوسعيد مثالًا للهندسة والمعمار التقليديّين، ويوجد فيها العديد من المناطق التي تسهم باجتذاب الزائر، إضافةً إلى أماكن أخرى في القرية.

ـ «نعم.»

ـ «أين أنتِ الآن؟»

ـ «في الغرفة.»

سأل مطمئنًّا: «كلُّ شيء على ما يُرام؟»

ـ «نعم، شكرًا.»

قال مُنهيًا المكالمة: «إذًا، إلى اللقاء غدًا صباحًا إن شاء الله، تصبحين على خير.»

قالت بصوت خافت: «إلى اللقاء، تصبح على خير.»

«أين هيَ فُسحةُ الأملِ التي يعيشُ الناس منتظرين لقاءها...؟؟
وهل يعرف العذابُ معنى الأمل؟»

* * *

كانت ليلة قاتمة بالنسبة إلى ندى، تقلّبت من دون راحة، وفكّرتْ، ورسمتْ حياتها على جدران الغرفة، وذرفتْ دموعًا غزيرة، وتأوّهَتْ، وحزنتْ وصمتتْ، ووَهَنتْ وتألّمتْ... حتى في زيارتها له، الانكسار لم يُصلَحْ، ما زالت تعيش الذروة في العذاب. حياتها انقلبت عليها، وذاكرتها بدأتْ تكشف ما تركتْه منسيًّا لسنين طويلة، وبدأت الملفّات المقفلة والمهمَلة في حياتها تتفتح، ورأت صورًا من طفولتها لا تريد أن تراها، وعاشت من جديد الألم في شبابها، وأدركت القسوة في حياتها الزوجية... والآن بعد أربعين سنة من النكران والتعايش مع واقع أليم، تلتقي برجل فهم ألمَها، واستوعبها، وفتح لها المجال لتكون هي نفسها من دون قيود أو أقنعة، أعطاها الضوء الأخضر لتخرج من قوقعتها المحصّنة، وتنظر إلى حياتها وتُعيد تقييمها. وضَعها في زاوية، وأجبرها أن تُدرك قيمة نفسِها، لا بل وتفتخرَ بذاتها وروحها وشكلها وشخصيّتها...

عندما قرّرتْ أن تأتيَ إلى تونس، ظنّتْ أنها سترتاح، لٰكن ها هي الزوابع والصراعات الداخلية تتكاثر وتهاجمها لطول حبسها. إنها تضعف، وحالتها تسوء. كانت ليلة طويلة ومُرهقة جدًّا. نهضتْ وقررت أن تُلهيَ نفسها بعمل شيء، وقرّرتْ الاستحمام فاتجهت

إلى الحمام، ملأتْ حوض الاستحمام بالماء الساخن، ووضعت فيه صابونًا برائحة الليمون كانت قد أحضرَتْه معها علّه ينعشها قليلًا، ووضعت موسيقى من هاتفها المحمول، وخلعت ملابسَها، وتمدّدت في الماء الساخن بهدوء وبدأت بالاسترخاء. غطّتْها المياه الساخنة وتركتْ وجهَها فوق مستوى الماء، وصارت تسمع صوتَ أنفاسها المتألّمة من تحت الماء، وبدأت دموعُها تنهار من على جنبَي وجهها بهدوء كأنها تعرف طريقها وتتوحّد مع الماء الحارّ لتزيد من لهيبها. يا لورطتها!! إنها تحبّ رجلًا ما يزال غريبًا عنها، ولا تعرف عنه الكثير، رجلًا لا تعرف معنى الكبرياء أمامه، وتستطيع أن تعبّر عن كل ما يجول في خاطرها من أفكار وكلّ ما يعصف في قلبها من مشاعر أمامه، رجلًا اجتمعت فيه كلّ الممنوعات: فهو متزوّج ويعيش في بلد بعيد وثقافة أُخرى، رجلًا عاديًّا جدًّا، ولٰكنّها معه تشعر بالأمان، وترى نفسها كاملة أمامه، والوقت معه يمضي بسرعة، والدفء لا يفارق قلبها، هي المرأة الأنثى وهو الرجل، ورجولَته طغت على كلّ رجل عرفَتْه في حياتها من قريب أو بعيد، معه تأكّدتْ أن لا وجود لرجلٍ قبله في حياتها، ولن يكون. هو الأوّل والأخير.

لا تعرف كم من الوقت مضى وهي تحاول الاسترخاء، لٰكن الماء بدأ يبرد، والبرد بدأ يتسلّل إلى جسدها الخائر القوى، خصوصًا أنها كانت تنسى تناوُل الطعام، مع قلّة النوم، وكثرة التعب النفسي، والمجهود الذي تبذله لتبدو طبيعيّة، وتخفي انكسارها، كلُّها عوامل تسبّب لها التراجع على كلّ المستويات. نهضت وخرجت من حوض الاستحمام، وبدأت تجفّف نفسها، ثمْ ارتدت «بيجامة» قطنيّة دافئة، واختبأت تحت أغطية السرير في محاولةٍ منها لتنام ساعتين أو أكثر، فما يزال هناك وقت حتى بزوغ الفجر.

نامـــت بصعوبة بالغة، واســـتيقظت وفـــي رأســـها مِطرَقة تدقّ بصوتٍ عالٍ من دون توقّف، نظرتْ إلى الســـاعة، وكانت الخامسة والنصف صباحًا، يا لَلإحباط! نهضتْ وتناولتْ قرصين من مسكّن وجعِ الـــرأس، وفتحتْ الســـتائرَ، وتوجّهـــتْ إلى الخزانـــة لتختار ملابسَها لهٰذا اليوم.

اختارتْ قميصًا قصير الكمّين ملوّنًا بدرجات من البيج والأزرق، وســـروالًا لونه بيج يتناســـب وألوانَ القميص. بدأت تسرّح شعرَها، وتضع مرطِّبًا على وجههـــا لتُخفي معارك الليلة الســـابقة، ووضعتْ فوقه بعض المســـاحيق لتشجّع نفسَـــها وتبدو جميلةً، وارتدت حذاءً رياضيًّا مريحًا.

وبما أنّ الجوّ ما يزال ربيعيًّا، ارتدتْ سِـــترتَها الســـوداء الخفيفة، واحتفظت بشـــالٍ أســـود قطنيّ كبير في حقيبة يدها. جلســـت حوالى نصف ســـاعة مقابِل الشـــرفة وهي تحاول قراءة روايةٍ أحضرَتْها معها لتُلهِيَ نفسَـــها بها في أوقات وَحْدَتها، لٰكنّ عينيها كانتا تمشـــيان فوق الكلمات من دون أن يدركَها عقلُها الغائب.

جاء وقت القهوة، فتوجّهت إلى صالة الطعام، ومباشرةً سكبتْ لنفسِـــها فنجانَ قهوةٍ كبيرًا. وتمسّـــكت به كأنه غنيمة، ومشـــتْ إلى الطاولة نفســـها التي جلســـتْ إليها بالأمس، ولأجل الصدفةِ كانت شاغرة. احتست فنجان القهوة بسرعة وســـكبتْ لنفسها فنجانًا آخر. لاحظـــتْ أنّ يدهـــا ترتجف من قلّـــة الأكل، فضغطتْ على نفســـها تجاوبًا مع رغبة جسدها بطلب الغذاء، واتجهتْ نحو بوفيه الطعام، وشـــاهدتْ ما لذّ وطاب من مأكـــولاتٍ تعرفها وأُخـــرى لا تعرفها، لم تشـــتهِ أيًّا منها، لٰكنّها اختارت عدّة أصناف من ذوات الســـعرات الحراريّة العالية لتكســـب طاقة؛ مثـــل الفاكهة المجفّفـــة، والزبدة، وبيضة، وشـــريحة من الخبز. تناولتْ الطعام ببطء واحتست القهوة

وهي تتصفّح الإنترنت على هاتفها المحمول وتردّ على رسائل الأهل والأصدقاء في العمل عن طريق البريد الإلكتروني و«الفيس بوك»، ومن سيقرأ ردّها سيظنّ أنها تُمضي وقتًا طيبًا وأنها محظوظة لتمكُّنها من السفر وحدَها، لٰكنها على أرض الواقع لا تتمنى لأحد أن يكون مكانها ويعيش تجربتها.

الساعة الآن هي الثامنة إلا ربعًا وموعدها مع علي في سيدي بوسعيد هو الساعة التاسعة، ما يزال أمامها وقت لتصل إلى هناك، فقد سألت مكتب الاستقبال في الفندق وعرفت أن منطقة قرطاج حيث هي الآن ليست بعيدة عن سيدي بوسعيد. المسافة الفاصلة لا تتعدى عشر دقائق بالسيّارة إلى هناك.

عادت إلى الغرفة وتمدَّدَتْ على السرير حوالى عشر دقائق تتخبّط هنا وهناك بأفكار غير مستقرة ومشاعر عشوائيّة وصارخة... لم يكن أمامها سوى أن تنزل عن السرير جاثية على ركبتيها وتبدأ بالصلاة والتضرع إلى الله بانكسار وضعف راجيةً رحمتَه أوّلًا، فهٰذا يفوق قدرتها على التحمّل، ثمّ تطلب القوّة والعون والحكمة في التصرّف. لملمتْ نفسها المبعثرة، واستعدّت للخروج وانطلقت إلى بوّابة الفندق، واختارت سيّارة تاكسي، وطلبت من السائق التوجّه إلى منطقة سيدي بوسعيد. هٰذه المرّة كانت الطريق مختلفة، فالأشجار أكثر كثافة، والأزهار في كلّ مكان، والمنطقة بارتفاع، والبحر بدا واضحًا وكبيرًا جدًّا. استطاعت سَماعَ هدوءِ الطبيعة، ورؤية سحرها، وفهْم سرِّها، إنها جنّة، وَصْفُ جمالِها غيرُ ممكن، فالجمال لا يُقال.

وقف سائق التكسي على مرتفَعٍ بين حاراتِ ضيّقة وقال لها: «وصلنا.» دفعت الأجرة، وترجّلت من السيّارة، وأوّل ما شعرتْ به كان البرد، فهناك تيّار هوائيّ سريعٌ وباردٌ يمرّ من فوق الجبل، وفكّرتْ أن

تنبّه عليًّا لأن يرتدي ملابسَ دافئة قبل أن يخرج من بيتهِ مدركة أنه ابنُ تونس، ويعرف الطقس وأحواله خيرَ المعرفة، لٰكنها أرسلَتْ له رسالةً في كل حال.

نظرت حولها وشاهدت زقاقًا ضيّقًا لا تسير فيه السيّارات، تحيطه بيوتٌ مدهونــة باللون الأبيض الناصع، أمّا الأبواب والشــبابيك فهي كلّها ومن دون اســتثناء زرقاء اللــون، لم تصدّق هٰذا الانســجام بين هذين اللونين وألوان السماء والأشجار المزروعة هنا وهناك، والأرض مرصوفة بحجارة مربّعة ملساء تارة، ومفروشةٌ إسفلتًا تارةً أخرى. كان ذاك من أجمل ما رأت في حياتها، بلدة كاملــة وفق النمط المعماريّ نفســه، بدأتْ تســير في الزقاق وتستكشــف الحارات، الواحــدة تِلْوَ الأخــرى، البيوت تختبــئ وراء أبواب زرقاء كبيــرة الحجم، مزخرفة بمسامير سوداء دُقَّتْ بأشــكالٍ جميلة، تعلوها الأقواس بطريقة تعكس الطابع التونسيّ وتراث هٰذا البلد العريق.

احتارت حيال هٰذا الجمال، فهي واقعةٌ قي حُبّ المدينة، لٰكن أن يكون الجمال فارضًا نفسه بهٰذه الصورة القويّة فذاك ما يُعجز اللسان! وأفضل شــيء فكّرتْ فيه في تلك اللحظات هو التقــاط الصور لكلّ زاوية ولكل باب أو شبّاك تراه، واســتمرّت على السَّيْر من حارة إلى حارة والتنقّل من زاوية إلــى زاوية إلى أن وجدت نفســها تقف عند أعلى قمّة الجبل تنظر إلى مرفأ قوارب ويُخوت يشــبه في رَسْــمِهِ عن بُعد القفص الصدري للإنسان، وبالفعل هو منظر ينعش الصدر ويشرح القلب، لم تصدّق ما تراه. وقفتْ تحت شجرة بعيدًا عن عيون المارّة، وقفت بصمتٍ ومن دون حركة وظلّتْ تنظرُ إلى البحر والمرفأ. وفجأة ومن دون سابق إنذار أجهشت للبكاء العميق، حالتُها لا تُبشّر بالخير. كأنّ الصورة والجــوّ والحارات متفقة علــى أن تُبكيها، إما من جمال ما ترى، أو لأنها شــعرتْ أنها لم تعد تنتمي إلى مكان في العالم إلا

إلى هٰذا المكان... شعرتْ بأنها نسمة هواء منعشة، وموجةُ بحرٍ دافئة، وظلّ شجرة حنون، شعرتْ بأن روحها علِقَتْ وستبقى هنا... فالمِنطقة خطفتْ روحَها منها، وهي لم تجرؤ على مقاومة هٰذا الاختطاف.

تماسكت قدر المستطاع، ونظرت إلى الساعة في هاتفها المحمول، ووجدت أنها ما تزال التاسعة إلا ربعًا. بدأت بالمشي عائدةً إلى النقطة التي وقفت عندها سيّارة التاكسي، وما إن وصلتْ حتى شاهدتْ عليًّا يمشي صاعدًا الجبل صوْبَها، بالتأكيد تسارعتْ دقّاتُ قلبها، فشبكت يديْها أمام صدرها في محاولةٍ منها للسيطرة على نفسها وضبط توتّرها، واختبأت خلف ابتسامة مترددة. هٰذه المرَّةَ بدا علي مبتسمًا أيضًا وهو ينظر إليها مباشرةً، وصل وحيّاها وهو يلهث بأنفاسه، لأن الطريق في صعود، ضحكا معًا على هٰذا الموضوع وبدأا بالسّير، وتولّى هو القيادة كالعادة. مشيا في الزقاق والحارات، وعبّرا عن مدى جمال المنطقة، وشرح لها بالتفصيل تاريخ البلدة، وأنّ الحكومة لا تسمح باستخدام أيّ لون غير اللونين الأزرق والأبيض للحفاظ على طابع البلدة الذي يميّزها عن الكثير من المدن والمناطق. وسارا إلى الشجرة نفسها التي وقفتْ تحتها، واستمتعا بالنظر إلى المرفأ، وشرح لها أهمّ معالم تونس العاصمة، والقصر الرئاسي، ومواقع مهمّة، ومِن أهمّها منطقة مرناق حيث بيته.

وبينما هما واقفان أعطاها كيسًا فيه تمر كان يحمله معه طوال الوقت، وقدّمه لها لأنه يحبّه، ولأنهما في مرّة من المرّات تحدّثا عن سرّ لون خدَّيْه المتوردَيْن بلونٍ صحّيٍّ يتناسب مع رجولته وبَشرته السمراء، وقال لها إنه يحبّ التمر ويأكله دائمًا. تذوّقا بضع حبّات من الكيس وعادا للسير من جديد.

سار بها إلى مقهًى يقع في بطن الجبل ويُطلّ على البحر والمدينة والمرفأ مباشرةً. جالت بعينيها مذهولةً بجمال ما ترى وهي تسبّح

الله على عظيـــم صنْعه. الطبيعة تشـــكّل ثلثي المدينـــة، وصفة الهدوء التي لمسَـــتها في الناس هناك مصدرُها هٰذا الجمال بلا شك. شعرت باحتضان الطبيعة لها بكلّ حنان ودفء.

أن تكون في وســـط هٰذا الجمال مع أكثر إنسان تحبّه في العالم، شعور فاق أيَّ إحساس عاشَته أو تصوَّرتْ أن تعيشه يومًا.

وُلدت ندى ونشـــأت في الأردن(*)، هٰذا البلـــد الصغير الذي كافح

(*) **الأردن**: رسميًّا المملكة الأردنية الهاشمية [5]، دولة عربية تقع جنوب غرب آسيا، وتتوسط الشرق الأوسط بوقوعها في الجزء الجنوبي من منطقة بلاد الشام، والشمالي لمنطقة شبه الجزيرة العربية. لها حدود مشتركة مع كلٍّ من سوريا من الشمال، فلسطين التاريخيّة (الضفّة الغربيّة وفلسطين المحتلّة) من الغرب، العراق من الشرق، وتحدّها شرقًا وجنوبًا المملكة العربيّة السعوديّة، كما تُطِلّ على خليج العَقبة في الجنوب الغربي، حيث تطلّ مدينة العَقبة على البحر الأحمر. ويُعتبر هٰذا المنفذَ البحريَّ الوحيدَ للأردن. سُمّيت بالأردن نسبةً إلى نهر الأردن الذي يمرّ على حدودها الغربيّة. يُعتبر الأردن بلدًا يجمع بين ثقافاتٍ ولهَجاتٍ عربيّة مختلفة بشكلٍ لافتٍ، ولا تفصِله أيّ حدود طبيعيّة عن جيرانه العرب سوى نهر الأردن ونهر اليرموك اللذين يشكّلان على التوالي جزءًا من حدوده مع فلسطين وسوريا. أمّا باقي الحدود فهي امتداد لبادية الشام في الشمال والشرق، وصحراء النفوذ في الجنوب، ووادي عربة إلى الجنوب الغربي. تتنوّع التضاريس في الأردن بشكلٍ كبيرٍ، وأهمّ جباله جبال عجلون في الشمال الغربي، وجبال الشراة في الجنوب. أعلى قمّة فيه هي تلك الموجودة على جبل أمّ الدامي (1854 مترًا)، وأخفض نقطة هي في البحر الميت والتي تعتبر أخفضَ نقطة في العالم.

أسّس الأمير عبد الله بن الحسين عام 1921، إمارة شرق الأردن بمساعدة بريطانيا، وكانت خاضعة آنذاك لفلسطين الانتدابيّة، واستقلّت عام 1946، ونوديَ بالأمير عبد الله ملكًا عليها، فعُرفت منذ ذٰلك الحين باسم المملكة الأردنيّة الهاشميّة.

النظام في المملكة الأردنيّة الهاشميّة هو نظام مَلَكيّ دستوريّ مع حكومة =

ليصمد أمام عقَبات الزمن، وخطّ نفسه بالخطوط العريضة على صفحات التاريخ. بلد مِضياف، وأهله أهل كرم وطيبة على الرغم من شحّ موارده الطبيعيّة، فلا مـــاء ولا غابات إلا القليل القليل. الصحراء تشـــكّل ثلثي أراضيه، والنفط يُشترى من الجوار، والصناعة أغلبها غذائيّة، بلد يصارع لقوته اليوميّ لٰكنه قويّ، كما غنّت له العملاقة فيروز: «في حجم بعض الورد إلا أنه، لك شوكةٌ ردّت إلى الشرق الصبا.»

كلّ ما تراه جديد بالنسبة إليها، مع إنها سافرت إلى عدّة بلدان، لٰكن أن ترى هٰذه الطبيعة الخلّابة بطابع عربيّ شرقيّ، يجعلها تشعر بالفخر.

جلسا معًا على مقاعد طويلة لونها أبيض، مبنيّة مع الجدار وعليها وســـائد إســـفنجيّة مغطّاة بقُماش باللونين الأزرق والأخضر بشـــكل مســـاطر. جلســـا تحت الشـــمس يقابل أحدُهما الآخر بحيث يستطيع كلاهما رؤيـــة البحر والمرفأ، وبـــدأا يتجاذبان الحديـــث حول الأمور الخاصة بهمـــا، فهي بدأت بتعرّفه أكثر لأنهـــا لا تعرف عنه إلا صفاته العامّة، وشعورها القويّ بالقرب منه والأمان معه، بينما هو يعرف عنها الكثير من خلال رسائلها المســـتمرّة. قطع النادل حديثهما وسأل ماذا يطلبان، واجتمع الاثنان على فنجاني قهوة، نسكافيه سادة لها، وقهوة تركيّة(*) مع ماء الزهر له.

= تمثيليّة. يمارس الملك سلطته التنفيذيّة من خلال رئيس الوزراء ومجلس الوزراء، الذي هو في الوقت نفسه، مسؤول أمام مجلس النواب (المنتخَب) ومجلس الأعيان (المُعيّن من قِبَل الملك) واللذين يشكّلان السلطة التشريعيّة للدولة. هناك أيضًا السلطة القضائيّة المستقلّة.

شارك الأردن في مؤتمر مدريد عام 1991، وبعد أن وقّع الفلسطينيّون اتفاقيّة أوسلو مع الجانب الإسرائيلي عقد الأردن معاهدة سلام مع إسرائيل عام 1994.

(*) **القهوة التركيّة**: القهوة التركيّة هي طريقة لتحضير القهوة بحيث يتمّ غلي مسحوق حبوب القهوة المطحونة في إبريق، مع إضافة السكّر (حسب الرغبة)،

وهٰكـذا بدأ مشـوار يوم طويل ممتـع ومؤلم لكليهمـا، أول ما تفاجأت به ندى كان تحوّل تعابير وجه علي من البشاشة إلى الصرامة، فقد عرفتْه بوجه تعلوه ابتسـامة سـاحرة لا تُقاوَم، ماذا حصل؟ عللت ذٰلك أنه أيضًا يشـعر معها بالأمان ولا يمانـع أن يُدخلها في تفاصيل حياته الشـخصيّة العامّة والخاصّة ولا أقنعة بينهما. فقد بدأ بالحديث عن أوجاع جسـديّة يعيشها ولا يعرف لها سـببًا لأنه دائمًا يضع نفسه في آخر أولويّات حياته، فهو يلبّي حاجات الجميع إلا حاجاتِه، فيصبر على الأوجاع ولا يُسـمع شـكواه لأحد. كما أنه يجدّ في عمله وتقع على عاتقه مسـؤوليات كبيرة، لأنه من النوع الغيور على بلده لتنهض من الحسَن إلى الأحسـن دائمًا، هو مِثالٌ يُحتذى لتفانيه وإخلاصه في عمله، ولطموحه الكبير، فهو واسـع الأفق. كمـا وأن عليه عبئًا كبيرًا على الصعيد العائلي، فلديه ثلاثة أطفال، منهم طفل لم يتعدّ السنتين، ويقوم على الإشـراف المباشـر في تربية أولاده والاعتناء بهم وتلبية حاجاتهم، تمامًا كما يجب أن يكون أيّ أب داعم لزوجته العاملة.

أمّا علـى صعيد حياته الزوجيّة، فالوضع غيـر مريح أبدًا، لأنّ الحياة وهمّهـا أخَذاه بعيدًا عـن التفاهم والتواصـل الصحيح مع زوجته، علي غير سـعيد أبدًا لأنه لا يتَلقّى الاهتمام الذي يستحقّ

قبل تقديمها في فناجين صغيرة ذات يد يستقرّ في قعرها حثل القهوة، وصحن صغير، وتعتبر فناجين القهوة التركية الأكثر شهرةً في زخرفتها. وأكثر ما يميّز القهوة التركيّة هو ذٰلك الوجه الذي يظهر على السطح، ويسمّونه في بعض الدول العربية (الوشّ) وهو عبارة عن رغوة تطفو على سطح الإبريق عند الغلَيان. هٰذه الطريقة لتحضير القهوة معروفة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والقوقاز والبلقان.

على الرغم من أن كلمة قهوة ذات أصل عربيّ، إلا أن ثقافة المقاهي قد ظهرت أيام الدولة العثمانيّة حين كانت هٰذه هي الطريقة الرائجة لتحضير القهوة.

من الزوجة، وزيادةً على ذٰلك بدأت علاقتهما بالابتعاد عن الاحترام المتبادل في ما بينهما، فزوجته تصرخ وتستعمل ألفاظًا تخلو من الاحترام، ودائمًا تظهر عصبيّة، لٰكن أكثر ما يزعجه هو أنها لا تُبادر بالاقتراب منه أو تقليص الهوّة في ما بينهما. هي دائمًا بانتظار مبادراته وتنازله إلى أن يئسَ، خصوصًا بعد أن ابتعد مجرى التواصل في ما بينهما عن الاحترام. وبدأ علي من جانبه بالتعامل معها بالمثل، ما زاد الطين بلّة، فهو في العادة يمتصّ تقلّب مزاجها ويقبل إهانتها، لٰكن مؤخّرًا طفح الكيل، ولم يعد يقبل التنازل، ما الجديد؟ ظهرت سيّدة أخرى رأت أنه يستحقّ حياةً لا يجب أن يُعامَل بها سوى بأنه سيّد، ولا يجب أن تكون تحيّته إلا بانحناءة رأس احترامًا، وقبلةِ يدٍ حبًّا، وضمّة صدر حنانًا، ومسحةِ جبينٍ عطفًا. الواقع لم يعد يُحتمل وها هو يحاول السيطرة قدر المستطاع على مشاعره المتناقضة.

وهٰذا خطأ حوّاء المتكرر، فهي تريد اهتمام الرجل بالقوة، وتطلبه منه بالصوت العالي، وعندما يبادر الرجل بالاقتراب من زوجته تصدّه بكشرة حادّة، ولا تفكّر في أنه بذل مجهودًا نفسيًّا ليقترب منها وليتخطى الموقف السلبي. بعد عدّة تجارب، يفقد الرجل الرغبة حتى في المحاولة، ويختصر النقاش، ولا يعود إلى الالتفات إلى زوجته أبدًا، ما يثير حنق الزوجة ويجعلها تتصرّف بعصبيّة وبلا احترام تجاه الزوج صارخةً طلبًا لاهتمامه.

في ذٰلك اليوم، بدأت ملفّات الألم باستعراض نفسها، الواحد تِلْوَ الآخر تدريجيًّا. وبدا لندى وهو يتحدث بأنه قد هَرِمَ فجأةً، لٰكنه ما يزال الرجل الذي أحبّتْهُ، ولٰكنّها أحبَّتْهُ أكثر عندما بدأت تشعر بالتشابه ما بين حياتها وحياته، ابتداءً من سنة الميلاد، فهما من مواليد السنة نفسها والشهر نفسه، وهو يكبرها بأربعة أيام فقط. وفيما

هما يتحدّثان أحضر النادل القهوة. وتحدّثا عنها وعن طعمها، وتبادلا رشـفةً، كلٌّ من فنجان الآخر، وتعجّبَتْ من نفسها لأنها لا تقبل أبدًا أن تشارك شـخصًا آخر بكأس أو ملعقة أو فنجان، لٰكن معه تقبلت الأمر من دون أن تفكر.

مـع القهوة غيّـرا مجـرى الحديـث، وتحدّثا عن الموسـيقى والأغاني والشعر، تحدّثا من دون توقف، وأصغى أحدهما إلى الآخر بكلّ اهتمام واحتـرام. والأجمل أنّ الجوّ المحيط الهادئ والنسـيم المنعش المعتدل كانا يشجعان على راحة الحديث والانطلاق بالتعبير عن النفس.

قال لها: «هيّا بنا لِنَسِـرْ»، صعدا إلى حيث التقيا ومشيا إلى زقاق قريب كشـف عن ممرّ، درج متعـرّج محميٍّ بأسـوار منخفضة على الجانبين، وخلف هٰذه الأسـوار تعلو أشـجار كثيفة ونباتات مختلفة ومن ضمنها الصبّـار. يصل طريق الدرج هٰذا إلـى المرفأ، فطوله كما قدّرَتْه ندى حوالى ألف وخمسـمئة متر، ممرّ يشبه ما تراه في الأفلام والأحلام في سـحره ورائحة الهواء فيه، هواء فيه طعم الحياة. انبهرت بما رأت، وبدا علـي فرحًا لانبهارها فطلـب أن يصوّرها ولم تمانع، وبدأ بالتقاط الصورة تلـو الأخرى لها، وطلب منها الوقوف هنا تحت شجرة والالتفاف عند سـور الدرج هناك، والنظر إلى عمق الوادي... شعور غريب بالنسـبة إليها أن تقبل أن يصوّرها رجل فالحال قد تغيّر. في السـابق كانا في البرنامج التدريبي، وقد استغربت انصياعها وعدم ممانعتها، فهي معه دائمًا تشـعر بالأمان. وضحكا معًا وتبادلا الأدوار، لٰكنها صوّرَتْه مرّتين فقط لأنها شعرت بالخجل الشديد.

الحديث بينهما لم يتوقف، بل استمرّ بانسجام وراحة وتنوّع، مشـيا إلى أن وصلا إلى مستوى سـطح البحر، وعند باب المرفأ اتخـذا ممرًّا آخر يلتـفّ حوله وينتهي بشـاطئ البحـر. اصطفت

القوارب واليخوت الفاخرة بلونها الأبيض فوق ماء البحر الصافية، وتحدّثا عن هٰذه اليخوت، واستمتعا بأشكالها، وقارنا في ما بينها. في نهاية الطريق، وصلا إلى شـــاطئ رمليّ بديع كأنه لم يُمسّ من بشـــر، لم تقاوم الانحناء ولمس الرمل الذهبي بيديها، بل وبقيتْ غير مصدِّقة صفاء ماء البحر، وزُرقةَ لونه الكريســـتالي، وانعكاس المياه تحت أشعّة الشـــمس الذهبيّة... فالطقس كان دافئًا جدًّا على الشاطئ. خلعت سترتها السوداء وشـــعرتْ كأنّ الربيع يأتيها بعطره مع كلّ هبّة نسيم بحر تدور فوق ذراعيها تلمسها وتداعب شعرها، استغلّ علي انســـجامها مع الطبيعة وعاد يحيطها بعدسة الكاميرا، ويلتقط لها صورًا من دون توقف. ولازمها الشـــعور السابق نفسه، لٰكنها أصرّت على أن تعيش معه كلّ لحظة ممكنة من دون التفكير في ما يجوز أو لا يجوز، فهو بالنســـبة إليها بيـــت أمان، ومعه لا حساب ولا دَيْن.

بدأ مشـــوار العودة إلى الجبل مرّةً أخرى، وبدأا بتسلق الأدراج، وعلا صوت أنفاســـهما، وصار أحدهما يشـــجّع الآخر على الاستمرار في الصعود، وضحكا لأنهما بحاجة إلى التمرين واللياقة البدنيّة العالية لتتناســـب وطولَ ممرّ الدرج، لٰكنّ عليًّا بدا أكثر قوّة ونشاطًا من ندى، فقد اســـتمرّ يشـــجّعها على الصعود حتى إنه حمل عنها حقيبة يدها، ومع ذٰلك شـــعرت بالتعب، وتوقّفت في أكثر من مرّة للحظات تلتقط أنفاسها. فالدرج منبسط في أماكن وحادٌّ بشدّة في أماكن أُخرى، وعند إحدى الدرجات الضيّقـــة والحادة اختلّ توازنُها قليـــلًا، وتعجّبت من سرعة ردّة فعله ـ مع أنه كان يمشـــي موازيًا لها ويتابع خطوات قدميْه حرصًا مـــن الانزلاق ـ مدّ ذراعه خلف ظهرها بلمح البصر ليســـندها. على الرغم من أنّ كلّ شـــيء حصل بسرعة، لٰكنها استطاعت أن تشعر بقوّة ذراعه وصلابتها التي شعرت وكأنها اخترقت جسدها بحنان.

استمرّا على الصعود كأنّ شيئًا لم يكن، فلا مجال أبدًا لإيقاظ الجانب الحسّيّ في علاقتهما، فلدى كلٍّ منهما جسد الشريك، وهما ليسا بحاجة إلى الملموس، لأنّ ما بينهما يصعب على الناس فهمه. ندى كانت واضحة جدًّا قبل قدومها بأنها لا تسعى إلى أيّ مكاسب من علي، على العكس، هي في حياته أداة خير، وإذا سمحا للملموس في علاقتهما، خسر أحدهما الآخر، أو على الأقلّ أصبحا مثل أيّ اثنين في علاقة أرضيّة لا يميّزها شيء.

أيّ امرأة تحبّ أن يتصرّف معها الرجل بهٰذه الطريقة؟ فعلي في نظر ندى رجل كامل، فيه الوسامة والجاذبيّة وحسن الخلق والاحترام، هو رجل، وهٰذه الكلمة التي كانت تنقص كل الرجال الذين مرّوا في حياتها.

ما تعيشه ندى مع علي هو حلم. ماذا لو أنّ عمادًا زوجها مشى واحتسى معها فنجانًا من القهوة؟ ماذا لو أنّ الرجل عاش لحظاتٍ بسيطة كتلك مع امرأته؟؟ فما تعيشه مع علي الآن ليس لأنّ زوجها لا يحرص عليها بهذا الشكل. لا! إنه إنسان مختلف، وكلّ لحظة معه هي نقطة تحوّل للأحسن، وما تعيشه مع عماد هو روتين قاتل من الإهمال ونكران الجميل والعلاقة القائمة على المصلحة الماديّة أولًا ثمّ الجنسية ثانيًا. فلا مجال للمقارنة بينهما. هٰذا شيء وذاك شيء آخر، فعندما أحبّت عليًّا لم تكن تبحث عن حشوة لملء النقص في حياتها، ولم يكن واردًا في قاموسها أن تتوجّه بعواطفها إلى رجل خارج نطاق الزوجيّة وإن كانت على غير وفاق مع زوجها، البديل لم يكن واردًا أبدًا، وعلي ليس بديلًا.

لم تكن تعرف عليًّا عن قُرب حينها، كانت تتعرّفه من خلال الكلمات والسطور التي يكتبها في رسائله لها، ومنذ أن رأته في تونس، لم تشعر بأنه يتصنع الحركة، أو يحاول إبهارها بشيءٍ ليس

فيه، هو يتصـرّف على طبيعته، علـى الرغم من أنـه كان متوترًا في مواقـف، خصوصًا عندما تقابلا في اليوم السـابق، لٰكنـه كان طبيعيًّا وعاديًّا ما جعلها ترتاح وتتصرف معه بكلّ براءة وعفوية وأمان.

لـم يكن هنـاك مجـال للمقارنة، فقـد كانت تطلب مـن عماد الانضمام إليها لاحتساء القهوة في البيت أو خارجه على الدوام، لٰكنه كان دائمًا يجد الأعذار ويذهب لمشـاهدة التلفاز، أو يتحجّج بالتعب عندما تطلب منه الذهاب في جولة مشـي قريبة علـى الرغم من أنها لبقة، وتختار الأوقات المناسـبة لهٰذه الأمور، إلى أن جعلها تيأس من الطلب وتنسى الموضوع.

هناك نشـاطات صغيرة، تخلو من الأعباء المادّيّة أو الاجتماعيّة، ومفعولها كبير بين الأزواج خصوصًا في النساء، فتشعر المرأة بأنوثتها، وينعكس ذٰلك اهتمامًا وعطاءً لرجُلها. لٰكـن لا حياة لمن تنادي. من هنا بدأت ندى تشـعر كم أن زوجة علي محظوظة بالفعل لأنها تعيش مع رجل يقدّر المرأة ويعرف حاجتهـا من دون أن تطلب. لكن، ومن جهة علي أيضًا، لا حياة لمن تنادي.

وجدتْ الشـخص المناسـب فـي الوقـت الخطأ، فهـي ترى بوضوح أنّ عليًّا يعيش حياة مماثلة لحياتهـا لأنّ زوجته تحبّ المادّة والملموس، وتلومه على أقلّ أنواع التقصير، وتحاول أن تَحُلّ مواقف سـوء التفاهم في ما بينهما بالصوت والهجوم الجارح الذي يخلو من الاحتـرام، وعلى الرغم من أنـه اختارها وتزوّجها عـن حب، إلا أن طريقهما أخذت منعطف الإهمال والعدائيّة في ما بينهما، ومع الوقت استسلما وتوقّفا عن المحاولة لإنقاذ زواجهما.

تجربته هٰـذه ذكّرت ندى بنفسـها، وكيف كانـت علاقتها بعماد تسير بشـكل سـيئ وتخلو من الاحترام، إلى أن قررت السيطرة على زمام الأمور، وتركت الموضوع لإرادتها الحديدية التي لم تخذلها في

حياتها قطّ. وأصرّت على البدء من جديد في حياتها الزوجيّة، فخلت لغتهما من الألقاب غير المُستحبّة وسادها الاحترام على الرغم من أن الإهمال موجود أحيانًا. مع الصبر والإصرار والمجهود الذي فاق العادة، نجحتْ ووصلتْ إلى النتيجة التي رجتها من علاقتها بعماد، فالعنف توقّف، والشك اختفى، والاحترام فرض نفسه، والغيرة ما تزال لٰكنها تحت السيطرة.

ما فعلتْه ندى هو أنها لم تأخذ دور «المظلومة» وتجلس مستسلمةً تندب حظّها! لا، بل قامت على استبدال الشكوى بإيجاد الحلول. ففي مجتمعنا الشرقي، وعندما يقسو الزوج على المرأة، تذهب المرأة إلى والدتها أو جارتها أو صديقتها، وتبدأ الشكوى، وتلبَس ثوب المظلومة، لٰكن ما لا تعيه هو أنّ عليها إيجاد الحلّ لتغيير سلوك الزوج بطريقة ذكيّة، ومن دون أن تكشف السترَ عنه، وتنشر غسيله هنا وهناك، وهو آخر من يعلم. وعندما تصطلح الأمور في ما بينهما تخجل المرأة من أن تعامله بالحسنى أمام من نشرَتْ غسيله أمامهنّ، ما يزيد الطين بلّة ويجعل العلاقة تتعقد والفجوة تكبر.

في كثيرٍ من الأحيان لا نستطيع أن نلوم الرجل أو المرأة، لأن البيئة التي وُلِدا فيها هي بيئة متوارثة أبًا عن جدّ، فالرجل دوره الآمِر والناهي، والمرأة دورها المظلومة والعبد المأمور، والزواج لا يأتي معه كتاب تعليمات يشرح دورَ كلٍّ منهما أو يضع حلولًا لمواقف سوء الفهم التي يتعرّضان لها بشكل يوميّ. العلاقة وضعت في قالب بالٍ وحُكم عليها قبل أن تبدأ، علمًا بأن المرأة لا تختلف كثيرًا عن الرجل، لٰكن الفارق الاجتماعي والثقافيّ جعل منهما كائنات فضائيّة يأتي كلُّ نوع من كوكب مختلف.

إذًا، ندى وعلي متشابهان أيضًا من حيث العلاقة الزوجية: عطاء من دون حدود، ولا ينتظران مقابلًا من الشريك، فهو مصدر

إحباط، ويتعامل بإستراتيجيّةِ الهجوم في التعامل، والحكمِ على الآخرِ من دون التقييمِ الذاتي، والتراجع أو التنازل لكسب الطرف المقابل.

وأخيرًا وصلا إلى قمّة الدرج وهما منتشيان من الحركةِ والمناظر الجميلة والحديث الشيّق في ما بينهما، وبدت حركة سَيْرِ الناس أكثفَ منها على الدرج الذي كان في كثيرٍ من الأحيان يخلو من المارّةِ إلا منهما. وهنا أعاد علي لندى حقيبة يدها التي حملها ليخفف عنها التعب. استمرّا على السير في الطريق نفسه الذي أتيا منه حتى وصلا إلى عين مياه عذبة كائنة على طرف الطريقِ يحيطها حوض حجريّ نظيف وسطَ متنزّه صغير. كان هناك رجل يغسل عبوة ماء، وعندما شاهدهما بادر وعبّأها ببعض الماء، وقدّمها إلى علي، شكره الأخير بدوره وناول ندى العبوة لتشرب، فرشفتْ مرّة واحدة واكتفت، ثُمّ أعادتها لعلي فشرب وأخذ كفايته، وشكرا الرجل، وأكملا طريقهما. لم يبتعدا كثيرًا، فقد وصلا إلى ساحة صغيرة دائريّة الشكل فيها مقاعد حديديّة زرقاء جميلة وواسعة، موزّعة على محيطها بحيث يتقابل الجالسون، لٰكن لكلٍّ خصوصيّته بسبب المسافات المتباعدة ما بين المقعد والآخر، وفوق الساحة هنالك عريشة تعلوها أغصان (المدادة) وأوراقها تنعكس ظلًّا على الساحة والمقاعد، وتتوسّط هٰذا المكان بركة ماء صغيرة فيها نافورة.

قال علي: «لنجلس ونرتح قليلًا.» كم أحبّت ذٰلك، ليس لأنها تعِبة من طول المسافة التي قطعاها مشيًا، لا، بل لأنّ المشهد أمامها يذكّرها بمشاهد من الحدائق التي مشى فيها عبد الحليم وفاتن حمامة في أفلامهما المصوّرة بالأبيض والأسود. جلسا ولم تصدّق أنّ هٰذا المكان الساحر موجود أمامها الآن، منظر جميل

جدًّا، ونظيـف، والناس هناك يسـتمتعون ويتنزّهـون براحة تامّة، والأطفال يتحرّكون بحرّيّـة حول بركة الماءِ ويضعون أيديهم تحت النافورة لتبتلّ.

جلسا وبدأا يتحدّثان ويتبادلان خبرات حياتهما العمليّة والخاصّة جدًّا، فتحدّثا بشـكلٍ أعمق عن علاقـة كلٍّ منهمـا الزوجيّة، وطبيعة تعامل كلٍّ منهما مع شـريك حياته، وكلّما تحدّثا ظهر التشابه بينهما أكثر وضوحًـا، لا بل ظهر هناك تطابقٌ فـي التصرّفات، فمثلًا كلاهما من محبّي الكتب والقراءة والكتابة، ويشتريان كتبًا أحيانًا ولا يقرأانها، فقط من باب الاطمئنان إلى وجود تلك الكتب، إلى أن يحينَ الوقت المناسـب لقراءتها، فوجود هٰـذه الكتب بمثابة منظـر مريح ومصدر استقرار، لٰكن شريك الحياة يعتبر هٰذه الممارسة خسارةً ماديّة، والكتب من دون قيمة، ويجب أن لا تُشترى، وإن حَصل فيجب أن تُخبّأ بعيدًا عن العين، فالشـريك لا يحبّ القراءة ولا يفهم البُعد الثالث أو يراه، لأنّ البُعد الثالث هو ما يربط ـ شخصين أو جمادين أو نبتتين ـ بطرف ثالث غيـر ملموس لٰكنه محسـوس. واجتمع الاثنـان على نقطة بأن زوجها وزوجته يحبّان المال بشدّة، ويحسـبان الحياة أرقامًا ودراهم، أمّا هما فيحبّان الموسـيقى والطبيعة، يحبّان البحر والسـباحة، يحبّان التصوير والسفر والحرّيّة، يحبّان الوحدة لأنها ملازمة لكلٍّ منهما منذ الصغر، هو يحـبّ التمر وهي تحبّ القهوة، هـو يحبّ اللون الأزرق وهي تحبّ البنفسـجي، هو يحبّ السيّدات ذوات الشعر الغامق لٰكنّها شـقراء، فكسـرت القاعدة، وحدّثها عن علاقاته بفتيات ونسـاء قبل زواجه، وتجربتـه الأولى كانت في ريعان شـبابه، وربما هي الصدمة الأقوى بينهنّ، لأنها كسـرت قلبه من بداية الطريق، وعانى من بعدها عذاب الحـب والهجران، والثانيـة كانت أوروبيـة، بحيث كان على وشك الزواج بها لينقذ نفسه من واقعه الصعب ويلتحق بها ليعيش في

دولة أوروبية، والثالثة تخلّت عنه لأنها تاجرت بحيطان البيوت وحديد السيّارات، ثم جاءت زوجته التي أُخذ بشكلها الخارجي، فقد جمعت المواصفات التي أرادها في الزوجةِ، وربما غفل عن محتوى هٰذا الشكل الذي وصل به إلى أن يعيش معها من باب الواجب والصورة الاجتماعية بعيدًا عن المشاعر.

فزوجته، وكما وصفها، طويلة، وتملك قدًّا ميّاسًا، وعينين ملوّنتين، وشعرًا أسود حريريًّا يلمع على كَتِفيْها وظهرها، وطبعًا كرجل شرقيّ تقليديّ، سيعتبر هٰذه المواصفات «صفقة حياة رابحة»، ويتمسّك بها ناظرًا إليها من منظور الجسد إلى الجسد. على الرغم من هٰذا كلّه قرأت ندى في عيني علي حبَّه لزوجته الذي أنكره عندما صارحتْه بما رأت. قال: «كنتُ أحبّها، وربما لا أزال لٰكن بشكلٍ محدود.»

في النهاية كلّ امرأة عرفها كانت تبتعد وتتركه، ويبقى هو يعاني الهجران، والبقاء وحيدًا خائبًا مكسورًا.

هُنا فهمت ندى وشعرت بأنّ عليًّا يقاوم نفسه، ويبذل مجهودًا لكي لا يقترب منها أكثر، فهمت لماذا هو قلِق، فإذا اقترب، ثمّ، لسببٍ أو لآخَر تركتْه ندى، فسيكون قد حرق نفسه وعاش العذاب من جديد.

سألتْه: «وأنا؟»

قال: «أنتِ لستِ مثلَ إياهنّ، ولا تُعَدّين ضمنهنّ.»

صمتتْ ندى وفهمت أنها في خانة جديدة لم يسبق لأحد أن كان فيها. واعتبرت ذٰلك إنجازًا. وفي تلك اللحظة عادت بها الذاكرة إلى بداية علاقتهما حين كان من خلال حديثه معها يستخدم صيغة الجماعة، ومن ثَمّ صار يتحدث إليها بصيغة المذكّر المفرد، ثم صار يناديها باسمها ويتحدث إليها من دون رسميّات، لٰكن بكلّ احترام.

الرجل الشرقيّ لا يُلام أحيانًا لعدم معرفته طريقةَ التعامل مع

المــرأة، فهو أيضًا يعيش فــي عالم كلُّه قيود وضوابــط، وهو معرّض للسقوط في حِبال أيّ امرأة تقترب منه بسهولة.

كلّ مــا يحتاجه الرجل هو امرأة تســتمع له وتحــنّ إليه وتحبّه. وعندما لا توفّر الزوجة ذٰلك، يجد نفسه بين يدي امرأة أخرى من دون أن يدرك ذٰلك... امرأة تصغي وتعطف وتحضن...

لقد اســتطاعت ندى أن تُغيّر فيه أشياء من دون أن تخطّط لذٰلك، فهو رجل صعب جــدًّا، وقاسٍ، وجــدّيّ، ولا يقترب مــن أحد أكثر من المتعارَف عليه بين الناس، هو كتــوم ولا يثق بأحد، لٰكنه لطيف ومحترم، ويســاعد الناس والابتســامة لا تُفارق وجهــه. وعندما يبدأ نقاش في موضوع لا يتوافــق ورأيه، كان يناقش بحــدّة متزمّتًا برأيه، لٰكنه الآن أكثر هــدوءًا ويتجاوز النقاش خصوصًــا مع ندى، حتى لا يصل إلى مرحلة يســبّب لها الإحراج فيها، أو يجرحها من دون قصد منه. أصبح أقلّ حِدّةٍ وأكثر انفتاحًا، وصار يعرف قيمة نفســه الحقيقيّة تمامًا كما جعل ندى ترى قيمة نفســها الحقيقيّة. أصبح أقوى وأجرأ، ورغبته في التقدم في الحياة أسرع... والأهمّ من كلّ هٰذا: بدأ يثق بها.

هٰذه الأشياء جعلت ندى ترى أنّ وجودها في حياته ضروريّ، تمامًا كما أنّ وجوده في حياتها ضروريّ، هما يكمّلان بعضهما بعضًا ويساعدان بعضهما بعضًا من دون تخطيط أو دراسة، بل بكلّ عفويّة وتفهّم وحبّ.

جلسا أكثر من ســاعة في المكان نفســه ثم قال لها: «لننتقلْ إلى مِنطقة أُخرى، سنذهب إلى المرسى(*) على شاطئ البحر.» مشت معه

(*) **المرسى**: المرسى مدينة ساحليّة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط تقعُ على مسافة 18 كيلومترًا شمال مدينة تونس، وهي تمثّل مع حلق الوادي والكرم وقرطاج ضاحيتها الشماليّة. يبلغ تعداد سكّان بلدة المرسى 77890 نسمة، يسكنها منهم 36234.

إلى أن وصلا إلى الشارع الرئيسي، وحاول أن يوقف سيّارة تاكسي، لٰكنها قالت له: «لنمشِ.»

ـ «إنها بعيدة!»

ـ «أَيُتعبُكَ المشي؟»

ـ «لا!»

ـ «إذن لنمشِ.»

وبدأا المشي، وبدأ دورُ ندى بالحديث مع بداية الأوتوستراد الذي يصل منطقة سيدي بوسعيد بمنطقة المرسى، طريق سهل ومنحدر قليلًا، وشارع عريض له رصيف مريح للمشي، وتحاذيه الأشجار والأعشاب البرّيّة على الجانبين. صوت السيّارات يتطلّب منها أن تتحدّث بصوتٍ أعلى من المعتاد، ولا مَن يسمعُهما لأنّ الطريق كانت خلوًا من المشاة ما عداهما. وانطلق الحديث، وانطلقت دموعها بغزارة، حارقة، كالسيل الجارف، وعلى الرغم من أنها قاومت عواطفها في بداية الحديث إلا أنها لم تصمد البتّة، وصارت تصف له حالها التعيسة من بعد ما عرفته وأحبّته. حياتُها صارت عذابًا، فهي لا تحتمل العيش بعيدًا عنه، ولا تستطيع تقبّل الفكرة بأنها وجدتْ الرجل المناسب، وجدتْ نصفها الثاني، وعرفتْ الحبّ وعذابه، كانت تجهش للبكاء، كانت تبكي كأنها تحدّث نفسَها. فلم تتردّد، ولم تحسب حسابًا ولم تفكّر في ضبط نفسها، بل صرخت بحزن وهي تتوسل إليه: «ساعِدني، أنا أموت، ساعِدني أنا هنا لتساعدَني. أرجوك فحياتي انقلبت رأسًا على عَقِب، لم أعدْ أعرف كيف أعيشُ وأنا لا أريد من العيش سواك، حتى إني أهملتُ أولادي، فأنا على استعداد لأن أتخلّى عنهم لكي أكون معك، لا أُريد زوجي... لا أريد حياتي، منذ عرفتُك الموتُ يتراقصُ أمام عيْنَيّ، فهو راحة، أيّ وضع في الحياة أهون من الوضع الذي أعيشه...»

وأكملتْ تلومه باكيةً: «في كلّ مرة كنتُ أحاول الابتعاد وإنهاء علاقتنا، كنتَ تعود وتربطني بـك، تربطني كطائرة ورقيّة وترميني في مهبّ الريح، اقطع هٰذا الخيط ودعْ الطائرة الورقيّة تذهب أدراج الرياح، وترتطم بالصخور، وتتفتـت... لأنّ في هٰذا رحمة، مقارنةً بما أعيشه الآن... أنا أموت، وأنت لا ترحم، ماذا تريد مني؟ ماذا تريد؟ وماذا أفعل؟ قل لي مـاذا أفعل؟ أريـد أن أرتاح، أريد أن أرسـوَ على برّ...!! عندما كنتُ قادرةً على الانسـحاب لم تدَعْني أنسحب، الآنَ أنا لا أستطيع الانسـحاب، أنا في ورطة، ساعِدني أرجوك...»

أسئلة وكلام يصعُبُ على أيّ إنسان سَـماعُه، والإجابة مستحيلةٌ عن أيٍّ من أسئلتها، فلم يكن من علي إلا المشي وهو مطأطئ الرأس ويداه في جيبهِ كالعـادة. كان وجهه مكفهرًّا، ولا يحبّ ما يسـمع أو يرى، سـمعَتْه يتمتم: «واللهِ ألوم نفسـي.» بدأ يلوم نفسـه، فقد كانت الصورة في رأسـه بعيدة كلَّ البعد عن الواقع الذي يتصوّره وخصوصًا عندما كانا يتواصلان، فيبـدو أنه كان يتخيّلها ممدّدة على سـرير من الريش كونها متواجدةً طوال الوقت وتردّ على رسائله في لحظتها، لأن الإنترنت موصول على هاتفها المحمول، ويستطيع التواصل والاتصال بها في أيّ وقت، لذا كرَّسَـتْ اهتمامها لأن تكون جاهزةً عند اتصاله بها، بغضّ النظر عن مدى انشـغالها ليلًا أو نهارًا، صباحًا أو مسـاءً، حتى في الأوقـات التي تكون فيها مع عماد يمارسـان الجنس تتعذّر قليلًا أو تسـتعجل في اسـتثارة زوجها لكي تُنهـيَ الواجب. ويذهب للاستحمام أو يغوص في النوم العميق. فلم تدع عائقًا يقف أمامها لأن تفوّت فرصة للتواصل معه.

ومجمل الحديث كان بأن عرّت ندى نفسـها أمام علي بإخبارها إيّاه كلّ ما يجول في خاطرها من أفكار ومشاعر تجاهه، وحبّ، ولوم،

وخوف، وألم... لم تُخفِ عنه أيًّا من تفاصيل العذاب الذي تعيشه بسبب علاقتها به. وكشفتْ له عدم الاستقرار المعنويّ والعاطفيّ الذي تخبره والتحوّل الذي يحصُل لها.

عبَّرتْ عن نفسها بكلّ ضعف: «أنا أتعذّب وأعيش ألمًا لا يوصف، أشعر في نفسي بأني مربوطة، وأحدهم يُمسِك سكِّينًا ويمزّق صدري من دون ما رحمة، وأنا أرجوه أن يتوقف، لٰكنه يستمرّ على تشريح صدري بسكّينه غير المشحوذة، ويُحدث جروحًا مشوّهة ألمها أكبر.»

كانت تتحدّث وتتنفّس بصعوبة، وكانت تحاول التنفّس بعمق، وبدا جليًّا قلَق علي عليها من شدّة البكاء، وطلب منها التوقف تحت شجرة لترتاح قليلًا من أشعة الشمس المباشرة، فهما متوجّهان إلى الساحل، والطقس صار دافئًا، والشمس تتوسّط السماء فوقهما. تجاوبت مع طلبه وتبعتْه. بدا الإنهاك والتعب على ندى من شدّة الانفعال والبكاء وشعرت بدوار خفيف، لٰكنها تماسكتْ وبدتْ أقوى ممّا هي عليه حتى لا يقلق عليها علي الذي كان يدور حولها حائرًا ماذا يفعل أو يقول. لٰكنه عرف ما كان يظنّ أنه يعرفه، كان يعرف أنها تحبه ولم يتخيّل مدى العذاب الذي كانت تعيشه، كان يتصوّر أنها امرأة، مثلها مثل كلّ النساء اللاتي عرفهنّ في حياته، كان يظنّ أنها علاقة وسَرعان ما تنتهي، أو سرعان ما تفقد حماستها. لم يدرك أنه بالفعل قد قلب حياتها رأسًا على عقب. الموضوع أكبر من تصوُّره وأسمى من كلّ العلاقات التي خاضها. حياتها معه على المحكّ. وهو السبب، أولًا، لأنه طرق بابها، لا بل كسر بابها ودخل بيتها عَنوةً، وثانيًا، لأنها ربما كانت قادرة على طرده وقد فعلت، لٰكنه رفض الخروج في كلّ مرّة كانت تحاول الوقوف والصمود أمامه.

وتأكد كم تحبّه لأنها تركتْ حياتها خلفها لتراه وتحتسي معه فنجان قهوة. دموعها وانكسارها أمامه كانا أكبر من توقّعه. لقد كان حائرًا عندما قالت له إنها ستزوره في تونس، ولقد كان يسألها عن برنامجها غيرَ مدركٍ أنه هو كلّ البرنامج، فلم يسبقْ لأحد في الدنيا أن أحاطه باهتمام بالغ كما تفعل ندى، وأن تأتيَه من بلدِها لتحتسيَ معه القهوة وتمشيَ في شوارع تونس من دون مصلحة أو هدف مدروس!! هٰذا شيء فاق تصوُّرَه. أدرك أنها هنا لتراه فقط، وكما قالت إنها هنا لتواجهَه، وتواجه نفسها، وتواجهَ علاقتَهما، وتضعَ النقاطَ على الحروف، آملةً أن تعودَ حياتُها إلى مجاريها وسياقها القديم.

ندى إنسانة مباشرة جدًّا في حياتها، لا تُضيع الوقت في الدوران حول مشكلات حياتها، بل تقفز وسطها، وتصارعها، وتحلّها، وتسير إلى أن تعترض طريقها حبكةُ مشكلة جديدة. لٰكن هٰذه الحبكة من أصعبِها وأكثرها تعقيدًا، فعندما قفزت وسطها، أدركت بعد فوات الأوان، أنها في ورطة حقّة، والخروج بات متأخرًا. واستمرت الحبكة على إنهاكها وكسرها وتعذيبها من دون توقف...

خلال حديثها صار علي يناقشها في الواقع، لم يحاولْ أن يشفِقَ أو يحزَنَ قطّ، بل قال لها: «هذا لا يجوز، ما تفعلينه في نفسِك لا يجوز، أنتِ أقوى ممّا تظنّين، يجب أن تتماسكي، يجب أن تسيطري على حياتِك من جديد. أنتِ امرأة متزوّجة، وأنا رجل متزوّج، وحياتنا غير سعيدة، وما يحصُل بيننا يجب أن يكون مصدرَ راحة لا عذابٍ وألم، لا حلّ لوضعنا، وأنا لولا ارتباطي بأولادي لكنت تركتُ زوجتي منذ زمن بعيد، لٰكن القانون مع المرأة في تونس، وإذا طلّقتُ زوجتي فستتعقّد حياتي أكثر.»

ردّت ندى: «أنا لســت هنا لأطلبَ منك أن تدمّرَ بيتَكَ بِيدِك، لا طلَبات عنــدي أبدًا، ولا أريد لك أو منك ســوى الخير، وأؤكّد بأني لا أملِك طلبات، لٰكن الحياةَ قاسية، وما حصل لنا أكبر من أن أحتمله، لذا لا أعرف كيف أتعامل معه، ولا أعرف كيف أستمرّ في حياتي.»

فهِمَ ما قالتْه لأنه يعيش معها الشيء نفســه، لٰكن يبدو أن إيمانه أقوى من إيمانهــا، فهو مستســلم لإرادة الله وكلُّه ثقة بــأنّ الله اختار الأحســن لهما، عدا عن ذٰلك، هو، كرجل، يملك ســيطرة أكبر على مشاعره، وكان واضحًا كيف يســتطيع أن يكبتها في قلبه ويبدو قويًّا. تمنَّتْ لو تســتطيع أن تفعل مثله، لٰكنها تتلوّى أرضًا وتتعذّب، ولوعة الحب تفتك بها ليل نهار.

وهنا أخطــأتْ في حقّه عندمــا بدأت الكلام عــن أولادها قائلة: «ربما كان الأجدر بي لو لــم آتِ منذ البداية، فأنا تركتُ أولادي، وها أنا «أسير على حلّ شعري.»»

تجهّم وجهُه، واســتدار صوبها، ونظر إليها نظرة حادّة مســتنكرًا قوْلها، هامسًا بغضب: «ماذا قلتِ؟»

تداركَتْ الأمر، وعرفتْ أنّ لسانَها سبقَ عقلَها، ومدّت يدَها صْوبَهُ بأســفٍ وقالتْ وكلُّها خجَل من نفسِــها: «أعتذِر، آسِفة، آسفة جدًّا. ما قلتُه خطأ، أسحبُه.»

صمتَ وعاد ينظر إلى الأمام متخطّيًا ملاحظتَها.

ما تستغربه ندى من نفســها أنها تخشــى عليًّا كثيرًا، تخشاه حبًّا واحترامًا، لا تســتطيع أن تتعامل معه سوى بحبّ بالغ واحترام يجعل منه ســيّدًا عليها، فهو ســيّد، وقد فرض ســيادته بتعامله المتواضع، واحتضانه لها بحسناتها وسيئاتها، قَبِلها كما هي، بأخطائها، وشكلِها،

وحالِها المتبعثر... لن تجد الجرأة في نفسها لأن تتصرّف معه بغباء وتخسر كلَّ هٰذا. تتعامل معه ببساطة وانفتاح، وفي الوقت نفسه تتعامل معه بحرصٍ شديدٍ كي لا تخسره.

تعبتْ من الكلام والبكاء والمشي، تعبتْ معنويًّا وجسديًّا، تعبتْ ورغبتْ في الاختفاء. تدارك علي الوضع وصار يبحث عن مكان يجلسان فيه، وصار يلطّف الجوّ ويضحك معها، وذكّرها بشيءٍ طلبتْهُ منه قبل أن تأتي إلى تونس.

قال لها: «هاك مئة القرش التونسيّ التي طلبتِ منّي وأنتِ في الأردن.»

ضحكَت ندى وأخذتْ العملة من يده، ونظرتْ إليها، واحتفظت بها. وبما أنّها ابتسمت وضحكت، استمرّ يشجعها ويضحك معها ويقول لها: «أنتِ مثل الأطفال في رياض الأطفال، تضحكين وتبكين في اللحظة نفسها، عجيبٌ هو أمرك يا ندى!» وضحك الاثنان معًا على تعليقه، وما تزال دموعها تملأ وجهَها وتضحك في الوقت نفسه.

ارتاحت قليلًا، فقد أفرغتْ ما في جعبتها من كلام لم تكن تتوقّع أن يخرجَ منها بهٰذه الطريقة العشوائيّة والمجرّدة، لٰكنّ عليًّا كلُّه ثقةٌ وأمان، ومعه فقط تستطيع ندى أن تكون من دون أقنعة أو خوف.

وصلا إلى منطقة المرسى وقد بدا التعب واضحًا عليهما، المسافة طويلة لٰكن الحديث كان مرهقًا جدًّا لهما كليهما، وشعرا بوحدة حالٍ في ما بينهما. صمتا قليلًا، فما دار بينهما من حديث عكَس الحال، فاختلطت مشاعرُهما ما بين الواقع الأليم والمجهول القادم والتمنّيات البعيدة المنال.

كسر علي جوّ الصمت وقال: «ما رأيكِ في أن نبحث عن مكان لنأكل فيه؟ ألم تشعري بالجوع؟»

السـاعة الآن تخطت الثانية ظهرًا ولم يأكلا ويشربا سوى حبّات التمر وفنجانَي القهوة، وقد بذلا مجهودًا جسـديًّا ومعنويًّا، وهما فعلًا بحاجة إلى الراحة الآن.

قالت: «ربما لا أستطيع الأكل، لٰكن لنجلسْ في مكان ما.»

أصرَّ علي علـى أنه يجب عليها أن تأكل شـيئًا لحقّ جسـدها عليها، ورضختْ، فلا مجـال للاعتراض تحت الظروف الراهنة، إنها مستسلمة.

اختار علي مطعم پيتزا حديثًـا، ولقلّة الخيارات، ولأنه قد مضى وقت طويل منـذ أن زار هٰذه المنطقـة، فهو لا يألفهـا جيّدًا. دخلا وجلسـا على مقاعد عالية لٰكنها مريحة، والمـكان مكيّف، وحرارته مناسبة جدًّا مقارنةً بالجوّ الحارّ نسـبيًّا في الخارج. طلبا قطعتين من البيتزا مع عصير البرتقال. اسـتأذنت ندى من علي للذهاب إلى دورة المياه لغسـل وجهها ويديهـا، وخلعت خاتمها الذهبـي من أصبعها وأعطتْه إيّاه إلى أن تعود حتى لا تنسـاه على المغسلة، ذهبت وبلَّلتْ وجهَها بالماء البارد عدّة مرّات لأنها شعرت بأنَ بشَرتَها احترقت جرّاء المشي مسافات طويلة تحت أشعّة الشـمس المباشرة. جفَّفت وجهَها ويديْها بلطف، ومشـتْ نحو الطاولة حيث يجلس علي، مشـت من خلفه ونظرت إليه، ورأته يُمسـك خاتمَها ويديره على الطاولة، لٰكن كان واضحًا جدًّا أنه كان يفكّر في عمق، رأت في هٰذا المشهد وحدة وحيرة وتساؤلًا. رسـخت الصورة في ذاكرتها لأنها شعرت أيضًا أنها تركت عالمَهـا وبيتَها وأولادَها لكي أن تكون مـع هٰذا الرجل الذي احتلّ كلّ حياتها ببساطته.

أكملت طريقها صوْبَه ورجعتْ إلى مقعدِهـا مقابِلَهُ على الطاولة من دون أن يدركَ أنها كانت خلفه وتنظر إليه.

بدأا الحديث في موضوعات عامة لٰكن بهدوء، وبشكلٍ متقطع، ولم تُكمل قطعة البيتزا، واعتبرت ما أكلتْه كافيًا لتغذية جسدها لبقيّة المساء. تحسّــنتْ المعنويّات قليلًا وقرّرا البحث عن مكان لاحتساء القهوة، بدأا بالمشــي من جديد، وكان هو يقودها في الطريق إلى أن وصلا إلى الكورنيــش، وفيه رصيف عريض للمــارّة يُحاذي البحر، والمســافة الفاصلة ما بين البحر والرصيــف تملأها حقول كثيفة من الأزهار الصفراء البرّيّة الجميلة جدًّا، يليها البحر الأزرق الممتدّ على مدى البصر، مشــاهد ومناظر تفوق الخيال، وتجعل المشاعر تتفجر. واســتمرّ علي يفرح لردّات فعلهــا وانبهارها في كلّ مــرّة ترى هٰذا المشهد المتكرّر في تونس، ويطلب منها الالتفات هنا أو هناك لترى المزيد من الأزهار، ويرى فرحتها ويفرح معها. بالفعل كانت لحظات جميلة. ظنّ علي أنّ ندى تحبّ اللون الأصفــر لأنها لم تتوقّف عن التعبيــر عن مدى جمال تلك الأزهار، وســألها، وقالــت إنها تحب اللون البنفسجي.

وقفا مقابــل تلك الحقــول مواجهيْن البحرَ الســاحر، وبدأ علي يتحدث عن نفســه وعن حياته، بدأ الحديث، ولم تكن ندى مستعدّة لِما كان سيقول، فهو إنسان غير الذي عرفَتْه...

هو ناجح في وظيفته، وقد شــقّ طريقه وحــده بعد أن تخرّج من الجامعة، وعرفت منه أنه أكبر إخوته العشــرة، لٰكن ما تعجبّت له أنه عاش طفولة صعبة وقاســية، فقد كان والده في أغلب الأوقات تحت تأثير الكحول، وفاقدًا الســيطرة على نفســه، وكان أيضًا يتفنّن بتطبيق شــتّى أنواع التعذيب الجســدي والمعنوي على الطفل علي من دون ســبب يُذكر. فقد كان يثبّته بربْطه بحبال على الأرض، ويُحضر عصًا غليظة ويتركهــا تنزل مثل الصاعقة على جســدهِ الغــضّ من دون ما رحمة، ضربة وراء الثانية، صاعقــة تليها أُخرى، وفي تلك الأثناء كان

يضع قدمَه سِـدادَةً على فمه حتى لا يصرخ ألمًا أو يستنجد بأحد... كان يعامله بقسوة شديدة لم يعامل بها إخوته، كان يحطّ من قدْره ويحكم عليه بالأشغال الشاقّة في أرض الواحة التابعة لعائلتهم. لم يفهم علي، وما زال حتى الآن لا يفهم لماذا هٰذه القسوة وهٰذا العذاب الذي كان يعيشه مع والده.

أمّا والدته فقد كانت عبدًا مأمورًا، ولم تكن تستطيع الوقوف أمام والده لتحميَ ابنها. «خرقة بالية»، كما أسماها علي، فقد أكمل حديثه وندى ما زالت لا تعرف مَن هٰذا المُعذَّب الذي يتحدّث إليها قائلًا: «في إحدى المرّات ذهبتُ إليها أشتكي والدي وظلْمَه. كنت كلّي قهرٌ وغيظٌ، لٰكنها أخبرَتْني أنها لا تملك حيلة، وتخافه كثيرًا، وأنا، ومن شدّة غضبي، وكردّة فعلٍ مني، اقتربت منها بعنف وغضب، وكنتُ ثائرًا، فظنّتْ أني سأضربها، وتراجعتْ بخوف... خافت منّي!» رأت ندى ندمًا كبيرًا في وجهه، كأنه لا يحبّ أن يتذّكر هٰذا المشهد الذي ما يزال يؤلمه حتى الآن، سكت لحظات، سألتْه ندى: «ماذا حصل؟»

قال: «لا شيء، تراجعتُ، وفعلًا عرفتُ وفهمتُ في تلك اللحظة أن لا حول لها ولا قوة.»

استمرّ الحال هٰكذا حتى بلغ علي السابعة عشرة من عمره. في تلك المرّة التي جاءه فيها والده مستخفًّا ليفرض ضعفه على علي، ويعوّض النقص في شخصه بمهاجمة ابنه، غير مدرك طوال تلك السنين أنّ الطفل الصغير والضعيف الذي كان يعذّبه، غدا شابًّا مكتملَ النموّ، يضجّ رجولةً ويملك قوّة جسديّة تستطيع أن تُطيحَ بوالده وعشرة من أمثاله من دون أيّ مجهود. وفي اللحظة التي ارتفعت فيها يد والده لتبدأ حلقة عذاب جديدة، تصدّى له علي وأمسك يده من فوق الرسغ بقوة وثبات، وضغطها بحزم.

ووجّه نظرة غاضبة إلى وجــه والده فيها كلّ القهــر والظلم والألم والعذاب والانكسار الذي تعرّض له خلال ســنين طفولة لن تعود، وكأنه يقول: «كفى، هنا ينتهي كلّ شيء.» لأوّل مرّة شعر فيها الوالد بضعفه، وبأنه انهزم أمام هٰذا المارد الذي طــال صمته ونفد صبرُه. هٰكذا انتهت قصــةُ طفولةٍ لم يعــرف علي معناهــا إلا عندما صار أبًا، لٰكن علامــات جروحها واضحة، وبعضها ما يــزال غير ملتئم، فعندمــا كانت ندى تنظر إليه وهو يتحدث عــن هٰذا الموضوع رأت كهلًا معذّبًا وحزينًــا. رأت وجهًا جديدًا فيــه، رأت طفلًا يبكي في عيني علي الرجل. أســفتْ لحالِه، وتفهّمتْ موقفه لأنها ذاقت طعم الطفولة المعذّبة، وتمنّت في تلك اللحظة لو أنها تستطيع أن تضمَّهُ إلى صدرها لتجعلَه يطمئنّ، ويدرك أنّ هٰــذا العذاب قد انتهى ولن يتكرر مرة أخرى، وتربّت ظهــرَهُ وتقولَ له إنها متأكدة أنّ والدته قد ســامحتْه لأنها تحبّه، وعلى العكس، ربما هي تطلب الســماحَ منه لأنها لم تســتطِع أن تكون أمًّا في تلك الفترة. لٰكن اللحظات كانت ثقيلة والكلام عاجز.

تكلّم علي عن نفســه بإســهاب، وكان يتحــدّث بصوت هادئ ومتوازن، كانــت ترى في حديثه صورًا وتعبــئ فراغات كانت ناقصة في علاقتهما، تألّمتْ عندما عرفت أن ابتسامته وليدة العذاب والصبر والألم، وصدق مَن قال: «لا تحكمْ على الكتاب من غلافه.» وغلاف علي ضاحك وجميل وجــذّاب وهادئ ورصين، وهــا هو الآن بات رجلًا ناجحًا على الرغم من كلّ ما زُرع في نفســه مــن إهانات بأنه عديــم المنفعة ولا فائــدة تُرجى منه، كســر كلّ الماضــي، وتخطّى الصعاب، ووقف وقفة المنتصــر متخطّيًا الألم، ولٰكن من دون نكران بأنّ هٰذا الألم هــو الطريق الذي أوصله إلى هنــا، وجعله يحمل راية النجاح، حتى لو كان هٰــذا النجاح على المســتوى العادي، فما كان

عاديًّا بنظر غيره ليكون هنا، كان دربَ جمرٍ بالنسبة إلى علي، قصة عذاب في كلّ خطوة.

وهنا أيضًا رأت التشابه في تاريخ حياتهما، ولفتت انتباهه إلى مدى تقارب هٰذا التشابه، ولم يبدُ متعجبًا، فقد اطلع على حياتها من خلال رسائلها التي كانت تكتبها له باستمرار، وعرف هٰذا التشابه قبلها، وربما هٰذا هو السبب الذي جعله يتحدث عن نفسه من دون حساب أو تردّد.

اقتربا بعضهما من بعض أكثر، وشعرا بتفهّم أحدهما الآخر من دون الحاجة إلى الشرح المفصّل أو التبرير. وبدت الحياة سهلة وواسعة جدًّا، وبدت السماء زرقاء، وعلى الرغم من أنها بالفعل زرقاء كانت تراها رماديّة لضيق شعورها وحزنها. ارتاحت لأنه إنسان بسيط مثلَها، عاش الألم والقسوة، وحُرِمَ الحنان، وشقَّ طريقَه بيديه العاريتين ولم يلتفت لطلب المساعدة من أحد. شعرت بفخرٍ لأنها أحبّت هٰذا الرجل.

عادا مشيًا إلى أحد مباني التسوّق واختارا مقهًى صغيرًا لاحتساء القهوة مرّةً أخرى. وما إن جلسا حتى عادا يتكلمان عن علاقتهما معًا، أكّدا أنّ روحيهما التقتا لٰكن ندى تعِبَة جدًّا ولا تحتمل هٰذا الوضع. علي قويّ وعنده إيمان بأنّ لله حكمة في هٰذا، وهو غير مستعدٍّ لأن يتخلّى عنها. لٰكن عليها أن تكون قويّة، وأن لا تستسلم، فلا نتيجةَ ولا حلّ لوضعهما. وبدأت ندى بالبكاء الحارّ من جديد، لٰكنّ عليًّا أبدى انزعاجه من بكائها وضمّ قبضة يده، وصّر بأسنانه، وقال بصوت خافت ومكبوت وغاضب وكأنه يهدّد: «حذارِ البكاء، نحن في مكان عامّ، حذارِ البكاء!» قال هٰذا لكي يُجبرَها على أن تتمالك نفسها.

صارت تهزّ رأســها موافقةً، ومسحت دموعها، لٰكن لا جدوى، لم تملك نفســها، إنها ليســت على ما يرام، بقيــتْ دموعها تنزل. الطريق مغلقة من كلّ الجهات، وقرابة الساعة تفصلهما عن الفراق. تحتاجه وتحبّه ولا تســتطيع العيــش من دونه. روحهــا تعلّقت به وأحبّته، تفضّل الموت علــى أن تُكملَ حياتها بعيــدًا عنه. ما هٰذا الابتلاء؟ وما هٰــذا النصيب الــذي كُتب عليها لتعيشــه؟ ليتها لم تعرفْه، وليتها بقيتْ تعيش لتأكل، وليتها ظلّت جاهلة، وليت الذي حصل ما كان!

«لَيْتَنا لمْ نَكُنْ، لَيْتَنا لَمْ نَكُنْ قَطّ!!»

* * *

انتهيا من شـــرب القهوة، وسارا معًا إلى الشـــارع. بدأت الشمس بالاختباء، ورجعت نســـمات الهواء البارد تدور بخفّة، وتتســـلّل بين المارّة، وحول الأشـــجار، وتلســـع وجهَ ندى كأنها تنذرهـــا وتعطيها إشارات بأنّ الفراق شرٌّ لا بدّ منه.

مشيا على الطريق نفســـها حوالى ثلاث مرّات من دون أن يُدركا وُجْهتَهُما، فقد كان علي يقودُها وهو مرتبك جـــدًّا، وكانا في كلّ مرة يجـــدانِ أنهما عند واجهةِ مكتبـــة صغيرة، يقفان أمامهـــا يتحدّثان، ثُمّ يســـيران، ويجدان أنهما عادا إليها مرّةً ثانية وثالثة. وأخيرًا تحدّثا عن بعض الكتب المعروضة، فقط من باب التخفيف من توتر لحظة الوداع التي تمنّيا أن لا تكون، لٰكنها طريق باتجاه واحد، وعليهما شُرْبُ هٰذا الكأس، خصوصًا ندى.

بعد لحظات صمت... أوقفَ لها ســـيّارة تكســـي وأخبر الســـائق وُجْهَتَهـــا، ونظر إليها. تصافحـــا بارتباك ثم ركبت الســـيّارة وانطلقت. وودّعها ملوّحًا بيده. لم تقاوم أن تلتفت إلى الوراء، كان يقطع الشارع وهو ما يزال ينظر إليها، ثم اختفى.

بقيتْ جالسة بصمت تحاول السيطرة على مشاعرها المختلطة من خوف، وارتباك، وتحطّم، ويأس، وانكســـار، وضياع. شـــعرت

بالغثيان والـدّوار، وكادت تصـرُخ في وجه الدنيا، لمـاذا ؟ لماذا تفعلين هٰذا؟ لماذا تعاقبيني ولا تقتليني، اقتليني أرجوك اقتليني... لٰكن لا تعذّبيني فلا أسـتطيع أن أحتمل كلَّ هٰـذا... اقتليني، هيّا. لٰكن الدنيا كانـت تنظر إليها هازئة وكأنها تقـول: ما زلنا في بداية المشوار.

لم تكن ترى من الطريق سـوى نقاط أضواء السـيّارات وإنارة الشارع... كانت تراها من دون نور، ولم تسمع أيّ شيء لأنّ صوت الرعد فـي عقلها طغى على كلّ الأصـوات. لا تعرف كيف وصلت إلى الفندق وكم اسـتغرق من وقتها اجتياز الطريق... لٰكنها وصلتْ وتوجّهتْ مباشرةً إلى غرفتها واحتمت فيها. وعبرتْ من أمام المرآة لترى وجهها قد أصبح أحمر اللون، فقد احترقت بَشَرتُها جرّاء أشعّة الشمس المباشِرةِ عليه لسـاعات، حاولتْ أن تُلهيَ نفسها بأيّ شيء كي لا تصطدم بالواقع، خصوصًا أنها وحدها ولا مَن تكلّمه. بدأت بالاغتسـال، ووضْع الماء البارد على وجهها، ثـمّ وضعت الكريم المرطِّب لتخفيف الشعور بالحرْق، وإذ بالهاتف يرنّ، إنه علي!

ردّت بصوت أجوف: «ألو.»

ـ «أنتِ بخير؟»

ـ «نعم.»

ـ «وصلتِ؟»

ـ «نعم، أنا في الغرفة.»

ـ «لماذا لم تتّصلي لتُطَمْئِنيني أنّكِ وصلتِ؟»

ارتبكتْ قليلًا فلم تتوقّع سـؤاله، وقالت: «أنا انشـغلت، فوجهي احترق من أشعّة الشمس، أضع المرطِّب عليه الآن.»

ـ «ألفُ سلامةٍ إذن. كلُّ شيء على ما يُرام؟»

ـ «نعم، شكرًا، أنا بخير.»

ـ «تصبحين على خير.»

ـ «وأنتَ من أهل الخير.»

وحصل صمت...

وهٰكذا مضتْ أيّام الزيارة الثلاثة وانتهت، وعليها أن تعود إلى موقعها، لٰكن ليس إلى بيتها، فبيتها في تونس وروحُها سكنت هنا.

والهواء الذي يُبقيها على قيد الحياة هنا.

والبحر الذي سحرها هنا...

والحب الذي لم تعرفْ مثلَه من قبلُ هنا...

والرجل الذي خطفها وتملَّكها هنا.

كلُّ ما تريد وما تتمنّى هنا.

عليها أن تتركَ كلّ هٰذا وتعود إلى الغربة، تعود إلى منزلها الذي لم يعدْ بيتًا بعد الآن. ستعود وترتدي ثوبًا ليس لها، وتأخذَ دورًا باتت غريبة عنه، وتعيشَ حياةً لم تعدْ مقبولةً بعد الآن...

ولتُبقي نفسَها مشغولة، بدأتْ بتوضيب حقيبة سفرها استعدادًا لليوم التالي. ومِنْ ثَمَّ استحمّتْ ببطء في محاولةٍ بائسة منها للاسترخاء، وحاولتْ قَدْرَ المستطاع أن تبتعدَ عن السرير، فهو أداة تعذيب بالنسبة إليها... لا تريد اللجوء إليه وهي في هٰذا الوضع النفسي. فجلستْ تكتبُ سطورًا، ثم حاولتْ القراءة في كتابها لٰكن من دون جدوى، ثُمّ أشعلتْ التلفاز وبدأت تقلّبُ القنوات، لٰكنّ أيًّا من محاولاتها لم تنجح في لفت انتباهها وتشتيت فكرها،

ولو للحظات، عن العذاب الذي تعيشه. في النهاية، نظرتْ إلى السرير الذي كان يبدو لها كفوهة بركان على وشك أن يصهُرَها، ويتوحّد بحُمَمِهِ مع حُمَمِ قلبها المتعَب، كما أنّ الوسادة كانت تبدو لها كوحش كاسر متعطّش لشُربِ دموعِها الحارّة والمؤلمة والصامتة.

استسلمتْ وارتمتْ على السرير، وحصلَ ما كانت تخشاه،... إلى أن طلع الفجر.

ارتدت ملابسَها بسرعة، ومشتْ تبحث عن ملاذ آمن من نفسها وفكرها. لجأت إلى شاطئ البحر الكامل بنقائه وعذريّته، وصفاء ذرّات رماله الناعمة، المزخرفة بأصداف البحر، والمزيّنة بأمواجٍ رقيقة تعلو وتنخفض فوق الرمال بحياء، تلمسها وتتركُ لها كِسَرًا من الأصداف البلّوريّة البيضاء وتعود أدراجَها، عذوبةٌ في الهواء، وسحرٌ في السماء... محاكاةٌ ما بين عناصر الطبيعة تفوقُ الوصف... كانت تقفُ على الشاطئ الذي امتدّ على مدّ البصر من على يمينها وشمالها.

الشمس على وشك أن تُشرق، والناس ما يزالون نيامًا، كانت الوحيدة هناك، لا بل كانت هي والبحر والسماء والله... أجل، كان الله هناك، وكانت حائرةً متسائلة، خاطبَتْهُ بانكسار: «أنت خالِقُ الكوْن وخالقُ كلِّ هٰذا. أنتَ الكبيرُ وأنتَ العظيمُ، وأنتَ المَلِك، وأنتَ العالَم... ساعِدْني فأنتَ تراني، خُذْ بِيَدي... لا بل خذني... لا أريد المزيدَ من الحياة.»

شعرَتْ أنّ الله كان يُصغي، ولٰكنّ إرادتَه كانت عكس ذٰلك، فالطريق في أوّلِهِ، وكما كان يقول لها علي مشجّعًا: «هنيئًا لنا نحن

المعذّبين فـــي الأرض، اللهُ اختار لنا هٰذا الـــدربَ الصعبَ لأنه يحبّنا، اقبليه، واحمِديه، وسيجازيكِ يومًا ما.»

لم تفهم لماذا، لٰكنّها قررتْ أنها ســـتحاول الرضوخَ لمشيئة الله، وتقبلُ دربَ العذاب هٰذا قَدْرَ المســـتطاع، وفـــي النهاية هي لا تملكُ خِيارًا سوى الانصياع لمشيئةِ الله.

مشتْ ومشتْ ومشتْ على شـــاطئ البحر من دون تعب، مشتْ، وبكتْ، وغنّت، ورسمتْ على الرمالِ أزهارًا، وجمعت أصدافًا... إلى أن رنّ هاتفُها...

ـ «صباح النور.» (عادة علي في التحيّة الصباحيّة)

ـ «صباح الخير.»

ـ «كيفك؟»

ـ «لست بخير.»

ـ «لا حول ولا قوة إلا بالله، لا يجوز هٰذا، لا يجوز.»

ـ «ماذا أفعل؟ قل لي؟»

ـ «اقبلي حكمةَ الله، وتحلّـــي بالصبر، وكوني قويّـــة، أنا أعرفكِ جيّدًا، فأنت أقوى ممّا تظنّين.»

ـ «لا، لســـت قويّة، ولا أريد أن أكون قويّة، أنا لست بخير، ولا أعرف كيف سأعيش، وماذا أفعل، وإلى أين أذهب.»

ـ «عودي إلى حياتِك، وسنبقى على اتصال وتواصل، فلا حلّ أمامنا.» ثُـــمَّ غير الموضوع كعادته في تلطيـــف الأجواء «أين أنتِ؟ ماذا تفعلين؟»

ـ «أنا على الشاطئ أمشـــي، لا أحدَ حولي، المشهد رائع، والبحر جميل.»

ـ «هل جربتِ أن تسيري على الشاطئ حافيةَ القدمين؟»

ـ «لا!! ستبتلّ قدمايَ وسيمتلئ سروالي رملًا.»

ـ «لا عليـــكِ، فقط اخلعي حذاءك وأمشـــي علـــى الرمل، ودعي الأمواجَ تبلّلْ قدميكِ، ستشـــعرين بالانتعاش، تجربة بسيطة ومفعولها كبير، جرّبيها، لا تذهبي من دون أن تجرّبيها.»

ـ «... حســـنًا سأحاول. عندي ســـؤال! تعرف أني لم آتِ لأطلب منك شيئًا، صحيح؟»

ـ «صحيح!»

ـ «الآنَ أودّ أن أطلبَ منكَ شـــيئًا، أنتَ أقوى مني، وأشـــعر بأني فرضتُ نفسي بأن أتيتُ إلى تونس.»

ـ «لا لم تفرِضي نفسَك قطّ. على العكس تمامًا.»

ـ سؤالي...

ـ «إذا كنتُ أحبّكِ حقًّا؟»

ـ «ممم...!!!»

ـ «منَ الصعب أن يعرفَكِ أحد ولا يحبّكِ، هٰذا شيء مفروغٌ منه.»

ـ «...!!! سؤالي أو طلبي هو...»

ـ «تفضّلي.»

ـ «هل تَعِدُني أن تكونَ بخير؟ كن بخيرٍ وانتبِهْ لنفسِك، أريدكَ أن تتمتعَ بالصحّة والعافية، وهٰذا كلّ ما أطمع فيه من علاقتي بك.»

ـ «ســأكون بخير، وهٰذا مــا أريده أنا أيضًا، كونــي بخير. عودي سالمة.»

ـ «اللهُ مَعَكَ.»

ـ «اللهُ مَعَكِ.»

لا كلام يُقال بعد ذٰلك، هي واضحة ومباشــرة، وهو أقوى منها، ويستطيع السيطرة وإدارة الدفة بشــكلٍ جيّد، وكما وَصَفَتْهُ مرّةً خلال حديثِهما: «أنتَ عمودُ الارتكاز في علاقتِنا، فلا تهتزّ ولا تقترب، لأنكَ إذا اقتربتَ اختلَّ التوازن، حافظْ على موقعِك.»

«المسافةُ بَيْنَنا بِلاد، لٰكِنّنا نعيشُ تحت الشمسِ نفسِها، ونَتَنَفَّسُ الهواءَ نفسَهُ، وننظرُ إلى القمرِ نفسِه...»

* * *

استقرّت في مقعدها في الطائرة، لٰكن غير مستقرّة في نفسِها، ستعودُ الآن إلى حياتها، وتحاول أن تعيش وتتأقلمَ مع هٰذا العذاب. القادمُ صعبٌ. وربما أصعبُ من الماضي، فهي لم تعدْ تشعُر بالانتماء إلى محيطها، وتعيش غربةً وَسْط أهلِها، والحزنُ واضحٌ على وجهها. يجب عليها المحاولةُ أكثرَ وأن تقاوم الاستسلام، يجبُ عليها أن تصبحَ ممثّلةً محترفةً لكي تُبعد الحشَراتِ الفضوليّة عنها. كانت تفكّرُ في ما عليها أن تفعل لتبدو طبيعيّة. لٰكن أصعب ما هنالك هو أنّ حبَّها له قد زاد بعد أن عرفَتْهُ عن قُرْب، لقد اقتربا بعضهما من بعض، وعرفا أنهما ربما خُلِقا بعضهما لبعض.

هبطت الطائرة في عمّان ونزلتْ لاستلام حقيبتها، ورنّ هاتفُها وتوقّعَتْ أن يكون المتصل عمادًا، الذي لم يحاولْ الاتصال بها قطّ خلال سفرها، وهٰذا ليس بجديد عليها. التقطت الهاتف بفتور، والمفاجأة كانت أنه علي، ردّت بسرعة وارتباك: «ألو!»

ـ «وَصَلْتِ؟»

ـ «نعم، وأنتظِرُ استلامَ الحقيبة.»

ـ «حمدًا لله على السلامة، أنتِ بخير؟»

ـ «الحمد الله. سأحاولُ أن أكونَ بخير.»

ـ «نحنُ على تواصُل إذن...!»

ـ «أكيد...»

ـ «أردتُ الاطمئنان إليكِ... الله معكِ.»

ـ «الله معكَ.»

خرجت من المطـــار وهي تختنق، ووصـــل اختناقُها حدَّهُ عندما رأت عمادًا وبـــدأتْ دموعُها تنهمر لعودتِها إلـــى الواقع الأليم الذي تعيش، والذي ســـيزداد ألمًا وصعوبةً من الآن وصاعدًا. سألها عماد: «ما بكِ؟»

ـ «أنتَ كعادتِكَ لا تســـأل، وتتركني أذهبُ إلى آخر الدنيا من دون أن تطمئنّ إليّ أو حتى ترســـل رســـالة من هاتفك...» استخدمتْ سياسةَ «خذوهم بالصوت» لكي تبرِّرَ الدموعَ والشعورَ بالاختناق.

بدأ هو بوضع الأعذار التي لا تحمل معنًى... حتى إنها لم تسمع شيئًا ممّا قال.

عادتْ إلـــى بيتِها وأولادهـــا، وباشـــرتْ عملَها، وبـــدأت الأيّام بالجرَيان، وهي تســـيرُ في الدنيا هائمةً على وجهِها تارةً، ومُسيَّرة تارةً أخرى... وصورةُ علي لا تفارق فكرَها.

مع الوقـــت، عادت ندى إلى التوسُّـــل طالبةً المســـاعدة، فكانت تصفُ لعلي حالتها النفســـيّة المتدهورة من جديد من طريق الرسائل، وبدا هو حائرًا وغيـــرَ قادرٍ على تقديم الدعم، لٰكنه كان يرســـل صورَ حقول ورودٍ وأشجار تعيش وَسْط سحر الطبيعةِ وشلّالاتِ ماءٍ ويكتب كلمـــة أو اثنتين يعبّر فيها عن مشـــاعره بطريقتـــه، وكان يُعطي وعودًا باللقاء واحتســـاء القهوة في هٰـــذا المـــكان أو ذاك، وكان يقول أيضًا: «حتى لو كان لقاؤنا افتراضيًّا، سنلتقي.» كلماته هٰذه كانت تطمئنُ ندى

وتؤلمُها في الوقت نفسه، لأنّ عالمَهما الافتراضيّ هو فعلًا افتراضيّ، وموجود في خيالِهما فقط.

ومِن طُرُق تعبيره عن نفسه وتشجيع ندى في الوقت نفسه، إرسال أبيات الشـــعر، ففي ليلةٍ كانت ندى قد اشـــتكت له تعبَها... أرسلَ لها قصيدةَ المتنبي(*)، التي يقول فيها:

(*) **المتنبّي: أبو الطيب**

أبو الطيّب المتنبّي هو أحمدُ بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي أبو الطيّب الكِندي، الكوفيّ المولد، وُلد سنة 303 هـ. نُسب إلى قبيلة كِندة نتيجةً لولادتِه بحيّ تلك القبيلة في الكوفة لا للانتماء إليهم. عاش أفضل أيّام حياته وأكثرها عطاءً في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب، وكان أحد أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكّنًا في اللغة العربيّة وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم يُتَحْ مثلُها لغيره من شعراء العربيّة. يوصف بأنه نادرةُ زمانه، وأعجوبةُ عصره، ولا يزال شعرُه إلى اليوم مصدر إلهام ووحي للشعراء والأدباء. وهو شاعر حكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، ويدور معظم قصائده حول مدح الملوك. يقولون عنه إنه شاعرٌ أنانيٌّ، ويظهر ذٰلك في أشعاره. قال الشعر صبيًّا، فنظم أوّل أشعارِه وعمرُه 9 سنوات. اشتُهِرَ بحدَّةِ الذكاء، واجتهادِه، وظهرتْ موهبتُه الشعريّة باكرًا.

هو صاحبُ كبرياء، وشجاعٌ، وطَموحٌ، ومحبٌّ للمغامرات. في شعره اعتزاز بعروبته، وتشاؤم، وافتخار بنفسه. أفضلُ شعره في الحكمةِ، وفلسفةِ الحياة، ووصف المعارك، وقد جاء بصياغةٍ قويّة مُحكمة. إنه شاعر مبدِعٌ، عملاق، غزير الإنتاج، يُعدّ بحقّ مفخرةً للأدب العربي، فهو صاحب الأمثال السائرة، والحكَمِ البالغة، والمعاني المبتكرة. وجد الطريق أمامه أثناء تنقُّله مهيَّأً لموهبته الشعريّة الفائقة لدى الأمراء والحكّام، إذ تدور معظم قصائده حول مدحهم. لٰكن شعره لا يقوم على التكلّف والصنعة، لتفجُّر أحاسيسِه وامتلاكِه ناصيةَ اللغة والبيان، ما أضفى عليه لونًا من الجمال والعذوبة. ترك تراثًا عظيمًا من الشعر القويّ الواضح، يضمُّ 326 قصيدة، تمثّل عنوانًا لسيرة حياته، صوّر فيها الحياةَ في القرن الرابع الهجري أوضح تصوير، ويُستدَلّ منها كيف جرت الحكمة على لسانه، لا سيّما في قصائده الأخيرة التي بدا فيها وكأنه يودع الدنيا عندما قال: «أبلى الهوى بدني...» =

= شهدَت الفترةُ التي نشأ فيها أبو الطيب تفكُّكَ الدولة العبّاسيّة وتناثُر الدويلات الإسلاميّة التي قامت على أنقاضها. فقد كانت فترة نضج حضاريّ، وتصدُّع سياسيّ، وتوتّر وصراع عاشها العرب والمسلمون. فالخلافة في بغداد انحسرتْ هيبتُها، والسلطان الفعليّ بات في أيدي الوزراء وقادة الجيش، ومعظمهم من غير العرب. ثمّ ظهرتْ الدُّوَيْلاتُ والإماراتُ المتصارعة في بلاد الشام، وتعرَّضتْ الحدود لغزَواتِ الروم، والصراعِ المستمرّ على الثغورِ الإسلاميّة، ثُمَّ ظهرتْ الحركاتُ الدمويّة في العراق، كحركة القرامطة وهجماتهم على الكوفة. لقد كان لكلّ وزيرٍ ولكلِّ أمير في الكيانات السياسيّة المتنافسة مجلسٌ يجمعُ فيه الشعراء والعلماء، يتخذ منهم وسيلةَ دعاية وتفاخُر، ووسيلةَ صلةٍ بينه وبين الحكّام والمجتمع، فانتظام هٰذا أو ذاك من الشعراء أو العلماء أو ذاك في هٰذا المجلس يعني أنه اتفق وإيّاهم على إكبار هٰذا الأمير الذي يدير هٰذا المجلس وذاك الوزير الذي يُشرف على ذاك. والشاعر الذي يختلف مع الوزير في بغدادَ مثلًا يرتحل إلى غيره، فإذا كان شاعرًا معروفًا استقبله المقصود الجديد، وأكبره لينافسَ به خصمه أو ليفخر بصوته. في هٰذا العالم المضطرب كانت نشأة أبي الطيّب، ووعى بذكائه الفطريّ وطاقته المتفتحة حقيقة ما يجري حوله، فأخذ بأسباب الثقافة مستغلًّا شغفه بالقراءة والحفظ، فكان له شأن في مستقبل الأيام أثمر عن عبقرية في الشعر العربي. كان في هٰذه الفترة يبحث عن شيء يلحّ عليه في ذهنه، أعلن عنه في شعره تلميحًا وتصريحًا حتى أشفق عليه بعض أصدقائه وحذّره من مغبّة أمرِه، حذّره أبو عبد الله مُعاذ بن إسماعيل في دهوك فلم يستمع له، وإنما أجابه: «أبا عبد الإله مُعاذ إني...» إلى أن انتهى به الأمر إلى السجن.

مقتله: كان المتنبي قد هجا ضَبَّة بن يزيد الأسدي العيني بقصيدة شديدة مطلعها:

مـــــا أنصَفَ القَـــومُ ضَبّـــه   وَأُمَّـــــــــهُ الطُّـــــرْطُبَّـــه

وإنّمـــــا قـــلتُ مــــا قُـلـ   ــــتُ رَحمَــــــةً لا مَحَبّـــه

فلمّا كان المتنبي عائدًا إلى الكوفة، وكان في جماعةٍ، منهم ابنه محمد وغلامُه مفلح، لقيَه فاتك بن أبي جهل الأسدي، وهو خال ضَبّة، وكان في جماعة أيضًا. فتقاتل الفريقان، وقُتِل المتنبي وابنه محمد وغلامُه مفلح في النعمانيّة بالقرب من دير العاقول غربيّ بغداد. =

بِــمَ التّعَلُّــلُ لا أهْــلٌ وَلا وَطَنٌ ... وَلا نَديــمٌ وَلا كأسٌ وَلا سَــكَنُ

أُريــدُ مِــنْ زَمَنــي ذا أنْ يُبَلّغَني ... ما لَيــسَ يبْلُغُهُ من نَفسِــهِ الزّمَنُ

لا تَلْــقَ دَهْرَكَ إلّا غَيــرَ مُكتَرِثٍ ... ما دامَ يَصْحَبُ فيهِ رُوحَكَ البَدنُ

فَما يدومُ سُــرورٌ ما سُــرِرْتَ بِهِ ... وَلا يَــرُدُّ عَلَيكَ الفائِــتَ الحَزَنُ

مِمّا أضَــرّ بأهْــلِ العِشْــقِ أنّهُمُ ... هَوَوا وَما عَرَفُوا الدّنْيا وَما فطِنوا

تَقْذَى عُيُونُهُــمُ دَمْعًا وَأنْفُسُــهُمْ ... في إثْــرِ كُلِّ قَبيحٍ وَجهُهُ حَسَــنُ

تَحَمّلُــوا حَمَلَتْكُــمْ كلُّ ناجِيَــةٍ ... فــكُلُّ بَيْنٍ عَلَــيّ اليَــوْمَ مُؤتَمَنُ

ما في هَوادِجِكم من مُهجتي عِوَضٌ ... إنْ مُتُّ شَــوْقًا وَلا فيها لها ثَمَنُ

يا مَنْ نُعيتُ على بُعْدٍ بمَجْلِسِــهِ ... كُلٌّ بمــا زَعَــمَ النّاعــونَ مُرْتَهَنُ

كمْ قد قُتِلتُ وكَمْ قد مِتُّ عندَكُمُ ... ثُمّ انتَفَضْتُ فــزالَ القَبْرُ والكَفَنُ

قد كانَ شــاهَدَ دَفني قَبلَ قَوْلِهِمِ ... جَماعَةٌ ثُمّ ماتوا قبْــلَ مَنْ دَفَنوا

مَا كلُّ مــا يَتَمَنّى المَــرْءُ يُدْرِكُهُ ... تجرِي الرّياحُ بما لا تَشتَهي السُّفُنُ

رَأيتُكُمْ لا يَصُونُ العِرْضَ جارُكمُ ... وَلا يَــدِرُّ علــى مَرْعاكُــمُ اللّبَنُ

جَــزاءُ كُلِّ قَرِيــبٍ مِنكُــمُ مَلَلٌ ... وَحَــظُّ كُلِّ مُحِبٍّ منكُــمُ ضَغَنُ

وَتَغضَبونَ على مَنْ نــالَ رِفْدَكُمُ ... حَتّى يُعاقِبَــهُ التّنغيــصُ والمِنَنُ

فَغادَرَ الهَجْــرُ ما بَينــي وَبينَكُمُ ... يَهماءَ تكذِبُ فيهــا العَينُ والأُذُنُ

تَحْبو الرّوَاسِمُ مِن بَعدِ الرّسيمِ بها ... وَتَسألُ الأرْضَ عن أخفافِها الثَّفِنُ

إنّي أُصاحِبُ حِلمي وَهْوَ بي كَرَمٌ ... ولا أُصاحِبُ حِلمي وَهوَ بي جُبُنُ

= وقصةُ قتله أنه لمّا ظفِرَ به فاتك أراد الهرب، فقال له غلامُه: أتهرب وأنت القائل:

الخَيْــلُ والليْلُ والبَيْــداءُ تَعْرِفُني ... والسَّيْفُ والرُّمْحُ والقُرطاسُ والقلمُ

فردّ عليه بقوله: «قَتَلْتني قَتَلَكَ الله!»

وَلا أُقيــمُ علــى مــالٍ أذِلُّ بِــهِ ... ولا أَلَــذُّ بِمــا عِرْضِي بِــهِ دَرِنُ

سَــهِرْتُ بَعدَ رَحيلي وَحشَةً لكُمُ ... ثُمَّ استَمَرَّ مَريري وَارْعَوَى الوَسَنُ

وَإنْ بُلِيــتُ بــوُدٍّ مِثْــلِ وُدِّكُــمُ ... فـإنّـنـي بـفِـراقٍ مِـثْـلِـهِ قَـمِـنُ

أبْلى الأجِلّةَ مُهْــري عِندَ غَيرِكُمُ ... وَبُدِّلَ العُذْرُ بالفُســطاطِ والرّسَنُ

عندَ الهُمامِ أبي المِسكِ الذي غرِقَتْ ... في جودِهِ مُضَــرُ الحَمراءِ واليَمَنُ

وإنْ تأخّــرَ عَنّي بَعــضُ مَوْعِدِهِ ... فَمــا تَأخُّــرُ آمالــي وَلا تَهِــنُ

هُــوَ الوَفــيُّ ولٰكنّي ذَكَــرْتُ لَهُ ... مَــوَدّةً فَهْــوَ يَبْلُوهــا وَيَمْتَحِــنُ

«أَفْتَقِدُكَ. أَشْــتاقُ إِلَيْــكَ. أُرِيدُكَ. أَتَنَفَّسُــكَ. أَسْــمَعُكَ. أَتَخَيَّلُكَ. أَنْتَظِرُكَ. أَعيشُكَ. أَكْتُبُكَ. أَحْفَظُكَ. أصونُكَ. أُصلّي من أَجْلِكَ. أُحِبُّكَ... لا بَلْ أَعْشَقُكَ.»

* * *

ما زالت الأيّــام تمرُّ وندى أصبحتْ إنســانةً أخرى، حتى هيَ لا تعرفُ نفسَــها، والناس من حولِها يتســاءلون ما بها، وما ســببُ هٰذا التغيير والهدوء والانعزال!!!

إنه بلاءُ الحب...

أيّامُها أصبحتْ أصعبَ وأقسى، فهي تعيشُ الغُرْبَةَ في بَيْتِها وبينَ أهلِها وناسِــها... لا تعرِفُ أحدًا ولا تميِّزُ أحدًا ولا تُريد التحدُّثَ إلى أحد...

فــي النهاية، هي مَن يجبُ عليها إنقاذُ نفسِــها، لا أحد يســتطيع مساعدتَها. علي ليس لها، ولن يكون لها في يومٍ من الأيّام. علي قلَبَ حياتَها وربّما دَمَّرهــا... أجلْ هو دَمَّرَ حياتَها. ليس شــخصُ عليٍّ من دمَّرَها، إنما القدَرُ دَمَّرها مِنْ خلالِه. وهي تتمنّى الاستقالةَ منها.

وبما أنّ حياتَها أصبحــتْ من دون معنًى، قرَّرَتْ أن تجدَ معنًى لحياةِ عليّ وتدْفَعَهُ إلى الأمام، علي رجــلٌ صالحٌ لٰكنه في المكانِ الخطأ، وكلُّ شــيءٍ رأتْهُ فيــه كان بحاجةٍ إلى مَن يقــدّرُهُ ويدعمُه ويفخَرُ به... وها هو قد وقع بين يدَي نــدى... قدرُه كانَ لصالِحِه،

واللهُ فعلًا يحبُّه لأنّ نــدى تعرفُ جيّدًا كيف تحافظُ على الإنســانِ الصالحِ، فقرّرتْ أن تصنعَ من نفسِها سجّادةً مخمليّةً طويلةً وظيفتُها أن توصلَهُ دائمًا إلى بــرِّ الأمان، وهو مرفوعٌ على أكُفِّ الراحةِ حتى مِن بُعد.

انتظرتْ عدَّةَ أســابيعَ وكتبتْ له رســالةً تشــرحُ له ما رأتْ فيه، وعرَفَتْ عنه، من خلالِ زيارتِها... كتبتْ قائلة:

«أحتارُ دائمًا كيف أبدأُ بتوجيه الكلامِ لك... التحيّةُ صعبة...!!!

لن أكلِّمَك كنفســي هٰذه المرَّة، فأنا أُكثِرُ منَ الشــكوى والعتابِ وأُتعِبُكَ دائمًا... أنا أكلِّمكَ وأوجِّهُ الــكلامَ لك... وأظنُّ أنه قد آن لي أنْ أعترفَ بما تعلّمتُ ورأيتُ في شــخصِكَ الكريم... فاجلِسْ وارْتَحْ واستمتِعْ بالقراءة. فكلُّ حرفٍ مقصودٌ وموجَّهٌ لروحِكَ وقلبِكَ وعقلِكَ.

«للهِ في خَلْقِهِ شؤونٌ، وله شأنٌ عظيمٌ في خَلْقِكَ.»

دَعني أَقُلْ لك ما لا تراهُ في نفسِــكَ، أو ربّما تراهُ وتتواضَع في إظهاره:

أنت إنسان...

فيكَ كلُّ الإنسانيّةِ ومشــاعرِها، وتعكِسُــها بهدوئك. فأنتَ راقٍ، محترَمٌ، ولٰكن ليس بدرجةِ الاحترامِ التي يتداوَلُها الناس، أنتَ محترَمٌ إلى درجةٍ تفوقُ الحبَّ في التعامُل...

أنتَ مُريح...

ففي كلِّ مــرَّةٍ يحصُلُ موقفٌ أتوقَّــعُ فيه منــكَ رَدَّةُ فِعْلٍ جامحةٌ وغضب... تــردُّ بهدوءٍ ســاحرٍ، وعقلانيّــةٍ لا مَثيلَ لهــا، ومعها حبّةُ مِسْك...

أنتَ ساحر...

ساحرٌ بكلامِكَ، بصوتِكَ، بضِحْكَتِكَ، أنتَ ساحرٌ في قلبِك... لا تقاوِمْ نفسَكَ... كنْ ساحرًا وأظهِرْ ذٰلك، فهي صفةٌ جميلةٌ جدًّا.

أنتَ تَعِبٌ...

أنتَ جبلٌ من الهموم، تقسو على نفسِك، ويبدو أنكَ اعتدتَ أن تفعلَ هٰذا، مع أنّكَ بارعٌ في إخفاء همّكَ ووحدتِك خلفَ ابتسامةٍ أخّاذةٍ تأسِر العيون... حتى تعبُكَ تتعاملُ معه بحكمة وتَوازُن... أنتَ مَلَكٌ على نفسِكَ وملاكٌ معي... وصحيحٌ أنكَ لستَ بحاجةِ أحدٍ ولا مساعدةٍ من أحد، وأنا بدأتُ أرى ما تراه، وأشعُرُ ما تشعُر، وفهِمت.

أنت رجل...

ويا وَيْلي كمْ أنتَ رجلٌ في كلامِكَ، وفي مواقفِكَ، ومشاعرِكَ، وصمتِك...

أنتَ رجلٌ تحلُمُ به حكيماتُ الأرض... رجلٌ في تفكيرِكَ وعقلِكَ وتهذيبكَ... أنتَ رجلٌ في احترامِكَ لذاتكَ واحترامِ الآخرين لكَ... أنتَ رجلٌ وُلِدتَ رجلًا وتَرَعْرَعْتَ رجلًا وكَبُرتَ قبل أوانِك لتكونَ الرجلَ الذي أنتَ عليه الآن... فقلبْتَ المقاييس... فأنتَ رجلٌ خُلِقتَ من الهمِّ والعذابِ، والحرمانِ، لتصبحَ أجملَ الرجالِ قلبًا وقالبًا...

أنتَ مؤمن...

على الرغم من كلّ المطبّاتِ في حياتِك، أنت مؤمنٌ باللهِ وبما رَسَمَه لك... وهٰذا بحدِّ ذاتِه سلامٌ... أنتَ رجلُ سلامٍ واللهُ أَحبَّكَ بأن أنعمَ عليكَ بصفاتٍ لم يعرِفْها غيرُك... أنتَ رسولٌ في إيصالِ بركاتِ اللهِ للناسِ التائهةِ مثلي... ولا أحدَ مثلُك.

أنتَ أبٌ...

أنتَ ذراعٌ قويّةٌ لحَمْلِ أطفالِك، صدرٌ حنونٌ لتدفئتهم، عينٌ ساهرةٌ لراحتهم، وعرَقُ جبينٍ لِقوتِهم... أدامَكَ اللهُ لهم وأدامهم أبرارًا في ظِلِّك. أنتَ كسرتَ مقولة: «فاقدُ الشيء لا يعطيه.» انظر إلى نفسِكَ... نبعَ عطاءٍ وأمانٍ وملجأً لهم... بارَكَ اللهُ جُهودَك وتعَبَكَ، وحفِظَكَ مِنْ كلِّ شرّ.

أنتَ معلّم...

طُرُقُكَ في التعليم تختلف... ففي صمتِكَ دروس: الواقع، والألم، والحكمة، والحَيْرة... في صمتِكَ هدوءٌ، وسكينةٌ، وراحةٌ، ورضًى... في صمتِك جاذبيّة.

أمّا حديثُكَ، فأنتَ بلسمٌ، وهٰذه حقيقة... أنتَ، وبكلِّ بساطةٍ وبشكلٍ عامٍّ، كلامٌ جميلٌ، ومفيدٌ وناصحٌ، ومنطقيّ... كلامُكَ هادفٌ، وفيه إقناعٌ وتحبُّب... أمّا بشكلٍ خاصٍّ، ومن دون تهويل... فقد غيَّرَ حياتي، ولا أظنّ أني أستطيعُ أن أزيد على ذٰلك وصفًا.

أنتَ دواء... في صبرِكَ العميق، وأنتَ هُدًى... أنتَ رسالةُ خيرٍ، ومثالُ حياةٍ يُحتذى في تخطّي الصِّعاب وصَدِّ الشكاوى... فبالفعل «لا حلّ لعلاقتنا» هو حلٌّ بحدِّ ذاتِه... كلمةٌ تطبّبُ عذابًا وتُخرِسُ ألمًا وتُقنع العليل.

أنتَ تُضحّي...

ضحّيْتَ معي... فأنتَ تُكابِرُ وتقاوِمُ نفسَك في الاقتراب، وتحمِل كَفَّتَي الميزانِ بتساوٍ لأنّكَ تعرِفُ أنَّ اقترابَكَ يحرُقني.

أنتَ صديق...

أكتُبُها ويدي ترتجف... فقد أثبتَّ لي أنّ الدنيا بخيرٍ، وأنّ الصِّدقَ والصداقةَ، ما زالا أكثرَ من مصطلحاتٍ يتداولُها الناس بعيدًا عن

تطبيقها... أنتَ بـارعٌ في دورِ الصديق... وأنـتَ صديقي، وهي كلمةٌ كبيرة.. أُهنِّئكَ فقد ملأتَ مسـاحَتَها الكبيرة. وربَّمـا يعجِز الكلامُ هنا أيضًا، فأتركُ النُّقَطَ فربّما أوصلَتْ المطلوب (...)

لم أَذكرْ شيئًا لم ألمِسْـه خلالَ معرفتي القصيرةِ بك. لٰكن كلُّ ما ذكرْتُهُ واقع... رأيتُه عَبْرَ كلماتِكَ، ولمسْـتُهُ في صوْتِكَ، واختبرْتُه في فترة ضَعفي.

أريدكَ أن تكونَ فخورًا بنفسـكَ، لأنّ مَعْدِنَـكَ نادرٌ، وأنت لن تتكرَّرَ على الكرةِ الأرضيّة، ولا أريـدكَ أن تتواضع... فالتواضعُ لا يَفيكَ حقَّكَ... أريدكَ أن تُشـرقَ ولا تبخلَ بـأيٍّ مِن صفاتِك على البشرِ من حولِكَ أو في الأردن. أريدكَ مُفعَمًا بالحياة... تُمارسُ ما تحبُّ... تسبحُ وتسافرُ وتكتبُ شعرًا وتشاركُني فيه... أريدكَ ناجحًا، وسعيدًا قدْرَ المسـتطاع... أُريدكَ أن تبقى كما أنتَ... وتفتخرَ بمنْ هو أنت...

حفِظَـكَ اللهُ، وأطـالَ في عمـرِكَ صحّةً وسـعادةً يـا أطيبَ الخَلْق... معكَ عرفْتُ دربًا لم يعرفْهُ بشر... وكما تقولُ وأؤمن: «للهِ حكمة.» وأجملُ حكمةٍ ونعمةٍ أنتَ، فهٰذا شرفٌ وفخرٌ لي خصَّني به المولى.

اللهُ يبارِكُكَ.. أَوْجعتَ قلبي.»

كانتْ رسـائلُ ندى لعلي تعجبُه كثيرًا، فقد كانَ يستمتعُ بقراءتها ويعجزُ عن الرد، لذا كان يؤثِـرُ الصمتَ في أغلب الأحيان. لٰكن ندى لم تكتبْ يومًا حرفًـا واحدًا فقط لأجل الكتابة، بـل كانتْ تكتبُ ما تخطُّه عليها مشـاعرُها من إحسـاسٍ وعقلُها من أفـكار. إنها منطقيّةٌ وواقعيّةٌ، والحبُّ الذي تُكِنُّه لعلي لن يفهمَه أحد... رُبَّما هو نفسُه لن يفهمَه إلّا إذا فقده، حينذاك سيعرفُ حتمًا كم أنَّ الله يحبُّه.

بعد رسالتِها الأخيرة، صمتَ عليٌّ مطوّلًا ولم يتواصلْ مع ندى، ولم يُبدِ أيّ رَدّةِ فعل، لٰكن وفي هٰذه المرّة، شعرتْ ندى بالقلقِ لأنّ اختفاءه مدَّةَ أيامٍ لم يكنْ له سابقة. قرَّرتْ الاتصال به هاتفيًّا، وبدا صوتُه مُتعبًا على الرغم من هدوئه المعهود... وطمأنها إلى أنه بخيرٍ، وكذٰلك أهلُ بيتِه بخيرٍ أيضًا، وأنه بصددِ كتابةِ رسالةٍ مطوّلةٍ يحدّثها عمّا يجولُ في خاطرِهِ من أمورٍ لا يجرُؤ على مناقشتِها عبر الهاتف. تقبَّلتْ ندى الفكرة على الرغم من توتُّرِها من هٰذا التصرّف، وتركتْ له المساحةَ التي طلب، يكفيها أنها اطمأنَّتْ إلى أنه بخير.

بعد يومين، وصلتْ رسالةٌ من علي عَبْرَ المسينجر في الليل، جلستْ ندى في سريرِها وَسْطَ الظلامِ وبدأتْ القراءةَ من هاتفِها المحمولِ، وقد هالَها أن ترى منه رسالةً مطوّلةً، فهي عادةً مَن يكتبُ بإسهابٍ وهو مَنْ يكتبُ ما قلَّ ودلّ...

بدأ رسالتَه كعادته هٰكذا:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

كنتُ أفكّرُ في الفترةِ السابقةِ كيف أبدأ، لقد استغرقَني وقتٌ لكيْ أُدركَ حجمَ المسؤوليّة التي ألقيتْ على عاتقي بمجرّد أني عرفْتُك. ومن الصعب جدًّا أن أعترف بأني في ورطة، لٰكني فعلًا في ورطة... عندما عرَفْتُكِ، كنت أفكّر بأنّي أضفتُ اسمًا جديدًا إلى قائمةِ أصدقائي على «الفيس بوك» الذين كما ترَيْن قد تجاوزوا المئات، لم أكن على يقينٍ بأنّ علاقتي بكِ ستقلبُ حياتي، وتفتحُ عينيَّ على أُمورٍ كنتُ أخاف أن أواجهَ بها نفسي... فقد رأيتِ أني رجلٌ أستحقُّ أكثرَ من الحياة، أستحقُّ أكثرَ من السعادة، وأكثرَ من الراحة، وأكثرَ من الحرّيّة وأكثرَ من الطموح، والأهمّ... وجدتِ أني أستحقُّ أكثرَ من الحبّ...

في كلّ مرّة كنتِ تكتبينَ لي وتقولين إنك تائهة، كنتُ أنا تائهًا، كنتِ تشتكين بأنكِ تغيّرْتِ، وكنتُ أنا أيضًا أتغيّر، كنتِ تبكين ليالي، بينما كانَ النومُ يفارقني، ويضعُني أمام حلقةٍ من الأسئلة التي لا أجدُ لها أجوبة.

تغيّرتُ، صحيح. تغيّرتُ، وفهمتُ، وعرفُت أني مذنبٌ بأنْ اصطدْتُكِ من دون البشر، وربطتُكِ بخيطٍ رفيع، وتركتُ الهواءَ يلعبُ بك تمامًا كطائرةٍ ورقيّة، ترتفعُ، وتهبط، وتدور، وتسقط، وأنا ثابتٌ مكاني، وفي يدي مفتاحُك، أجلْ في يدي كنتُ أربطكِ بذٰلك الخيط الرفيع، وأستمتعُ وأنا أنظُرُ إليكِ تتخبّطين بين تيّارات الهواء غير المستقرّة... كنتُ أظنّ أنّ منظرَكِ جميل وأنت تحومين حولي، جميلٌ للغاية، لم أكنْ مدركًا أنني كنتُ سطحيًّا وهمجيًّا ومستغلًّا إلى أن بدأ الخيط بيني وبينك يتحوّل إلى حبلٍ سميك، ثُمّ بدأ يقصُرُ إلى أن اختفى، وصار حالُنا واحدًا، وهنا شعرتُ بكلّ ما كنتِ تمرّين به، رأيتُ أني ظالم، ولا أستحقّ منكِ التفاتة...

لقد أحببتكِ، لأنكِ سلبتِني بكلامِك، واهتمامكِ، وعطائك، أخذتِني بتضحِيَتكِ، وحبّكِ وصدقكِ...

أنتِ امرأةٌ وأخذتِني من دون أن تستخدمي أيًّا من أسلحتِكِ الأنثويّة، والتي تصعُب جدًّا مقاومتُها، وتجاهُلُها من قِبَل أيّ رجل.

أنتِ روحٌ... بالفعل، أنتِ اتصلتِ بي من خلال روحِك، وأرواحُنا التقتْ، والتقينا على الرغم من تأخّري، وقِصَر نظري، وجشعي بأن أزيدَكِ اسمًا وعددًا على قائمة أصدقائي الافتراضيّة.

كلُّ ما تغيّر فيكِ تغيّر فيّ، كلُّ ما حصلَ لكِ حصل لي، التقينا، وكم أتمنّى لو أعيدُ الزمن وأمحو لقاءنا، لا أريدكِ، لا أريدُ أن أعرفَ أنّ هناك حياةً غيرَ التي أعيش، لا أريد أن أعرفَ أنّ هناك نصفًا آخرَ

لي ويعيشُ بعيدًا عني، لا أريد أن أعرِفَكِ وأتصوَّرَكِ في أحضانِ رجلٍ آخَرَ وأذكّرُ نفسي بأنكِ لن تكوني لي يومًا.

قلتِ لي إنكِ تجدين نفسَك واقفةً أمام جدارٍ إسمنتيٍّ عالٍ وباردٍ ومظلم، وأنا أقول لكِ إنيّ أقفُ أمام هٰذا الجدارِ الأصمِّ نفسِه، لٰكن من الجهةِ المقابلة.

كنتِ تبكينَ وتصرخين: «ساعِدني، ساعِدني!!» ماذا أقولُ الآن؟؟؟ ممّن أطلبُ المساعدة؟؟ إلى من ألتجئ؟؟

فتراتُ الصمتِ الأخيرةُ التي كنتُ أمرّ بها، كانت فتراتٍ عجراءَ بكلِّيّتها، فقد كنتُ أفكّر في كلِّ شيءٍ مِن حولي، ووجدتُ أني بدأتُ أرى الأشياء بمنظار جديد، حتى البحرُ الذي كنتُ أظنّ أني أعرفُ كلَّ شيء عنه وعن أمواجه، أدركت أني لا أعرف شيئًا عن عُمقه، ومعاني تموُّجِ مياهِه قبل الآن... بدأتُ أرى البعدَ الثالثَ لكلّ شيءٍ من حولي، بدأتُ أدركُ أني أعيشُ حياةً غيرَ التي أردتُ أو حتّى عرَفت.

أنا في ورطة، وكما هو واضح إنّنا كلينا في ورطة، وكأنها كأسٌ علينا شُرْبها والتعايُشُ مع أثرها في حياتنا، علينا المُضِيُّ قُدُمًا مُرغَمَيْنِ، لا نستطيعُ أن نتنصَّلَ مِن الوضع الحاليّ في حياتنا (الأولاد والشريك والمجتمع الضيّق). يجب علينا التحلّي بالقوّة، وأن نضحّيَ بنفسيْنا من أجلِ أن يحيا أولادُنا حياة طبيعيّة قدْرَ الإمكان... لنكن كبشَ الفداءِ، ولنَسِرْ على هٰذا الدرب، (صعب أكيد) لٰكني أكرّر: نحن قويّين، ونستطيع أن نُكملَ حياتَنا تمامًا كما كانت قبل أن نلتقي، ولنحافظْ على صمتِ روحَيْنا إلى أن تحين ساعتها.

أكيدٌ من أنكِ سامحتِني من دون سؤالي، فقلبكِ واسعٌ، ويسَعُ آلامَ الكون بأسرِه... ومع ذٰلك أطلبُ منكِ السماحَ لدُخولي حياتَكِ بقسوةٍ فاقتْ القسوةَ، وبشكلٍ فُجائيٍّ وأنانيٍّ ومتكبّر. لم أعرفْ... لا

بل لم أتصــوّرْ يومًا أن أقفَ إلى جانبِكِ، وأنظــرَ بعينيكِ، وألتمسَ ما في قلبِك، وأشاهدَ المشهدَ المؤلِمَ الذي نعيش.

ابقَيْ هنا كما عهِدتُك دائمًا، ابقَيْ معي، فبيننا عمرٌ وحياة... ابقَيْ فأنا بحاجتِك.»

علي...

لأوّل مرّة مذ عرفَتْه يكشــفُ لها عمّــا يدور في خَلَــدِه من أفكارٍ ومشاعرَ جعلَتْها تبكي ليلةً كاملة... كأنّه كان يعرفُ ما يجولُ في خاطرِها من تســاؤلاتٍ، فأجاب عنها بإســهابٍ، ومن دون تــردُّد، اختار كلماتٍ كانت تتمنى لو تسمعُها منه، كانت تقرأ رسالتَهُ ولا تصدّقُ ما تقرأ، كانت السطورُ صدَى أفكارِها، ولم تكن عليها جديدةً، إلّا أنّها من جهة عليّ...

اطمأنّتْ، على الرغم من أنها غاصتْ في ورطةٍ أكبرَ من مشــاعرَ جيّاشــة، لٰكنّها اطمأنّتْ إلى أنها بين أيدٍ أمينــة، وأنّ التواصلَ بينهما يسير على المستوى نفسِه.

في النهاية هــي امرأة وجــدتْ الحبَّ، وفهمــتْ أنَّ الحبّ ليس بالشــيء الجميل الذي تراه في الأفلام. إنه مــن أصعب التجارب في حياتها. وصحيــحٌ أنّ عليًّا يبادلها الحبَّ وقد تغَيّرَتْ شــخصيّتُه أيضًا، وأصبحا يفهم أحدُهما الآخر حتى من دون تواصُل، وتشعُرُ بأنه يفكّر فيها، وتــرى اهتمامَه صار أكبرَ، ورغبتَه فــي التواصُل لا تنقطع، وبدأ يرى أنه يحتاجُها لأنها مجرّدَة من كلّ إساءة قد تعرّض لها في حياته، حتى من أقــرب الناس إليه... لٰكنــه ما يزال يديرُ الدفّــةَ وهي تعيشُ تحتَ رحمتــه. على الرغم من كلّ شــيء، هي وجدت مــا لم يجدْه ويعرفــه ملايين من النــاس. أنْ تجدَ الحبَّ وتجدَ مــن يُبادلها الحبَّ بالطريقة نفسها شيء مميّز ونادر الوجود.

عليها الآن قَبولُ الواقع، والرضوخُ لحِكمةِ الله في سَـيْرِ الأقدار، لا مفرَّ من العذابِ، ولا مفرَّ من نفسِها، لذا عليها بالتَّحلّي بالشجاعة، والاسـتمرارُ على النهوضِ والسَّـيْرِ إلى الأمام. وربّما عليها الانتظارُ إلى أن يصبحا بعمر الستّين لكي يهرُبا إلى كوخٍ في الجبل، ويعيشان معًا، ويحتسـيانِ القهوةَ، ويثرثرانِ إلى الأبد. فهٰذه فُسـحةُ الأملِ التي يصبّر بعضهمـا بعضًا بها من خلال حديثهما أحيانًـا لتلطيفِ الأجواءِ والتخفيفِ من حدّةِ الضغط النفسيّ والتوتُّر.

ونعودُ إلى السـيّد عماد أو الزوج بشـكلٍ عامّ: عنـدَكَ، وبين يديْكَ عجيـن، اعجنْـهُ واصنَعْ منه خبـزًا. لا تُهمِلْـه. حافِظْ على زوجتِكَ وأصغِ إليها. تقرَّبْ منهـا، وكن صديقَها. احتسِ معها قهوةً برائحةِ الحـبّ. ازرعْ لتحصدْ، ابـنِ ثقةً وَكنْ شـريكَ حياةٍ وليس شَـرَك (حياة). لا تنظُر إلى الفائدةِ في زوجتِك، بـل فكّر، وعلِّمْها كيف تستفيدان من الحياةِ وتستمتعان بها. وعليكَ يا سيّد آدم أن لا تكونَ متأكدًا من امتلاكِك زوجتَك بمجرّد أنْ احتلَلْتَها في سريرك، هٰذا ما تظنّ. أنتَ حصلـتَ على العلبة، لٰكن ما هـو داخل العلبةِ يا تُرى؟؟ هٰذا ما لا تسـتطيعُ أن تحصُل عليـه أو تعرفَ محتواه، ما دُمتَ تتعامل مـع زوجتِك بذكورةٍ وليـس برجولة. فالروحُ هي مفتاح الإنسـان، ومهما وضعتَ القيود، فلن يستطيعَ أحدٌ امتلاكها، فالله وضَعها، واللهُ يأخذها...

لكلِّ أخطـاؤه، والكمالُ لله عزّ وجلّ، على الإنسـان أن يحاولَ تسـيير خُطاه، وربّما، في حالة ندى، عليها تسييرُ ضعفِها والتعايشُ مع ألمِها بصمتٍ، واعتبارُه نوعًا مـن أنواع الطاقة التي من الممكن الاسـتفادةُ منها وتوجيهُها لتقديـم النصحِ للآخريـن، لإدراكِها أنّ الانكسارَ بحدّ ذاتِه مدرسـةٌ، والدنيا لمَنْ لا يفهمُها. وكم تتمنّى لو لم تفهمْ شيئًا.

لٰكن لا حياةَ لمن تنادي، فندى ستعيش مع عماد جسدًا، لأنّ الروحَ بعيدة كلَّ البعدِ عن هٰذا الغلاف البالي.

مضتْ قَرابةُ السنةِ والنصفِ منذ أن التقيا لأوّل مرّة، وها هيَ تترُك بركانَ عواطِفها ومشاعرِها بين يَدَي الزمن ليخمد، وسيكونُ لقاؤها بعلي دائمًا مع كلّ فنجان قهوةٍ تحتسيه، مرِّ بطعمِه وعلقم بمعناه... وستبقى تحبّه ويحبّها، وسيظلّ بيتَ الأمان بالنسبة إليها، وستظلّ دائمًا وسادةَ راحةٍ وملجأً يجدُه متى احتاجه... كلُّ هٰذا وأكثرُ سيكون في عالمِهما الافتراضيّ، فيلتقيانِ في بيتهما المبنيِّ على أساسِ الثقة، ترتفعُ فوقه جدرانُ الأمان، ويغطّيها سقف الاحترام...

صوتُ ضحكتِهِ يصدحُ في الغُرَف...

وأوراقُها تتبعثرُ على الأرض بحرّيّة...

رائحةُ القهوة تفوح مِن كلِّ مكان...

وألحانُ الأغاني في كلِّ الأركان...

في بيتهما دفء تزيده الشمسُ نورًا، متسّللةً إليه بخطوطٍ ذهبيّة...

من النوافذ يُطلّانِ على حقولِ السعادة، وجبالِ الطموح، وبحرِ العطاء...

كلُّ هٰذا تحتَ سماءٍ لا حدودَ لها... سماءٍ يتوسّطُها الأمل...

الأملُ هو الشيءُ الوحيدُ الذي بَقِيَ في صنْدوقِ باندورا، الأملُ بأنْ يأتيَ اليومُ الذي سيكونان فيه معًا في عالمٍ واقعيٍّ وحقيقيٍّ، ويكونُ الألمُ في حياتهما مجرَّد مرحلةٍ وانتهت.

«وتنتصرينَ يا دُنيا، وتَقِفينَ وقفةَ الجلّادِ، وبِيَدِكِ سَوْطٌ يَشُقُّ
الهواءَ قبلَ أن يَهوِيَ ويَشُقَّ قلُوبَنا... سنحتمِلُ هٰذا الجَلْدَ
لأجلِ أنْ يأتيَ يومٌ وتحنّي علينا، لعلّ وعسى...!!»